روايـــــة

سَـــلَمة

حقوق النشر والطبع محفوظة لعائلة صخر حبش (أبو نزار) يحيى عبد السلام عبد الهادي حبش

قبل 1936

(1)

كان اكثر ما يغيظ ابراهيم ان يرى يوسف وقد انكبت عيناه على كتاب في يده بينما ارتفع صوته يردد ما تراه عيناه .. فابراهيم يحسن القراءة. ولكن اين هو من يوسف الذي سيختم القرآن هذا العام ثم يصبح تلميذا في مدارس يافا يروح ويجيء كل يوم .

هل كان ذنب ابيه انه ترك المدرسة بعد ثلاث سنوات فقط من دخولها..؟ انه لا يظن هذا.. لقد كان هو وسامي شقيق يوسف في نفس السنة . درسا معا وتركا المدرسة معا ، بينما استمر يوسف الصغير الذي دخل المدرسة بعدهما بسنين.. وهاهو سيصبح تلميذا في مدارس يافا. وسيأخذ الشهادة وسيصبح موظفا او يذهب إلى الخارج ليكمل تعليمه ويصبح دكتوراً، فهل لوالده اثر في هذا النجاح.. لقد اراد يوسف ان يكون شيئا فهاهو نفسه يرى هذا الشيء الذي اراده بينما سامي شقيقه الذي منح نفس الفرصة ونفس الاب لا يزيد شيئا عن ابراهيم..

اقترب ابراهيم شيئا فشيئا من السياج الذي يفصل بين مزرعة عمه الشيخ شلبي وبين بيارة عبد المجيد حسن والد يوسف ، حيث كان الاخير يقرأ ويرتفع صوته المتوتر بكلام لم يفهم منه ابراهيم شيئا.. انه يقرأ بالانجليزية ، هذا الصغير يتكلم انجليزي يستطيع ان يتكلم مع الانجليز . واخذ الغيظ طريقه إلى قلب ابراهيم فاندفع ناحية يوسف يصيح به..

_ ما هذا يا يوسف.. لقد اقلقتني .. اريد ان انام

رفع يوسف رأسه عن الكتاب واخذ يحدق في وجه ابراهيم وكانما قد قرأ في عينيه قصة الغيظ الكامن في قلبه فقال:

_ لا تؤاخذني يا ابراهيم.. فانا لا اعلم انك تسمعني.. ولكنك تقول انك تريد ان تنام .. فهل كنت تريد النوم تحت الاشجار.

_ وهل ترى شيئا في ذلك.. اني رايتك كثيرا تنام تحت هذه الشجرة..

- هذا صحيح فانا اتعب في بعض الاحيان من الدراسة فاجد نفسي اضع الكتاب تحت رأسي لانام قليلا .. ثم اصحو لاعود لدراستي، واما انت فما الذي يجبرك ان تنام تحت الاشجار والبيت قريب . يمكنك ان تنام وترتاح فيه . ام انك تريد أن تستنشق من الاوكسجين الذي ينبعث من عملية الكلوروفيل.

وكان لجملة يوسف الاخيرة اثرها في بعث الثورة في قلب ابراهيم.. ان هذا الصغير كان يقرأ بالانجليزية فلا يفهمه .. ولكنه يتكلم الان بالعربية وهو ايضا لا يفهمه، ما هذا الكلوروفيل والاوكسجين وو.؟ وصاح ابراهيم بغضب:

- اسمع .. اذا كنت تود اعطائي درسا .. فانا لست في حاجة اليه . احمل كتابك وابحث لك عن منطقة اخرى تدرس فيها . لا تقترب من هنا .. اريد ان انام.

- هز يوسف رأسه بسخرية .. ثم قال:

- تريد ان تنام .. ولماذا لا تبحث لك عن منطقة اخرى تنام فيها.. اني لا ولن ادرس الا في هذه المنطقة.. انا في بيارتنا حر انام واقرأ في أي بقعة اريد..

واغتاظ ابراهيم من كلامه فصاح:

- اسمع .. اذا كنت تفكر انك اصبحت شيئا .. فلا تصدق نفسك.. واذا لم تنصرف من امامي الان فسأحطم رأسك.. انصرف.

واعتلى الاصفرار وجه يوسف.. كان صغيرا امام هذا العملاق الثائر ولكنه لا يريد ان يستسلم. ولا يريد ايضا ان يضرب وفكر بملاينة ابراهيم ولكن لسانه خانه فلم يجد كلمة لطيفة يقولها لهذا الوحش الذي يتربص بانياب حقيرة..

وعلا صوت ابراهيم..

- انك لا تزال واقفا! انتظر ايها الحقير..

واخذ ابراهيم يباعد بين الاسلاك التي تفصل البيارتين وقد وطد عزمه على ان يضرب يوسف. وفجأة وقد علا صوت ابنة عمه منى تصيح به.

- ابراهيم .. ابراهيم .. اياك ان تمسه بسوء والا فسنخبر والدنا..

كان الشيخ شلبي مصدر الحزن في حياة ابراهيم. لم يكن يخاف اباه ولا امه .. ولا ابن عمه الدكتور .. وهؤلاء جميعا اذا اراد احدهم منه شيئا كان يكفيه ان يقول له :

- ابراهيم افعل كذا .. والا اخبرت عمك الشيخ .

ولم تكن الدهشة التي علت وجه يوسف تقل عن دهشة ابراهيم. الا ان الاول داخله بعض السرور بادئ الامر حيث ايقن انه لن يضرب.. ثم عاد يخبئ رأسه مذلة.. لم يكن باستطاعته ان يتهرب من الضرب لولا هاتان الفتاتان ..

اخذ يوسف ينظر اليهما ومعاني الشكر تنبعث مع بريق عينيه.. في حين اخذت منى تهمس في اذن حنان:

- لعن الله ابراهيم.. لقد حرمنا من الاستماع إلى صوته اليوم .. انني افرح كثيرا وانا اسمعه يتكلم الانجليزية ..

- انه اجمل بكثير وهو يتكلم العربية .. ولكن هل سيرجع كل يوم الى هنا يا منى .. لقد هدده ابراهيم .

فقالت منى :

- طبعا سيعود..

ثم ارتفع صوتها يخاطب ابراهيم:

- ابراهيم .. هيا بنا إلى البيت ..

وطارت الدهشة من قلب ابراهيم وهو يستمع إلى صوتها تناديه..

- ما الذي جاء بكما إلى هنا..

ونظرت حنان إلى منى التي سارعت تقول:

- ان والدي يريدك .. وقد ارسلنا لنبحث عنك ونجدك.

وزاد خوف ابراهيم .. هل صدقت منى فيما قالت وماذا يريد منه عمه.. واضطر صاغرا ان يتبعهما وهو يهز برأسه مهددا يوسف..

وبعد ان سار ابراهيم مسافة خلف منى وحنان استوقفهما قائلا:

- ماذا يريد عمي..

لم تستطع حنان ان تقول شيئا فهي تعلم ان منى كذبت عليه عندما اخبرته ان والدها يريده .. بينما قالت منى:

- نحن لا نعلم .. انه يريدك .. اذهب اليه ..

وسكتت منى لحظة ثم استعادت

- هل كنت حقا تنوي ضرب يوسف؟

وبهت ابراهيم لدى سماعه اسم يوسف على لسان منى،

فاجاب مغتاظا :

- اجل..

- ولماذا .. هل فعل لك شيئا ؟

- انني حر .. اضرب من اشاء..

فقالت منى وهي تهز رأسها باسمة:

- قل هذا الكلام لابي .. انه في انتظارك ..

ثم اتجهت إلى حنان تقول لها :

- حنان لنجمع بعض ثمر الجوز..

فصاح ابراهيم غاضبا:

- لن تذهبا .. هيا معي .. والا فاني لن اذهب وساقول لعمي انكما لم تجداني.

فاجابته منى هازئة:

- انه سيصدقك طبعا ويكذبنا نحن اللّتين ربانا هو بنفسه ، ولا تنسى يوسف .. لقد اخبرناك امامه..

وعاد الغيظ يقتله من جديد وهو يستمع إلى اسم يوسف فصاح:

- يوسف .. يوسف .. لعنة الله عليه وعليك .

واتجه ابراهيم ناحية البيت بينما اتجهت منى وحنان ناحية شجرة الجوز.

قالت حنان:

- لماذا تكذبين عليه يا منى..؟

- لا ادري .. ولم يكن باستطاعتنا ان نمنعه من ضرب يوسف الا بذكر اسم والدي فهو الشيء الوحيد الذي يخافه

- ولكنه سيذهب اليه، فماذا سيقول والدي عنا

- اذا كلمني ابي في الموضوع فانني ساقول له الحقيقة..

- ماذا .. اتقولين له اننا كل يوم بعد انتهاء المدرسة نأتي لنستمع إلى يوسف، وهو يقرأ بصوته المرتفع.

- ليست هذه هي الحقيقة التي ساخبره عنها.. سأقول له اننا كنا ذاهبين لاحضار الجوز فاذا بنا نستمع إلى ابراهيم وهو يشتم يوسف. ولما اقتربنا رايناه يحاول عبور السياج ليضرب يوسف. وكما تعلمين، ان يوسف صديق ابي وهو لن يرضى لابن عمي ان يعتدي على صديقه ..

- انك رائعة يا منى .. من اين تعلمت هذا كله؟ ليتني اصبح مثلك في يوم من الايام..

- تكفيك طيبة قلبك يا اختاه انها تساوي خمسين منى ..... هيا بنا، لنرى اذا كان يوسف قد ذهب ام لا ؟ واقتربت الاثنتان من الناحية التي كان فيها يوسف، واختفتا خلف الشجرة التي طالما اختفتا خلفها.

لم يكن يوسف قد ذهب بعد. ما زال واقفا كما تركناه .. مبهوتا لا يرتفع صوته ولا تتحرك عيناه كانما هو تمثال شيد لطالب مثالي.

ووثبت منى من خلف الشجرة واتجهت ناحية يوسف وتبعتها حنان فقالت منى ليوسف الذي انبهت وهو يراهما

- يوسف .. لا تغضب مما حصل .. ان ابراهيم لم يكن يريد ايذاءك.

وحار يوسف .. لم يجد أي كلمة يقولها .. لهذه الفتاة فاستطردت هي:

- بماذا تفكر.. هلا عدت إلى دراستك، ان الامتحان قد اقترب .. اظنك ستنجح هذه السنة

فاجاب:

- ان شاء الله..

- مبروك مقدما ..

- بارك الله فيك .. والعقبى لك.

- بعدك بسنة واحدة .. فانت تكبرني بسنة ، اما حنان فستنجح بعدي بسنة، رغم انني اكبرها بسنتين انها مجتهدة..

والتفت يوسف إلى حنان التي القت رأسها حياء، كانت في العاشرة من عمرها رغم ان جسمها لا ينبئ عن عمرها بدقة، كانت نحيلة الجسم رغم التورد الذي يعلو وجنتها وشفتها والرقة التي تنبعث من مقلتيها.

في حين كانت منى ممتلئة تفيض حيوية ونشاطا.

قال يوسف ... موجها كلامه إلى منى:

- لكن .. لماذا كذبت على ابراهيم يا منى ؟

- ماذا تقول؟

- اجل لقد اخبرته ان والدك يريده مع ان هذه ليست الحقيقة. لقد كنت خلف تلك الشجرة انت وحنان اليس كذلك؟

- يوسف.

- منى .. انني اشعر بوجودكما منذ امد.. لقد اخذت هذه الشجرة لادرس تحتها ليس لطبيعة بيارتنا ، ولكن لانكما اخترتما تلك الشجرة لتراقبان من خلفها .. كنت اعلم انكما تأتيان لتسمعاني ولذا كنت اقدم احسن ما عندي من مادة والقاء.

وبهتت منى .. لم يدر بخلدهما ان يوسف يعلم بمراقبتهما له ، ونظرت حنان التي كادت تذوب خجلا فقالت بخبث وبساطة

- لقد كنت رائعا وانت تقرأ الحوار الذي يدور بين مصر والاسكندرية، انني احاول دائما ان اقلدك وانا اقرأ هذا الحوار.

هز يوسف رأسه وقد شعر انه ازاء عقل ناضج متفتح وفتاة اذكى منه وشعر بقلبه يرقص وقد ارتسمت على جدرانه صورة ضخمة لمنى...

(2)

دخل ابراهيم غرفة عمه يسأله عما يريد منه فصرخ عمه في وجهه :

- من قال لك انني اريدك .. اذهب.

- لقد اخبرتني منى وحنان انك تريدني.

وهز الشيخ رأسه وكانما شعر ان في الامر سرا .. لم يشأ ان يضع ابنتيه امام ابراهيم موضع الكاذبتين فاخذ يعبث في شعر لحيته ثم قال..

- آه .. لقد تذكرت .. اذهب واحضر لي كوب ماء .. وتعال..

- اهذا كل ما تريد مني؟

نظر اليه الشيخ غاضبا وقال:

- قلت لك احضر الماء، هيا .

وخرج ابراهيم بينما اخذ الشيخ يفكر بماذا يمكنه ان يشغل ابراهيم..

وعاد ابراهيم يحمل كوب الماء الذي تناوله الشيخ، واخذ يرشف منه رشفة بعد اخرى، وابراهيم لا يزال واقفا

قال الشيخ:

- اين والدك؟

- لا ادري.. قد يكون مع العمال الذين يعملون في غرب المزرعة..

- اذهب وقل له انني في حاجة اليه

- حاضر

وخرج ابراهيم وهو لا يصدق ان هذا هو كل ما يريده عمه منه..

واقبلت منى وحنان بعد فترة وهما تسترقان الخطوات امام غرفة والدهما ، وتنبه الشيخ فنادى:

- منى .. حنان ، تعالا الآن.

ودخلتا الغرفة والخوف مرتسم على وجهيهما .. ولكن البسمة التي علت وجه الشيخ حطمت صورة الخوف من على وجهيهما فابتسمتا . وسألهما وهو يعبث بحبات مسبحته :

- اين كنتما..؟

-لقد ذهبنا لنحضر بعض ثمر الجوز.

- وهل احضرتما منه شيئا..

فنظرت حنان الى منى ترجوها ان تخلصها من هذه الورطة وقالت منى.

- انه لا يزال اخضر واظنه سيجف بعد يومين او ثلاثة.

وهز الشيخ رأسه ثم قال:

- هل رأيتن ابراهيم؟

وفكرت منى فيما عساها ان تقول ، لقد قررت ان تواجه الموقف بشجاعة بينما حنان قالت بصوتها الرقيق الدافئ:

- اجل يا ابي .. لقد رأيناه..

وقالت منى تقاطعها:

- الم يحضر اليك؟.. لقد اخبرناه انك تريده..

فقال الشيخ:

- وهل قلت لكما اني اريده حقا..

- لا يا ابي ولكنه كان يهم بضرب يوسف ابن عبد المجيد، فاضطررنا الى الكذب عليه حتى لا يفعل

وفغر الشيخ فاه .. اهذا هو السبب الذي دعا منى الى الكذب؟ ثم قال..

- ولكن لماذا يضرب ابراهيم يوسف .. هل كان يوسف داخل مزرعتنا؟

- لا يا ابي .. ابراهيم كان يحاول عبور السياج ليضرب يوسف وهو في بيارتهم.

- ولكن لماذا يضربه؟..

فهزت منى رأسها قائلة:

- لا ادري يا ابي.. اسأل ابراهيم يقول لك.

وطلب الشيخ من ابنتيه ان تنصرفا، بينما اخذ يفكر في السبب الذي يدفع ابراهيم لضرب يوسف.. ولكنه نسي ..... او انه فتح كتابا كبيرا للتشريع واخذ يقلب صفحاته.

واقبل سالم يتبعه ولده ابراهيم، فابتسم الشيخ في وجه اخيه، وقال.

- انت تعرف بيت الشيخ مبروك؟

- اجل.

- خذ هذه الورقة، وسلمها له، وعد بسرعة واياك ان تتأخر.. واحضر الكتاب الذي سيعطيه لك.. انني في حاجة اليه.

وخرج سالم وهو يحمل الورقة في يده، دون ان يعلم... هم ابراهيم بالخروج مع ابيه فناداه الشيخ:

- ابراهيم .. انتظر.

والتفت ابراهيم الى عمه الذي بدا في وجهه التعب فقال:

ماذا تريد يا عمي؟

- لماذا كنت تريد ضرب يوسف؟

بهت ابراهيم.. لم يكن يتوقع ان تخبر منى والدها.

- انا .. لا .. لا والله.

فصرخ به الشيخ:

- وتقسم بالله كذبا ايها الشقي.

- اغفر لي يا عمي..

- استمع الي .. اذا حاولت او فكرت ان تسيء الى يوسف فلن اسمح لك أن تطأ بيتي، اذهب الى الكلاب وعش معها، الم تجد غير يوسف الصبي المجتهد امل والده لتسيء اليه. هل فكرت ان تسيء الى سامي اخيه ام انك تخافه لانه كلب مثلك.. انصرف ولا تدعني ارى وجهك القذر.

ولم يصدق ابراهيم انه نجا.. وحمد الله ان الامر انتهى الى هذا الحد.. واخذ يوبخ نفسه لماذا حاول الاعتداء على يوسف مع ان الاخير لم يفعل له شيئا ولم يحاول ان يضره يوما.. واخذ يفكر لماذا اخبرت منى والدها؟ انه لابد سيعاقبها ولكنه خاف ان تخبر والدها ايضا ووجد ان الخلود الى السكينة هو خير وسيلة تمنحه العيش في هذا البيت بسلام..

(3)

ظلت صورة منى مرتسمة في خيال يوسف انى ذهب. وكانت تخالطها في بعض الاحيان اطياف الرقة والهدوء المنبعثة من صورة حنان اختها.. لم يكن يوسف ليدرك اهو يحب منى..؟ واذا كان ذلك فلماذا يرى حنان ، يزداد وجيب قلبه.. اهو يعشق الاختين معا؟.. انه لا يستطيع ان يستغني عن صورة منى فهي دائما في خياله.. وحنان التي تزوره بين الحين والحين تبعث في نفسه شعورا دافقا بالسعادة. الصورتان كل منهما تكمل الاخرى. كان يخشى منى.. يخشى ذكاءها وفطنتها. فهو كرجل لا يحب ان يكون يوما مغلوبا على امره، اما حنان فهي في نظره اللعبة التي يستطيع ان يضعها اينما يشاء ويحولها ويشكلها وفق مزاجه.

وعاد يوسف الى شجرته المحبوبة كيما يذاكر تحتها، ولكنه لم يجد الدافع الذي يجعله يفتح أي كتاب ليفهم منه شيئا.. اين منى ، اين حنان.. مرت عليه ايام امضاها ينظر شزرا الى كتبه وهو في انتظار قدومهما ، منذ ان كان ما بينه وبين ابراهيم وهو لا يسمع همسهما المنبعث من وراء الشجرة ، ودبيب اقدامهما وهما مقبلتان او مدبرتات.. وخشيت نفسه انه فقدها . وظن ان ابراهيم لابد ان يكون هو الذي يمنعهما من الحضور او انه اخبر والدهما.

وتذكر يوسف ان الامتحانات على الابواب واخذ يعزي نفسه بانهما ما تركناه الا لكي تستطيعا الدراسة وتحققا النجاح.. وهو يريد لهما ان ينجحا وهن كذلك تريدان له النجاح.. فلماذا لا يثابر على دراسته حتى ينجح هذا العام ويستطيع بعدها ان يراهما ويستمع الى حديثهما العذب.

ولكن، ايستطيع ان يدرس تحت هذه الشجرة ؟ انه ما ان يلقي بجسمه تحتها حتى يخيل اليه انه انتقل إلى عالم آخر من الاحلام والحب اللطيف رقة وعذوبة ، وهو لا يريد ان يدفع مستقبله ثمنا لسعادته. وقرر يوسف ان لا يعود الى المذاكرة في البيارة فليثابر عليها في البيت حتى تنتهي الامتحانات.

طرق سامي غرفة يوسف ودخل فوجد شقيقه الاصغر منكبا على دراسته فبادر يسأله:

- يوسف.. انك تدرس في البيت على غير عادتك منذ اسبوع لماذا؟.. لماذا امتنعت عن الذهاب الى البيارة ؟

وامتعض يوسف من السؤال. واخذ يفكر فيما عساه ان يقول له ثم قال:

- ان الامتحانات اصبحت قريبة وانا ارتاح الى الدراسة هنا.

- ولكنك كنت منذ سنة تقضي هذه الاوقات هناك تحت الشجرة، اسمع يا يوسف.. اذا كان ابراهيم هو السبب فاعلم انك يجب ان تعود الى ما كنت عليه.. ودع ابراهيم لي فسأعرف كيف اؤدبه.

وبدت الدهشة على وجه يوسف!! من اخبر اخاه ان ابراهيم حاول منعه وضربه، ولكنه آثر ان لا يعترف لاخيه بما حصل فقال:

- ابراهيم.. وما دخل ابراهيم في دراستي؟

- سمعت انه حاول ضربك اذا انت عدت الى الدراسة هناك.

- سمعت .. ممن؟

- لا يهمك هذا ولكن هل صحيح ما قلته لك؟

وصمت يوسف كانما يريد ان يثبت لاخيه ان شيئا من هذا لم يحصل .. ثم قال:

- انك تضحكني يا سامي... ولكن هل تظن ان ابراهيم يستطيع ان يضربني او حتى يفكر ان يضربني وهو يعلم انك اخي.

واعجب سامي بمنطق اخيه وزاده زهوا وغرورا فقال:

- يوسف.. انك اخي .. واكثر من ذلك .. انك الامل الذي يعيش عليه ابي .. لقد ضاعت فرصتي انا ولم يبق امامنا غيرك .. ان ابي على استعداد لان يضحي بكل شيء في سبيل مستقبلك الذي هو مستقبلنا ..لا تظن ان نجاحك يهمك وحدك. كلنا سنفرح لك... والآن اخبرني هل صحيح ان حاول ان يضربك ابراهيم..؟

وايقن يوسف ان سامي يعلم علم اليقين ان ابراهيم حاول ضربه فقال:

-سألتني السؤال واجبتك عليه ، في حين سألتك انا ولم تجبني .. من الذي اخبرك انه حاول ضربي؟

- ابنة عمه .. منى.

- منى..!

- اجل .. هل كذبت علي؟..

- ولكن لماذا تقول لك ذلك؟

- لا ادري

- واين رأيتها؟..

- كنت ذاهبا لاراك فلم اجدك.. جلست تحت شجرتك فاذا بها تقبل علي ..

وقاطعه يوسف

- هل كانت وحيدة؟

- اجل وحيدة.. لقد حسبتني اياك اول الامر ثم سألتني عنك .. فاخبرتها انك تدرس معظم الاحيان في البيت .. فسألتني اذا ما كنت اعرف السبب الذي يمنعك من الدراسة هنا فلما اجبتها بالنفي قالت لابد انه يخاف من ابراهيم.

وصاح يوسف:

- هل قالت لك ذلك؟..

- اجل .. ولما استفسرت عما قصدته بذكر ابراهيم اخبرتني انه حاول ضربك منذ مدة، وانك لم تعد بعدها الى الدراسة في البيارة.

وهز يوسف رأسه وعاد يقول:

- هل قلت ان منى كانت وحيدة، ولم يكن معها احد؟

فقال سامي:

- اتقصد حنان اختها.. انها لم تكن معها .. اظنك تحبها ايها التلميذ الصغير.

- انا .. احب من؟

- حنان .. اليس كذلك .. ان هذا يسرني انت حنان وانا منى.

وظهر الغضب على وجه يوسف.. وسأل مستغربا :

- هل تحب منى؟ .. غير معقول.

وقال سامي برزانة ودهشة:

- ماذا .. يوسف .. هل تريد ان تقول انك انت تحبها..

- انا لا احب احدا ..

- ماذا تعني ؟..

- لا شيء..

وخرج سامي وهو لا يصدق ان اخاه هو منافسه الخطير في حب منى.. كان لا يحسب لابراهيم حسابا رغم انه ابن عمها . فسامي اكثر من ابراهيم وسامة وجمالا ومالا، واخذ يفكر فيما عساه ان يفعل. انه في السادسة عشرة من عمره، هل يذهب ليخبر اباه انه يريد منى زوجة له؟... ولكنها صغيرة لن يرضى اهلها ان يزوجوها له.. ولكن هل تحبه هي ؟... منى هل تحبه انه يعلم علم اليقين انها لا تحب ابن عمها .. بل تتضايق منه في معظم الاحيان .. اما يوسف اخاه فهو لا يدري اذا كانت تحبه ام لا .. ولكن لماذا سألت عنه اذا كانت لا تحبه؟.. ولماذا ارادت ان توقع بين ابراهيم وبينه ؟ اليس كل ذلك في سبيل يوسف. انها ولاشك تحبه.. واخذ يفكر فيما عساه ان يفعل حتى يستطيع ان يوقع منى في حبائله...

(4)

لم تكن قد افتتحت مدرسة للبنات في سلمة بعد.. كما ان اهالي القرية كانوا من السذاجة بحيث يرون ان تعلم بناتهن لا يتفق وحميتهم الشرقية ونزعتهم الدينية . وحتى أولادهم لم يكن باستطاعتهم ان ينالوا من التعليم غير قسط ضئيل، واوفرهم حظا من يستمر لينهي مدرسة القرية ويختم القرآن ، الكثيرون كان آباؤهم في حاجة اليهم ليعملوا الى جانبهم في البيارات ... وكان اهالي القرية ينظرون الى الشيخ شلبي نظرتهم الى رجل ليس من طبقتهم فهو غني.. ومتعلم في الازهر الشريف . وقد علم ابنه حتى اصبح طبيبا وهاهو يعلم بناته .. والشيخ شلبي ليس اصلا من القرية ولكنه آثر ان يعيش مع عائلته في قصرهم الجميل الذي يقبع في مزرعتهم الواسعة منذ ان استقال من وظيفته كقاضٍ شرعي ليعكف على تأليف سلسلة كتب في التشريع.

لم يكن يمر يوم دون ان يتجه الشيخ شلبي الى القرية ليقضي بعض الوقت في تبادل اطراف الحديث مع رجالها المسنين ، الذين كانوا ينظرون اليه نظرة الاستاذ المبجل.. ولم يكن الشيخ يتعالى بعلمه او بغناه على احد .. فهو جد متواضع لا ينطق الكلمة الا بعد وزنها . ولا يتكلم الا على علم بحقيقة . وعندما كان يعود الى مزرعته كان يصاحبه عبد المجيد حسن، حيث كانت مزرعة الاخير تتاخم مزرعة الشيخ . ونشأت بين الشيخ وعبد المجيد صداقة متينة خلال الاحاديث التي كانا يتبادلانها . وكثيرا ما يصر عبد المجيد على الشيخ شلبي ان يشرفه بزيارة عندما يكونا على مقربة من البيت . وكثيرا ما كان الشيخ يلبي دعوته .. تبودلت الزيارات واصبح عبد المجيد هو الصديق الحميم للشيخ..

كان ليوسف منزلة كبيرة عند الشيخ شلبي ، حيث كان يتوسم فيه ذكاءً خارقا وفهما واعيا على النقيض من اخيه سامي الذي اندفع وراء لعبه ومجونه ضاربا عرض الحائط بمستقبله . وكثيرا ما كان الشيخ ينصح صديقه بان يعتني بابنه اشد العناية . واستطاع يوسف ان يكون اول دفعته في مدرسة القرية ، كما اعتاد ان يكون منذ ان دخل المدرسة ، وبهذا اصبحت الطريق الى مدرسة العامرية في يافا مفتوحة امامه...

وعرض عبد المجيد على صديقه الشيخ موضوع الحاق ابنه في احدى المدارس الثانوية ، وكان عبد المجيد يرى ان يضع ابنه في مدرسة النجاح في نابلس لانه يوجد فيها قسم داخلي ، حيث لا يستطيع هذا الصغير ان يسافر كل يوم الى يافا . فان المواصلات كانت صعبة ونادرة .. واوقات المدرسة تحتم عليه الانضباط ..

وفكر الشيخ لحظة ثم قال:

- انني ارى ما لا ترى .. من الخير له ان يسافر الى يافا كل يوم وساتدبر لك موضوع مواصلاته بنفسي . ليذهب مع حسين في سيارته كل يوم .. ويعود معه ايضا..

وقال عبد المجيد:

- ولكني لا اريد ان اتعب احدا .

- عيب يا عبد المجيد .. نحن جيران واخوة..

- لست ادري كيف اشكرك.. ولكن هل تتفق مواعيد سفر حسين مع مواعيد المدارس؟..

- اجل.. ان منى وحنان تذهبان معه كل يوم ، والا كيف تتعلم بناتي. لقد اشتريت السيارة خصيصا لهذا الغرض. كنت اوصلهما بنفسي اول الامر. ولما عاد حسين اخذ يريحني من هذه المهمة..

شكر عبد المجيد صديقه ، واتجه ليخبر ابنه ان عليه ان يتجه كل يوم الي بيت الشيخ حيث سيسافر مع ابنه الدكتور حسين..

لم يعر عبد المجيد موضوع سفر منى وحنان مع ابنه كل يوم أي اهتمام. فابنه صغير والفتاتان صغيرتان وسيكون الدكتور حسين معهما... وتذكر الجملة التي قالها الشيخ.. انه ما اشترى السيارة الا في سبيل ان يعلم ابنتيه.. في سبيل ابنتيه اشترى سيارة ولماذا لا يفعل هو ذلك في سبيل تعليم ابنه ؟ لماذا لا يشتري سيارة يقودها بنفسه كل يوم ليلتحق ابنه في المدرسة ثم يعود به في المساء؟.. ولكن مشاغله في بياراته كثيرة. وخطر على باله ابنه الاكبر سامي انه يقترب من التاسعة عشرة يفيض شبابا ..... لماذا لا يعمل هذا الشاب بدل قضاء وقته في المقهى مع الورق واصدقاء السوء.. وفكر هل يستطيع ان يستفيد من ابنه سامي. وخطر له ان مشروعا تجاريا يفتحه في يافا ليديره ابنه الاكبر قد يستفيد منه كثيرا فالى جانب الربح سوف يصون ابنه من الانحدار في مهاوي الطيش... واتجه من فوره الى بيته وقد عقد العزم ان يحقق ما ارتآه.

كاد يوسف يطير من الفرح وهو يعلم انه سيسافر مع منى وحنان في نفس السيارة الى يافا.. واتجه الى منزل الشيخ حيث وجد السيارة والدكتور ومنى وحنان. سلم عليهم خجلا وارتشف فنجان الشاي الذي قدم له على عجل. جلس الى جوار الدكتور بينما جلست منى وحنان في المقعد الخلفي. كان لا يستطيع الالتفات ليراها. ونظر في المرآة ولكنه رأى وجه الدكتور وليس وجه منى او حنان. وضاق صدره يريد ان ينظر الى وجهيهما. وخيل اليه انه اذا استمر على السفر بهذه الطريقة ، عيناه لا تستشفان الانوار المنبعثة من مصادر احلامه ، فانه سيضيق ذرعا بالدراسة والسفر.. وحاول ان يلتفت ولكنه وجد ان عنقه لا تطاوعه..

واستطاع ان يرى وجهيهما وهما تنزلان من السيارة وتودعانه كل رافعة يسراها ضامة الى صدرها حقيبة كتبها ، راسمة ابتسامة عريضة على ثغرها. واتجه به الدكتور الى المدرسة العامرية التي تقرر ان يبدأ الدراسة فيها، ونزل معه الدكتور وقابل مدير المدرسة حيث اوصى بيوسف خيرا ثم انصرف.

مر شهر وهو يسافر كل يوم ولا يرى وجه محبوبتيه الا عندما تركبان السيارة او تنزلان منها. وكان سامي بادي الغضب للطريقة التي اتبعها يوسف لسفره.. انه سيمكن علاقته بمنى. واخذ يفكر جديا في الموضوع الذي عرضه عليه والده.. ووجد نفسه فجأة يتجه الى ابيه قائلا..

- ابي هل وفقت في ايجاد مكان مناسب في يافا؟..

- ونظر اليه والده وقال:

- لقد وفقت ولكني لم اوفق بعد في ايجاد الابن المناسب لادارة المحل الذي انوي افتتاحه.. لقد اوشكت ان تصبح رجلا كبيرا ولم نستفد منك في يوم من الايام.

فقال سامي وهو يهرب من حدة والده:

- ابي.. انني ارى ان ابدأ معك منذ الغد.. لقد سئمت البطالة والراحة. اود ان اعمل شيئا.. أي شيء يفيد.

- الحمد لله.. واذا اثبت حسن نيتك فسأقدم لك اعظم هدية تتمناها..

- حقا يا ابي .. ما هي ؟..

وفتح سامي فاه وهو يستمع الى والده يقول:

- عروسة جميلة .. الا يعجبك ان تتزوج؟

- اتزوج ممن؟..

وفهم والده ان ابنه تراوده احلام الزواج فقال له:

- ما رأيك في سلوى ابنة عمك؟ ..

كانت سلوى جميلة ورقيقة ولكنها لم تكن تمثل في حياة سامي اكثر من اخت . اما منى فهي شيء آخر . قال سامي:

- ولكن لا اريد ان اتزوج .. اني لا ازال صغيرا ،لقد كنت اطمع في هدية اخرى.

- وما هي؟..

واخذ سامي يفكر في الطريقة التي يعرض فيها طلبه ، ثم قال:

- اترضيك الطريقة التي يسافر بها يوسف كل يوم ؟.. نتطفل على غيرنا وفي امكاننا شراء بدل السيارة سيارتين .

وفهم الوالد قصد سامي فهز رأسه وقال:

- اتريدني ان اشتري سيارة؟..

- ولم لا ..!

- لانك لا تعرف كيف تقودها ..

- اتعلم ..

- عندما تتعلم ادارة المحل الجديد فساشتري لك سيارة.. ايرضيك هذا ، ولكن لا تنسى ان السيارة ليست لك وحدك .. بل يوسف هو السبب الذي يدفعني الى شرائها .. وليس انت.

وانتفض سامي من جملة والده الاخيرة ولكنه بلعها قائلا :

- وهل في ذلك ما يضير .. ان يوسف اخي وكل ما املكه اضعه تحت اقدام مستقبله..

وترك الاب ولده وهو يفكر في انسب بقعة يفتح بها مشروعه التجاري لبيع الاقمشة والخرداوات.

(5)

اخذت منى تنظر الى وجه اخيها في المرآة ، بينما كانت السيارة تقترب من المدرسة.. ونقلت بصرها فلم تر يوسف. كانت تترك حنان تجلس دائما خلف يوسف بينما تجلس هي خلف اخيها حتى يتسنى لها ان ترى جزءا من وجه يوسف ، اما اليوم فانها لا ترى وجهه ولا حتى قفاه.. واحست بضيق شديد وتمنت لو ان والد يوسف لم يشتر سيارة حتى يبقى يوسف الى جوارها تراه كل يوم..

وتذكرت سامي لابد ان يكون هو السبب الذي يباعد بينها وبين يوسف.. انه هو الذي اشترى السيارة ، وهو الذي يقودها واخذت تصر على اسنانها مغتاظة.

وقفت السيارة ونزلت الاختان بينما انصرف الدكتور الى عمله. وقالت حنان لمنى:

- يا للخسارة.. لن يركب يوسف معنا بعد اليوم.

صاحت منى في وجه اختها:

- وماذا يهمك من امره.. ليذهب الى الجحيم..

وبهتت حنان..

- ماذا .. ماذا تقولين.. انك تكرهينه.

- اجل اكرهه واكرهك ايضا .. هيا بنا .

واخذت حنان تعيد الكلمات القاسية التي صبتها اختها في اذنيها .. هل حقا تكره يوسف؟ .. وماذا يهمها ما دامت هي تميل اليه وتحبه.. ولكنها لا تدري لماذا تغرق في بحر الخجل عندما تلتقي عيناها بعينيه ، او تستمع الى صوته يناديها باسمها .. كانت على صغرها مرهفة الحس رقيقة الشعور، تنقلها الاحلام من اعمق المهاوي الى اسمى المرتفعات.

وتفيق من ذهولها على صوت المعلمة وهي تقول لها :

- حنان.. اكملي..

وترتبك حنان وتضطرب نظراتها بين وجه المعلمة وصفحة الكتاب.

وتستطرد المعلمة :

- ما بالك يا حنان.. انت لست كعادتك..

- لا بأس يا معلمتي.. ارجو المعذرة.. انني متعبة هذا اليوم.

فقالت لها المعلمة..

- اخرجي واغسلي وجهك واستريحي قليلا في الحديقة.

وخرجت حنان فوجدت اختها منى في الحديقة ،فنظرت منى الى اختها تسألها..

- ماذا جرى لك .. لماذا خرجت؟..

- لقد اخرجتني المعلمة ..

- لماذا ..

- لقد كنت شاردة الذهن..

- كنت تفكرين في يوسف اليس كذلك؟..

وملأ الخجل وجه حنان ولكنها تشجعت وسألت اختها ..

- وانت لماذا خرجت...

وهزت منى رأسها وقالت .....

لنفس السبب ..

اخذت منى تنظر الى اختها نظرتها الى غريم. ولم تكن حنان تبادلها الشعور. فقد كانت اصغر من ان تحقد ، وارق من ان تكره ، واعذب من ان تعكر حياة احد.. وكانت صفاتها هذه تبعث في نفس اختها الغيظ ساعة والندم ساعة اخرى..

اما الشقيقان يوسف وسامي فقد استقر رأيهما على امر ان يوسف لا يدري أي الفتاتين يحب ، ولكن اخاه سامي يحب منى ، ولذا فقد تراءى امام يوسف ان اخاه الذي حرم من التعليم لا يجوز ان يحرم ممن يحب. وهو يرى ان ميله لحنان بدأ يزداد شيئا فشيئا فهي الصغرى التي تناسب رقتها رقته وهدوءها هدوءه. واخذ يرسم لها في مهجته صورا شتى، بينما كان اخوه سامي يقنع والده في ان يخطب منى له..

نجح المشروع الذي قام به سامي نجاحا باهرا حتى انتزع اعجاب والده الى جانب اعجاب جميع اهالي القرية بمن فيهم الشيخ .. وفرح عبد المجيد للقيمة التي كسبها . فابنه الذي كاد ان يفقده بين امواج الطيش ، هاهو يقوم بعمله خير قيام فيدر ربحا موازيا ما تدره احدى بياراته الثلاث.. واقتنع الاب بوجوب تزويج ولده .. ولكنه لم يقتنع بالعروس التي اقترحها سامي. فهو يرى ان منى لا تناسب ولده فهي اولا صغيرة. وفوق هذا فان حظها من التعليم يفوق حظ ابنه ومن الصعب ان ينجح زواج تفوق ثقافة الزوجة فيه ثقافة الزوج..

وعرض الوالد على ابنه اسماء كثيرة من بنات القرية ومن بنات يافا، ولكنه اصر ان تكون منى هي العروس او لا احد..

وحار الاب .. هل يتقدم لخطبة منى لابنه، ولكنه وجد ان الامر سخيف.. والفتاة لم تبلغ الرابعة عشر بعد .. واقنع ابنه ان ينتظر حتى تكبر الفتاة ..

(6)

اغلق سامي متجره صباح ذلك اليوم ليشترك في المظاهرات الضخمة التي عمت المدينة احتجاجا على البريطانيين ومحاولتهم تهويد الارض المقدسة . وكان سامي يتقدم المظاهرات ويتصدرها محمولا على الاكتاف هاتفا .. تحيا فلسطين .. فلسطين عربية . ولكن قوة الظلم لم تدع الشعب الاعزل يعبر عن شعوره . قابلوا الاندفاع الشعبي بالنار والحديد ، فانطلق الرصاص والذي عم ازيزه البلد باسرها .. سقط الشهداء يخضبون الارض بدمائهم الزكية واصيب سامي برصاصة في ساقه نقل على اثرها الى المستشفى .

كان الخبر صاعقا على يوسف الذي اسرع للاطمئنان على اخيه وقابله الدكتور حسين وهو في طريقه الى يافا .

فطمأنه الدكتور بان الجرح ليس خطيرا ولكنه لن يستطيع قيادة السيارة الا بعد ان تشفى ساقه.

واتجه يوسف الى المستشفى فوجد والده الى جانب اخيه الجريح.. القى يوسف بنفسه في احضان اخيه ودموعه من عينيه تنسكب وهتف:

- اخي .. سامي .. الحمد لله على سلامتك واحتضن سامي اخاه بعنف وهو يصيح:

- اهلا يوسف .. سلمك الله ..

- كيف صحتك ؟ ..

- الحمد لله .. على ما يرام ..

- لماذا القيت بنفسك الى التهلكة يا اخي ؟ ..

ونظر سامي الى اخيه وقال:

- يوسف .. هل انا خير من الكثيرين الذين ذهبوا في سبيل الوطن؟ ..

وخجل يوسف من نفسه ولكنه استطرد:

- نحن في حاجة اليك يا سامي..

وهتف سامي ..

- ولكن حاجة الوطن الينا تفوق حاجة بعضنا الى بعض .

وفرح الاب وهو يستمع الى ابنه سامي والشباب يتدفق من عينيه ايمانا بقضية الوطن. والقى الوالد بنفسه بحضن ولديه وقد اغرورقت عيناه بالدموع .. واخذ يدمدم.

- ولدي .. سامي .. الحمد لله على سلامتك يا سامي . وارجو الله ان يشجع ابناء هذا الوطن ويغرس في نفوسهم الايمان والعزيمة حتى نرى تلك البقاع المقدسة تعود الى ما كانت عليه ايام كان العرب في اوج عظمتهم..

وتوجه سامي الى اخيه يوسف قائلا :

- انك ستحضر كل يوم بنفسك .. فانا لا استطيع قيادة السيارة قبل ان تشفى ساقي .

انك تحسن القيادة..

ونظر الاب الى ابنه يوسف كانما يستشيره فيما عرضه عليه سامي ..

قال يوسف..

- انني استطيع ان اقود السيارة ولكنه ليس من حقي من الناحية القانونية ان اقودها.. فانا لا احمل رخصة للقيادة . كما وانني لم اكن اقود الا في الطريق السهل بين يافا وسلمة..

وسأله سامي :

- وماذا تنوي ان تفعل ؟ ..كيف ستحضر كل يوم ؟..

فاجابه اخاه وهو ينظر الى والده.

- اظن انني سأضطر للحضور مع الدكتور حسين حتى يعيد الله اليك الصحة.

وابتسم سامي وهو يحملق في وجه اخيه مستشفا ما تخفيه عيناه من شوق الى صغيرته حنان..

قال سامي:

- هذه هي انسب الطرق.. ولن تمر غير فترة وجيزة حتى تعود الحالة لما كانت عليها .

ودخل الدكتور حسين في تلك اللحظة وسأل سامي عن صحته ثم اتجه الى يوسف وقال:

- يوسف .. من الانسب ان تذهب إلى مدرستك الآن ان صحة اخيك على ما يرام..

فرد عليه يوسف :

- وهل فتحت مدارس هذا اليوم ؟ .. الجميع مضربون..

بدأت منى تشعر بالفتور الذي يبديه يوسف نحوها بينما كانت نظراته تريد ان تلتهم حنان وكانت حنان . لا تزال تذوب خجلا من نظراته ، فاذا ما خلت الى نفسها اخذت تؤنب نفسها على هذه العلة التي اصابتها .. لماذا لا تكون صريحة وتثق بنفسها كما هي اختها.. وعزمت ان تضع عن نفسها رداء الخجل .

واقبل يوسف صباح اليوم التالي وكان قد ازداد طولا ووسامة وتورد وجهه واتسع صدره واقبلت حنان تجري اليه وهي تهتف:

- يوسف .. اهلا وسهلا .. لماذا تأخرت ؟..

ونظر يوسف اليها وقال:

- انا لم اتأخر .. الساعة لم تتجاوز السابعة بعد والتفتت حنان الى منى التي كانت تراقبهما بنظرات تقذف بالشرر ولم تعرها حنان أي انتباه :

وسألت يوسف:

- كيف حال سامي ؟.. اهو بخير؟ ..

- الحمد لله انه بخير ..

توجه يوسف الى منى وقال:

- صباح الخير يا منى ..

فهزت راسها وهي تتمتم :

- صباح الخير.

- ما بالك .... يا منى .. انت لست كعادتك ونظرت اليه قائلة:

- لا شيء اني كعادتي..

- لقد سألتني حنان عن سامي ولكنك لم تسأليني..

- لقد سألتك هي واجبتها وعرفت انه بخير فلا داعي لسؤالي..

واقبل الدكتور واتجه الى السيارة وهو يشير اليهم قائلا :

- هيا بنا

(7)

بينما كان يوسف يتمرن على قيادة السيارة في اصيل احد الايام ، استوقفته منى وصعدت الى جانبه ، وطلبت منه ان يأخذها الى يافا.. فاخبرها انه لا يستطيع دخول المدينة ، حيث انه لا يحمل رخصة قيادة. فقالت له:

- اذا كنت لا تريد ان اركب معك فقل

فاجابها:

- كيف تسمحين لنفسك ان تقولي مثل هذا الكلام يا منى؟..

- اذن هيا بنا الى يافا.

- قلت لا استطيع.

- امضي بسيارتك الى أي مكان تريد.

- وماذا يقول الناس لو رأونا معا .. ارجوك يا منى .. اعقلي.

- هل تكرهني الى هذا الحد يا يوسف؟ .. لو كانت المسخوطة حنان هي التي طلبت منك لما تورعت عن حملها الى القمر اليس كذلك؟..

نظر اليها يوسف وقد آلمه ان تصف اختها بهذا الوصف .. وقال:

- منى .. لماذا قلت هذا الكلام عن شقيقتك؟.. فاجابته ساخرة:

- هل يهمك ما اقوله عنها .. انها شقيقتي .. اسمع يا يوسف .. اما ان تطلب مني ان انزل او تسير .. ان الوقوف يعبث بدماغي..

وخطر له ان يحرجها فقال:

- كنت تودين الذهاب الى يافا .. اليس كذلك؟..

- اني اود الذهاب الى أي مكان .. هيا بنا.

- الى يافا.

- الى يافا..

- اني ذاهب لزيارة اخي في المستشفى هل تأتين معي؟ ..

ونظرت اليه نظرة تود ان تحرقه وقالت:

- ولكنك لا تحمل رخصة للقيادة .. كيف ستدخل المدينة؟..

- هذا لا يهم ان انت وافقت على زيارة سامي.

- اتريدني ان ازور سامي .. انك انت الذي ستزوره . اما انا فان ذهبت فلن انزل من السيارة.

- الا تودين زيارة سامي؟..

- وما الذي يدفعني الى زيارته..

وهز يوسف رأسه وفكر لحظة ثم قال:

- ولكنه .. ولكنه .. لا ... الاحسن ان لا اتكلم.

- ولكنه ماذا .. تكلم...

- لا شيء .. لن اذهب الى يافا..

وبان الغضب على وجه منى . ففتحت باب السيارة ونزلت منها وجمعت غيظها في دفعة واحدة اقفلت بها باب السيارة ، فارتفع صوته يسخر من السكون.

عز على يوسف ان تغضب منى فنزل من السيارة ولحق بها بينما اخذت طريقها الى البيت بين الاشجار . امسك يوسف بها ولما حاولت ان تتخلص منه وقع الاثنان معا في حفرة احدى الاشجار .. ونظرت اليه وقد تجمعت سنواتها الستة عشر في نظرتها واخذت يدها طريقها ليده تود عناقها فانتفض يوسف من الفزع وقال لها:

-منى .. ارجوك لا تغضبي مني.

واستجمعت نظراتها مرة ثانية وهمست في حنان:

- انا اغضب منك مستحيل.

- ولكن لماذا تركت السيارة بهذه الصورة اتثورين لمجرد ذكر سامي مع ان ذكرك هو الدواء الذي يشفيه..

واستجمعت نظراتها مرة ثالثة ولكن نظراتها في هذه المرة لم تكن تحمل الحنان والرقة .... بل كانت بالشرر تنضح وقالت له..

- ما ذنبي اذا كان هو يحبني .. اني لا احبه.

- منى .. انك الامل الذي يعيش سامي من اجله. لقد كان شيئا تافها فاصبح رجل اعمال كبيراً ، والفضل كله يعود اليك الى حبه لك الذي ملك عليه نفسه ورسم طريقه لمستقبله.

وساءها ان تسمع هذا الكلام من يوسف .. من الانسان الذي تحبه . ووجدت نفسها تبكي .. فاخرج يوسف منديله واخذ يمسح دموعها بينما اخذت تقول:

- وانت .. انت يا يوسف الا تحبني؟..

- انني احبك يا منى .. ان الذي يكرهك لم يخلق بعد . انت مثال للفتاة العاقلة الرزينة.. ارجوك فكري في امر سامي.

وصاحت به ملقية بمنديله على الارض

- الا تكف عن ذكر سامي .. الا تقول لي شيئا اخر .. لقد سئمت.

ونظر اليها معاتبا ، ثم التقط منديله من على الارض واخذ يحدق فيه . ثم اعاده الى جيبه. واحست منى

بالاهانة التي وجهتها اليه فبادرت تقول:

- يوسف .. اغفر لي .. لم اكن اقصد اهانة.

فقال لها يوسف:

- لا بأس يا منى .. ارجوك ان تهدأي ..

يجب ان اذهب الآن حتى لا يرانا احد..

وتركها يوسف واتجه الى سيارته وقد عقد العزم ان يذهب في الصباح بنفسه الى يافا.

(8)

اتصل الدكتور حسين بسامي في متجره وطلب منه ان يتجه الى مدرسة البنات ليعيد منى وحنان معه الى البيت حيث انه مشغول في احدى العمليات.

فرح سامي لهذه المهمة التي كلفه بها الدكتور. انه سيرى منى ويكلمها.. لقد مضت سنوات دون ان يستمع الى حديثها، كان طفلا عندما كانا يلعبان معا وكبر وكبر معه الحب. واصبحت منى في خياله وترك المدرسة ليصادق ابراهيم ابن عمها حتى يتسنى له ان يراها دائما وهو يلعب مع ابن عمها في مزرعتهم. واما هي فقد كانت تنظر اليه نظرتها الى ابراهيم كلاهما غبي لا يستحق الالتفات اليه.

كان ابراهيم في نظرها يمثل سامي. وكان ذكر سامي على لسان يوسف يذكرها بايراهيم، الذي كانت تسمع من زوجة عمها انه سيكون بعلا لها. وبدا لها ان الدنيا تضيق بها وتضعها بين نارين لا مفر منهما ابراهيم او سامي وكلاهما لا تحب..

عندما خرجت منى وحنان من باب المدرسة التفتتا فلم تجدا سيارة اخيهما في انتظارهما كالعادة ، بل فوجئتا بسامي يترجل من سيارته ويتقدم نحوهما بخطوات ثابتة وابتسامة تعلو وجنتيه..

قال سامي:

- مساء الخير.. ان الدكتور مشغول اليوم وقد طلب مني ان اعيدكما الى البيت.. هلا تفضلتما بالركوب.

واخذت منى تحدق في هذا الشاب الجميل الذي يقف امامها. كان سامي قد اكتمل شبابه واسود شاربه واخذت الابتسامة طريقها الى غمازتيه التين فتحتا في وجنتيه دربين للسحر والفتنة، وتقدمت منى بثبات ناحية السيارة وفتحت الباب الخلفي والقت بنفسها في المقعد وجلست الى جوارها اختها حنان..

اتجه سامي الى مدرسة اخيه ليعيده معه الى البيت.. فوجئ يوسف بوجود منى وحنان في السيارة فاخذ ينظر الى وجه اخيه الذي لاحظ فيه وسامة وجمالا لم يشاهدهما من قبل. واخذ يبتسم ، وجلس يوسف الى جوار سامي بينما انطلق الاخير يقود سيارته ببطء كمن لا يريد ان يهرب من حلم جميل..

والتقت عينا منى وسامي خلال المرآة واستطاعت ان تستشف الشوق الكامن في نظراته. ولم يشأ يوسف ان يضيع هذه الفرصة النادرة على اخيه فبدأ يفكر في الطريقة التي يستل فيها اعجاب منى بسامي.

انه يعلم ان اخاه اذا ما ترك له مجال الكلام في الامور المتعلقة بالوطن فانه ينزع اعجاب اوعى الناس.. لقد ترك منذ اصابته امور البيع في المتجر الى المستخدمين بينما انكب على دراسة الكتب المتعلقة بقضية الوطن.

قال يوسف موجها حديثه الى سامي:

- لقد ذكرني استاذ التاريخ الجديد بك وانت تشرح وعد بلفور وما سيجره على العرب من ضرر:

ونظر سامي الى اخيه وقال:

- ولكنكم لا تدرسون تاريخ العرب المعاصر.. هل كان الاستاذ يتكلم عن وعد بلفور؟..

- اجل.. لقد القى بالكتاب المقرر وقال.. ان من واجبه ان يعلمنا تاريخ امتنا ويبين لنا ما نمر به من وضع خطير ...

- احقا تقول!؟. ان الحكومة لابد وان تفصله من عمله.. هذا اذا لم يسجنوه..

- انه يعلم ذلك ، ولكنه لا يهتم..

ثم سكت يوسف واستطرد كانما وجد شيئا جديدا.

ولكن هل حقا كان بالامكان جعل ثورة البراق ثورة شعبية كاملة تطيح بالمستعمر.

نظر سامي الى اخيه وسأل:

- هل هذا هو رأي استاذك ؟..

- اجل.. انه قال ان اهل فلسطين لو اجتمع امرهم في تلك السنة لتخلصوا من الصهاينة الى الابد .

هز سامي راسه وهو يقول:

- انه مخطئ..

ونظرت منى الى وجه سامي خلال المرآة فشاهدته وقد علاه الحزم وانطلقت من عينيه اشعة العزيمة واستطرد سامي:

- اتدري لماذا ؟ ...

فقال يوسف:

- اتقصد لماذا لا يمكن ان تنجح الثورة ؟..

- اجل.. قام بالثورة شباب يدفعهم الايمان بالقضية.. شباب عزل قاتلوا دون ان يعرف الوجل الى قلوبهم سبيلا، ولكن ... هل من الممكن ان يتغلب الايمان الاعزل على سلاح الباطل الفتاك ؟.. لماذا قال الله تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة..) أعبثا يذهب كلام الله .. انه يدعونا اولا الى الاستعداد وان نقوي انفسنا حتى يتهيأ لنا ان نقف ازاء خصمنا موقف الند للند ... والايمان الذي يسيطر على افئدتنا هو الذي سيرجح كفتنا ويكفل لنا النصر.

واستطرد سامي يقول..

لقد رأينا جميعا موقف اعدائنا منا ... انهم يخدعوننا . يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم . لقد اقبلت لجنة (شو) وقررت ما قررته . ولكن حكومة الانتداب ضربت بقراراتها عرض الحائط ... ان بعض الزعماء الذين يثقون بالانجليز هم مصدر الخطر على البلاد..

وقال يوسف:

- ولكن الى متى سنصبر ... انني لا ارى أي اثر للاستعداد.

- وهل تريد ان تسمع من الناس ان يقولوا لك.. انا مستعد.. انا عندي سلاح؟...

لقد قال الرسول عليه السلام..(واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان)، ان الثورة كامنة والاستعدادات لابد وان تظهر يوما .

كانت السيارة توشك ان تصل الى مزرعة الشيخ شلبي عندما قال سامي لمنى:

- سأمر عليكم في الصباح ..لآخذكم الى المدرسة اذا لم يعد الدكتور..

فهزت منى رأسها بينما شكرته حنان.

(9)

لم تستطع منى ان تنام في تلك الليلة .. لقد كان صوت سامي يطاردها .. وحتى عندما داهمها النعاس واستطاعت لحظة الكرى ان تجد طريقها الى دنيا منى ، تمثل لها سامي في حلمها كزعيم يخطب في الجماهير الثائرة . واخذت تقارن بينه وبين اخيه .. كانت فيما مضى تضعه الى جانب ابراهيم ، واما الآن فهو ويوسف صنوان .. ولكنها تحب يوسف .. وحنان ايضا تحب يوسف .. هل تحرم اختها من حبها „ انها تستطيع ان تجد لها اكثر من حبيب . اما اختها حنان فانها لا تستطيع النظر الى عيون الشباب .. واخذت اشعة الفجر تعبث برموش عينيها . فوقفت في الغرفة واخذت تنظر الى شقيقتها حنان التي كانت تشاركها الغرفة.. كانت اشبه بملاك اسلم نفسه للقدر . واطلت من النافذة فرأت فاطمة زوجة اخيها الدكتور وهي تعنف الخادم لكسله وعدم استيقاظه مبكرا...

ووقع بصر فاطمة على وجه منى الناعس ، فنظرت اليها شزرا ولم تعرها اهتماما ، حتى تحية الصباح لم تقلها ، ولم تتأثر منى . فقد اعتادت كما اعتاد كل من في البيت على وجه فاطمة العابس...

وعلا صوت محرك السيارة قادما نحو البيت ، فتعجبت ان يكون سامي قد جاء مبكرا الى هذا الحد .. ولكنها فوجئت بسيارتهم يقودها شقيقها، ونزل حسين من السيارة واخذت زوجته تنظر اليه نظرتها الى شخص غريب ثم هتفت ساخرة...

- اهلا وسهلا .. شرفت وآنست .. اين كنت؟! في الشمس ام في القمر؟...

نظر اليها الدكتور وكانت عيناه مقفلة من طول السهر . فاستطردت تقول:

- طبعا .. لماذا تعود وتترك يافا ومن فيها.

واخذ حسين يجر ساقيه نحو البيت بينما عادت فاطمة تقول..

- يا لدمك الخفيف ، لقد حرمتني النوم وانا احلم فيك. تسهر حتى الصباح بينما ابنتك مريضة.

وبعثت كلماتها الاخيرة في الدكتور ما يقتل النعاس فصاح:

- ماذا .. سعاد هل جرى لها شيء؟...

- لا تفزع .. انها لا تستحق كل هذا الاهتمام..

- ماذا تقولين اين هي؟..

- في الغرفة ..

وصعد الدكتور السلم المؤدي الى غرفة النوم حيث كانت سعاد . واخذ يحضن ابنته ويقبلها حيث اكتشف انها مصابة بمرض الحصبة .. كان يعلم ان لا خطورة من هذا المرض .

جلس الدكتور الى جانب ابنته التي استيقظت من نومها واخذت تنظر الى ابيها ولا تستطيع الكلام.

خمسة ايام متتالية ذهبت فيها منى الى يافا وعادت مع سامي ، حيث اصر الدكتور على البقاء الى جوار

ابنته المريضة. وقد ازداد تعلق حنان بيوسف في هذه الآونة ، فاصبح يوسف يجلس الى جوارها بينما اخذت منى طريقا الى جوار سامي..

كانت هذه هي السنة النهائية بالنسبة ليوسف ينال بعدها شهادة الدراسة الثانوية وكان قد عقد العزم ان يكمل تعليمه في الخارج.

لم يستطع سامي ان يصارح منى بحبه. وكذلك هي لم تستطع ان تقنع نفسها انه يعجبها .. كانت تنظر اليه نظرتها الى شيء جميل ولكنها لا تحبه. اما يوسف فهو لا يزال يستولي على قلبها . وكان الحب قد اخذ طريقه بين يوسف وحنان ، وصارح كل منهما الآخر ، وعقدا العزم على الزواج بعد ان ينتهي يوسف من دراسته الثانوية.

اخذ الشيخ شلبي يعبث بشعر لحيته وهو يستمع الى صديقه عبد المجيد الذي طلب منه يد ابنتيه منى وحنان. وقال الشيخ:

- انه ليسعدني ويشرفني ان تتم هذه المصاهرة بيننا .. ولكن لابد ان استمع الى رأي الفتاتين .. ان الامر يتعلق بحياة كل منهما ، ويجب ان يكون لهما فيه رأيا ..

فقال عبد المجيد:

- كما تشاء وارجو ان يتم الامر على خير.

رفضت منى رأسا ونظرت الى والدها وقالت:

- لا يا ابي .. اني لا اريده زوجا لي.

فقال لها والدها:

- ولكنه يا ابنتي خير من يتقدم لك .. انه شاب مستقيم ناجح في عمله..

ونظرت الى والدها وكانت تعلم انه لن يجبرها عل امر لا تريده ، خصوصا اذا كان هذا الامر يتعلق بزواجها وقالت:

- ابي .. اذا كنت تريدني ان اتزوجه فاني طوع امرك .. ولكني انا .. لا اريده..

فقال الشيخ:

- انا لن ارغمك على قبوله ..

واخذ الشيخ يفكر .. ماذا يقول لصديقه ثم التفت الى منى وقال لها:

- وهل تعتقدين ان حنان سترفض الزواج من يوسف ايضا؟ ..

صعقت منى وهي تستمع الى هذا الخبر. ورأى والدها التغير الذي طرأ على وجهها وتغير بذلك صوتها وهي تسأل:

- وهل تقدم يوسف لخطبة حنان؟ ..

فلما اجابها والدها بالايجاب سكتت لحظة ثم قالت:

- اذا كان الامر كذلك .. فلا بأس .. انني ارضى بسامي.

هز الشيخ رأسه وقد بدا على وجهه الغضب وقال:

- ماذا؟! ولكنك لا تحبينه .. كيف تتزوجين به وانت لا تريدينه؟!.

فاخذت تهمس في سرها ... ما دمت لن احصل على الانسان الذي احبه فسأحصل على اقرب الناس اليه حتى اكون دائما قريبة منه. ثم قالت بصوت مرتفع:

- يخيل اليّ أني كنت مخطئة عندما رفضته .. انه كما قلت خير من يتقدم الي....

(10)

في الوقت الذي كانت فيه فاطمة تعاني آلام الوضع في الطابق العلوي كانت تترامى الى مسامعها اصوات الزغاريد والغناء .. لقد كان البيت كله فرحا بذلك اليوم الذي اعلنت فيه خطبة الشقيقتين منى وحنان كريمتي الاستاذ شلبي عبد الفتاح المحامي. على الشقيقين سامي ويوسف ابناء عبد المجيد. من اعيان قرية سلمة...

واخذت فاطمة تصيح .. حتى الخدم كانوا في شغل عنها . كانت تعلم ان جميع من في البيت يكرهونها ويخشونها . حتى زوجها الدكتور لم يكن يطيقها .. لقد كانت متغطرسة متكبرة تأمر وتنهي الكبير والصغير وينفث ثغرها بالفاظ ترفضها آذان الخدم. وكانت معاملتها القاسية للخدم تجعلهم ينفرون من خدمتها وكثيرون تركوا العمل بسبب معاملتها السيئة..

واشتد الالم. واخذ العرق يتصبب من وجهها غزيرا . وكانت تكتم صراخها بعض شفتها السفلى حتى ادمتها . وتقلبت ذات اليمين وذات الشمال واصوات الطبل والغناء كانما تطرق في دماغها .. واخذت تبكي...

اهي تستحق كل ذلك ؟... وتذكرت الليالي التي كانت تجبر فيها الخدم ان يناموا جياعا جزاء غلطة بسيطة. واخذت تقسم لتنتقم من الجميع اذا قدر لها ان تعيش.

لم تكن قد عانت مثل هذه الالام يوم وضعت طفلتها الاولى سعاد. فقد كان الى جانبها زوجها وحماتها والقابلة. وكلهم كانوا ينتظرون المولود بفارغ الصبر. اما الان وهي كالجيفة التي يأبى الكل ان يقترب منها تعصرها آلام الوحدة والوضع معا...

وبدأت تفكر .. هل تعمد الآخرون نسيانها؟ ام ان الفرحة انستهم انها على وشك الوضع ؟.. ولماذا اختاروا هذا الوقت بالذات ليكون يوم الخطوبة لشقيقتي زوجها؟.. انها لابد مؤامرة من الجميع لاغاظتها والانتقام منها ..

كان باب الغرفة التي تقبع فيها مغلقا يخنق الصرخات التي كانت تنطلق رغم انفها .. وتحاملت على نفسها مستندة على السرير حتى وصلت الباب .. وشعرت بدوار عنيف وهي تمسك بمقبض الباب .. ودارت بها الارض فخرت مغشيا عليها ...

وامتلأت الدنيا بصراخ الطفل الصغير الذي هبط الى الدنيا دون مساعدة احد ... واحست ان حملا ثقيلا قد ارتفع عن صدرها وعاد اليها وعيها .. وايقظها صراخ الطفل الصغير...

ووجدت الى جوارها طفلتها الصغيرة سعاد التي لم تكن قد تجاوزت الثلاثة اعوام ..

واحست فاطمة بنوع من السعادة وهي تجد نفسها قد وضعت دون ان ترتجي مساعدة احد، ودون ان يظهر ضعفها ويسمع صراخها انسان. وتمنت لو ان الصغيرة سعاد لم تحضر..

وتحاملت من جديد على نفسها وقد بعثت فيها الكبرياء والزهو قوة ونشاطا .. فحملت صغيرها .. وقطعت حبل المشيمة وطلبت من سعاد ان تحضر لها كوبا من الماء .. واخذت تمسح وجه الطفل بقطعة من الشاش

المبتل ... والبسته ثوبا كانت قد اعدته من قبل..

واصبحت اصوات الغناء لا تزعجها ، وكذلك صوت الطبل ، فقد تخيلته يعلن انتصارها على القدر .. وسرى في جسدها نشاط لم تعهده بعد ان وضعت وليدها الاول .. فارتدت ملابسها واحتضنت طفلها الصغير وامسكت بيدها الاخرى طفلتها سعاد واتجهت الى الطابق السفلي حيث كان الجميع غارقين في بحر الفرحة ..

وافتر ثغرها عن ابتسامة تحمل كل معاني الهزء والسخرية ممن تركوها وحدها ظانين انها ستعجز عن وضع طفلها وحيدة.

وقفت العروسان فجأة عندما سقطت انظارهما على زوجة اخيهما تحمل طفلها الجديد. والقت ابتسامتها في قلبهما شيئا من الفزع فهرولتا اليها ، قبلت منى الطفل وهي تهتف..

- الحمد لله على السلامة ..

وكررت حنان العبارة ثم توجهت بالسؤال الى فاطمة:

- طفل ام طفلة ؟..

واجابتها فاطمة بلهجة ساخرة:

- وماذا تريدينه ان يكون ؟..

فصاحت منى وهي تحاول انتزاع الطفل من صدر امه التي تشبثت به :

- طفل طبعا

فاجابتها فاطمة:

انها طفلة .. ساسميها حنان .

فصاحت منى غاضبة :

- انك هكذا دائما لا تلدين الا البنات

فاجابتها فاطمة باستهزاء :

- وهل انا خير من امك .. لقد وضعت تسع بنات وان لم يعش غيركما .

واقبل الشيخ شلبي فسارعت ابنته حنان نحوه وقالت له :

- لقد وضعت انثى.

- الخيرة فيما اختاره الله..

واتجه الشيخ شلبي بعينيه يبحث عن ابنه الدكتور حسين فلم يجده .. فاقبل نحو فاطمة وهو يقول لها بصوت جهوري :

- الحمد لله على سلامتك يا ابنتي .. لا تغضبي لكونها طفلة ..

- ولماذا اغضب .. النساء في نظري خير من الرجال

وبلع الشيخ شلبي الاهانة وسألها:

- ومن الذي ساعدك على الوضع ؟.. من القابلة ؟.. ومن احضرها؟.

- اطمئن .. لم تكن هناك قابلة ..

- ماذا .. هل وضعت الطفلة لوحدك ودون مساعدة احد ؟...

- اجل .. لم يكن معي غير عزيمتي ..

ثم اغمضت عينها وهي تهز رأسها مستطردة ، ثم فتحت عينيها ونظرت الى طفلها الصغير وصاحت في وجوههم:

- كنتم تريدون لي الموت .. تركتموني اعاني الآم الوضع وحيدة حتى كدت ان اموت انا وابني..

وهتفت حنان ..

- ابنك .. اهو طفل ..

- اجل هو طفل ... فلتسعدوا

وصرخت منى :

- سنسميه سامي..

فقالت حنان:

- بل يوسف .

وهزت فاطمة رأسها وهي تقول ...

لا هذا ولا ذاك ... وحيد .. اسمه وحيد..

لم يكن الحب هو الذي ربط فاطمة بحسين .. لقد كان حسين حديث التخرج من كلية الطب عندما فاجأه والده باختيارها زوجة له . ووافق حسين . فهي جميلة .. ومثقفة .. وفوق كل هذا انها ابنة قاضي المحكمة الشرعية وصديق والده .. ولكنه لم يدرك ما تكنه هذه المخلوقة من اخلاق شرسة وغرور خانق الا بعد ان اصبحت زوجته .. واضطر الى الصبر لاسيما بعد ان وضعت له طفلته الاولى .. سعاد .. فقد اغرم بالفتاة الصغيرة حتى انه اكتفى بالوظيفة واقفل العيادة ليكون دائما الى جانبها . وعندما اصيبت بمرض الحصبة توقف عن العمل وجلس الى جانبها اسبوعا حتى شفيت ، مع علمه ان هذا المرض ليس خطيرا ، وكل انسان لابد وان يصاب به يوما ..

وعندما حملت فاطمة طفلها الجديد بدأ جميع من في البيت يحسنون معاملتها ، ولكنها ركبت رأسها واستكبرت .. حتى اضطرتهم ان يعتبروها غير موجودة . وكم مرة تدخل والدها القاضي ليقنعها ان تحسن سلوكها مع الجميع فتعده بذلك ثم تنسى انه زارها قبل ان يكون قد وصل الى بيته ..

وفي ذلك اليوم الذي وضعت فيه طفلها ... نسي حسين انه متزوج وان امرأته تعاني آلام الوضع .. كان فكره شاردا وهو ينظر الى همسات عيون العروسين والعريسين .. وتذكر ايام شبابه .. ايام الحب التي عاشها وهو في الجامعة .. وندم لانه لم يتزوج فتاة يحبها ..

وقطع حبل افكاره توقف الطبل ووجوم الحاضرين واندفاع العروسين نحو فاطمة .. ووجد نفسه يهرب من

البيت . وبحثت عنه عينا والده فلم تجده ...

كان يعرف انه قد اجرم في حق زوجته وفي حق طفله ، بل وفي حق الانسانية . فهو طبيب خلق لتخفيف الالم عند الناس .. وكان عليه ان يشعر زوجته بانه لم يكن مناسبا لها .. فاتجه بعربته الى قرية (سلمة) القريبة حيث احضر معه القابلة .

وعندما عاد تخطفته الايدي وغمرته القبل .. فاسرع نحو زوجته يصيح .

- فاطمة حبيبتي .. الحمد لله على السلامة .. انا آسف لقد تأخرت.

ونظرت اليه والى القابلة . وحز في نفسها انها ظلمته حين فكرت انه نسيها كالآخرين.

فقالت له باسمة :

- الحمد الله كنت اظن نفسي بلا رجل.

- فاطمة .. كلنا فداء لك .. ماذا رزقك الله ؟..

- ولدا ..

- ولدا .. الحمد لله . الحمد لله..

وتقدمت منى تحمل الطفل الذي انهال عليه والده تقبيلا فقالت منى :

- سنسميه سامي .. اليس كذلك ؟

- كما تشائين يا عزيزتي..

- ولكن زوجتك تريد ان تسميه وحيدا .

- كما تشاء هي .. فهي التي حملته ووضعته

- ولماذا لا تسميه انت كما تشاء ؟..

- اجل لك الحق في هذا فالاطفال يجب ان يسميهم آباؤهم .

وعلا البشر وجه منى وهي تنتظر الاسم الذي سيطلقه اخوها .

فقال حسن :

- انني اسميه .

ثم سكت لحظة والتقت عيناه بعيني زوجته فاستطرد :

- وحيدا ..

وعاد الحفل الى ما كان عليه من صخب وهرج وعلا الغناء .. وصعدت فاطمة الى غرفتها والى جوارها حسين يساعدها ويداعبها ليرفه عنها وسألها:

- هل تألمت كثيرا يا عزيزتي ..

ولم تجد بدا من ذكر الحقيقة لزوجها..

- يعلم الله .. لقد عادت روحي الي بقدرة قادر.

فقال لها بلهجة عاطفية:

- كم انا سعيد انك في صحة جيدة ..

وسألته:

- هل تتغير اخلاق الرجال دائما عندما تضع زوجاتهم ؟..

- ماذا تقصدين يا عزيزتي؟..

- لم تكن بالامس ما انت عليه اليوم ..

- لقد اكتشفت انني كنت اسيء اليك ولذا فانني ارجو المغفرة.

ونظرت اليه .. وتذكرت الانتقام الذي اقسمت عليه .. ولكن دمعة وجدت طريقا الى عيني حسين جعلتها تقول ..

- الله هو الذي يغفر.

- ولكن لا تنسى يا عزيزتي اننا كلانا كنا مخطئين .. فانت لم تكوني تعاملين احدا في البيت معاملة تتفق ومركزه. كنت توجهين الي نفس الالفاظ التي توجهينها للخدم.

- حسين .. لقد رأيت الموت بعيني .. وكم تمنيت ان اعيش كي اغيظكم جميعا وانتقم منكم .. ويظهر لي انني كنت مخطئة .. ان الله لا يهبنا الحياة الا لنهب غيرنا السعادة .. لقد كنت اسمع والدي دائما يقول لي .. الفضيلة يا ابنتي هي اسعاد الذات بالعمل على اسعاد الغير ... حسين ارسل في طلب منى وحنان ... اريد ان اكلمهما ..

ونزل حسين لاحضار شقيقتيه ، في حين غرقت وجنة فاطمة بالدموع .. واقبلت الشقيقتان فاشارت اليهما فاطمة قائلة:

- اقبلا يا عزيزتي .. اقبلا ..

ونظرت كل منهما الى الاخرى اقتربتا نحوها .. فلمست يديهما وهوت عليهما تقبيلا طالبة منهما الصفح عما سلف منها .. وتعانقت الثلاثة ونزلت دموعهن وصاحت منى:

- فاطمة .. زوجة اخي .. لا تبكي .. ان دموعك غالية علينا ..

فاجابتها فاطمة ..وهي ترفع نظراتها الى السماء.

- ليس هناك شيء اغلى من رحمة الله .. لقد وهبني حياتي وحياة طفلي فلا اقل من شكره ... منى ... حنان اختارا للطفل الاسم الذي يرضيكما ...

فصاحتا بصوت واحد ....

_ وحيد ... وحيد ...

(11)

دخل سالم على شقيقه يقول له ..

- هناك ضيوف يريدون مقابلتك ..

- دعهم يأتون الى هنا

- الى هنا ... انهم في انتظارك في غرفة الضيوف

- يا لك من اخ غبي ... تقطع على حبل تفكيري في سبيل ضيوف .. من هؤلاء الضيوف ؟.

- لا ادري ..

ويسلم الشيخ على ضيوفه وقال احدهم ..

- يا شيخ شلبي .. هل من الممكن ان نتحدث عل انفراد؟ ...

- نظر شلبي الى اخيه سالم الذي هم بالخروج وقال :

- سالم انتظر ..

ثم اتجه الى الضيوف مستطردا ..

- انتم ثلاثة ولا بأس من وجود اخي معي ..

- ان الامر خطير نرجو ان تكون وحيدا

وقال الشيخ شلبي ..

- كما تشاءون .. ساكون وحيدا

انصرف سالم .. وسأل الشيخ ..

- خيرا ان شاء الله ؟.

فاجابه الرجل الطويل ذو القبعة :

- خيرا ..

ثم اتجه الى صديقه الاسمر قائلا :

- هل اطلعت على الاخبار الاخيرة يا جلال ؟..

- لا ، فانا لا احب الاخبار .. ولا السياسة .. ان هدفي في الحياة هو لقمة العيش ..

قال الرجل القصير الابيض :

- في الحقيقة ان الاخبار لا تبعث الطمأنينة في النفوس رغم التقارير المتواردة التي تصدرها الحكومة البريطانية فان العرب عاجزين عن حماية اراضيهم .

تكلم الشيخ شلبي بعصبية .

- ماذا تقصدون ايها السادة ؟.. ارجو ان تدخلوا في الموضوع فورا فأني على عجل..

قال الرجل الطويل ضاحكا :

- لاشك انك عاكف على تأليف كتاب في التشريع ايها الاستاذ المحامي . فاجابه الشيخ :

- اجل هو ذاك .. وانت وانتم ماذا تريدون ؟ قال الرجل الطويل :

- في الحقيقة اننا نريد ان نوضح لك انه ليس من الضروري ان يركب الانسان رأسه كل مرة ويضحي بمستقبله ومستقبل اولاده من بعده في سبيل خرافة اسمها الوطنية.

صاح الشيخ :

- ماذا تقصد ايها الرجل ..؟

استطرد هذا

- لو كنت يا سيدي قرأت الاخبار لوقفت على الحقيقة المرة بالنسبة للعرب .. لابد انك قد سمعت عن مزرعة الشوربجي .. قرب رأس العين .. ان مساحتها ضعف مساحة مزرعتك .. اضطر صاحبها ان يبيعها اتدري بكم ؟..

فصاح به الشيخ شلبي وقد فهم قصده من اللف والدوران .

- يبيعها ؟! وهل هناك مجنون يبيع ارضه في هذه الايام ؟.. خصوصا اذا كان المشترون هم اليهود ..

- المجانين كثيرون .. اولهم الحاج حسن الشوربجي . لقد دفع له اليهود ثمن مزرعته مليون جنيها . . ياله من مجنون .. لقد رفض وباعها لرجل عربي اتدري بكم بتسعين الفا ... انه يحب نقود العرب ..ولا يحب نقود اليهود .. واما العربي الذي اشتراها الامس باعها اليوم رابحا الآلاف ...

- ولماذا يبيع الشوربجي مزرعته .. لماذا يضطر ؟...

- الضرائب ... لقد فرضت الحكومة ضريبة باهظة على الارض وقام اليهود بحرق محاصيله فلم يجد بدا من الاستسلام . ولكنه فضل ان يستسلم شريفا ويضع اكليل العار على جبين غيره.

هز الشيخ شلبي رأسه ثم وقف فجأة وقال وهو يشير الى الباب .

- ايها السادة .. الطريق من هنا ..

خاطبه الرجل الطويل ..

- ايها المحامي الجليل لا تركب رأسك ..

فأجابه الشيخ بلهجة ساخرة ..

- ايها السيد .. ان من يركب رأسه خير ممن يركبه نعله.

وعندما خرج الثلاثة اتجه الشيخ رأسا الى غرفة ابنه حسين فوجده غارقا في اللعب مع صغيرته سعاد

وطفله قال الشيخ منزعجا :

- حسين .. حسين .. الا تدري ماذا يحصل.

- ماذا هناك ؟..

- لقد عاد اليهود يلمحون بالتهديد للاستيلاء على المزرعة .

- تهديد ... اهي الحرب ..

- لا ادري .. لقد هددوا عن طريق عملائهم السماسرة باتلاف المحاصيل لنعجز عن دفع الضريبة .. ماذا تقول الاخبار في هذه الايام ؟... ان التشريع اخذ مني كل وقتي ..

- لا شيء ينشر اليوم ويصدق .. فلقد اصدرت حكومة بريطانيا تصريحاتها وكتبها البيضاء معترفة بحق العرب . ولكن حكومة الانتداب في فلسطين تعكس ما تحويه التصاريح والتقارير عند التنفيذ .. لقد بلغ السيل الزبى واحسب ان الثورة لابد ان تندلع...

قال الشيخ :

- لست اخشى الثورة ولا الحرب . وكل ما اخشاه ان تصبح هذه المزرعة يوما ملكا لليهود رغما عني..

(12)

عاد الدكتور حسين على غير عادته في صباح احد الايام واتجه الى المكتبة حيث كان والده يقضي معظم اوقاته .. التفت الشيخ الذي استغرب قدوم ابنه في هذه الساعة التي هي من اوقات عمله في المستشفى .. وقال:

- حسين .. اهذا انت خير ان شاء الله ؟..

وشعر الشيخ كأن شيئا قد حدث ولمس ذلك في الصورة التي ارتسمت على وجه ابنه واستطرد يقول:

- ماذا حدث يا حسين ؟..

قال حسين:

- لقد عمت الثورة جميع ارجاء يافا .. وملأ الناس الشوارع وابتدأ جنود الانتداب يقتلون المواطنين الابرياء ..

هز الشيخ رأسه وكأنما حدث ما كان يتوقع ثم سأل:

- ولكن لماذا تركت عملك .. هل هاجم المتظاهرون المستشفى ؟..

- لا .. ولكن جميع مرافق الحياة قد توقفت عن العمل ، لقد اعلن العمال والموظفون الاضراب وقد هاجم اهالي يافا شوارع تل ابيب وقتلوا عشرات اليهود ولولا تدخل نيران الانجليز لاصبحت تل ابيب هشيما ..

قال الشيخ:

- وهل سيستمر العرب في ثوراتهم العزلاء بينما مدافع الظلم تخطف الارواح . يجب ان نجد حلا لهذا الامر..

- ماذا ترى ؟.. اظن ان الزعماء ورؤساء الاحزاب يعدون العدة للثورة الشاملة.

- وهل تثق انت في هؤلاء الزعماء؟ واين هي الاحزاب التي تذكرها ؟.. كل امرئ يكون لنفسه حزبا . تلبية لرغبة المستعمر.

رحم الله موسى الحسيني والقسام ... لقد كان الوطن هو الهواء الذي يتنفساه والهدف الذي يغذان السير نحوه ..

ترك حسين والده واتجه عائدا الى يافا ، ولكنه فوجئ باعلان نظام منع التجول .. وسمح له كطبيب ان يدخل المدينة فاتجه الى حيث سامي في متجره .. ولما لم يجده اتجه الى المستشفى . وكانت مجموعة من الجرحى قد وفدت اليه بعد الاضطرابات التي شملت المدينة . اخذ الدكتور يعمل على تخفيف الام مواطنيه الجرحى حتى كاد الليل ان ينتصف .. ولما حاول العودة الى سلمة منعه الجنود منعا باتا فاضطر ان يقضي ليلته في المستشفى ..

(13)

بدأت مدينة يافا تتثاءب والدخان يرتفع من جميع اطرافها ، وقد تعطلت جميع مرافق الحياة فيها واصبح هم الناس هو الثورة فقط. نسوا انفسهم وعائلاتهم واطفالهم الجياع وهبوا هبة رجل واحد .. وفي ساحة الشهداء كانت جموع جنود الانجليز ترابط لكي تمنع اهالي يافا القديمة من التجمع للهجوم على الاحياء اليهودية في تل ابيب المتاخمة ..

وارتفع صوت سعيد المغربي وهو يخاطب ثلاثة من اخوانه وقال:

- ايها الاخوة .. نحن لن نعود الى عملنا قبل ان ينتهي الاضراب واظن ان وقتا طويلا سيمر قبل ان يثوب الانجليز الى رشدهم .. وانتم تعلمون اننا وعائلاتنا لا نعيش الا على الدخل اليومي الذي نكسبه من عملنا في الميناء .. ولقد رأيت ان اخبركم انه يجب علينا ان نعمل كيما نستطيع الحصول على الطعام الذي يسد رمق اطفالنا .

فنظر اليه اصدقاؤه نظرة شك وريبة وقال محمود :

- يا سعيد .. اذا اردت ان تطعن الثورة فنحن لن نكون معك. لنمت نحن واطفالنا .. اما ان تعود الى العمل فهذا لا يمكن ..

فهم سعيد ان محمود قد اساء فهم ما قصده فقال:

- اتظنني اريد العودة الى العمل في الميناء ؟!.. لا .. نريد ان نعمل على تخليص الطعام لافواه اطفالنا . لماذا لا نبادر كل ليلة بالهجوم على تل ابيب والحصول على الطعام من هناك ؟

قال محمود ..

- ولكن الا ترى الانجليز الذين يمنعون ايا كان من المرور في الشارع ..

- عندما يرخي الليل سدوله لن تستطيع عيون هؤلاء ان ترانا .. وارى من الانسب ان نصل الى تل ابيب عن طريق البحر .

وعقد الاربعة عزمهم على ان يشنوا هجوما على تل ابيب تلك الليلة..

واستطاع الاربعة ان يصلوا الى تل ابيب ، وان يفاجئوا احد الحراس ويقتلوه ، ويستولوا على سلاحه ، ثم يدخلون احدى الحوانيت ويأخذون من الطعام الذي عز لدى العرب في ذلك الوقت ..وفي طريق عودتهم قابلتهم دورية للانجليز فاضطروا الى الهرب والاختفاء في شوارع يافا القديمة. وانطلقت رصاصات الانجليز تمزق سكون الليل. وصحت يافا القديمة وبادر بعض شبابها الى تبادل اطلاق النار مع الانجليز مما اودي بحياة احد الجنود ..

وتكررت هجمات اهالي يافا القديمة ليلا على تل ابيب. وصاح اليهود طالبين من حكومة الانتداب ان تحميهم من ثورة العرب. وقرر الانجليز امرا لم يتورعوا عن تنفيذه بوحشية ..

تساقطت من احدى طائراتهم منشورات تدعوا اهالي يافا القديمة الى اخلاء منازلهم لعزم الحكومة على

هدمها واعادة تنظيم بنائها من جديد ، بما يتفق ومصلحة المدينة والسكان .

وفطن اهالي الحي الى الهدف الذي يرمي اليه الانجليز وعقدوا العزم على ان يبقوا في بيوتهم مهما كلفهم الامر..

كان المتجر الذي يملكه سامي تطل ابوابه على ساحة الشهداء حيث كان جنود الانجليز يصوبون مدافعهم نحو الحي الذي قرروا هدمه ..ودارت في رأس سامي دوامات الحقد والثورة وهو يجد ان متجره الذي عمل السنوات الطويلة على تأسيسه سيكون اول هدف للتدمير .. لم يكن قد افتتح المتجر منذ ان اعلن الاضراب ولكنه لما شاهد اصرار الانجليز على هدمه اخذت الافكار تعبث برأسه .. ايتركه كما هو ؟.. ام يعمل على اخراج البضائع التي في داخله والتي تقدر بالآلاف ؟ واحس انه سيكون قدوة سيئة اذا ما بادر بالتسليم بالامر الواقع . فوقف على باب متجره بينما تقدم منه ضابط انجليزي وطلب منه الابتعاد لان الديناميت سينفجر بعد لحظات . وامتنع عن الحركة في بادئ الامر ولكن احد الجنود جذبه الى حيث الامان بينما تعالت اصوات الانفجار وشبت النار في كل متجر سامي وقلبه معا ..

توالت اصوات الانفجارات تهدم البيوت وتلقي الى الشارع بالآلاف من الاطفال الابرياء والشيوخ والنساء..

وتقدم سعيد من احد الجنود وهو يحاول ان يحفر ثقبا ليضع فيه الديناميت وقال له..

- انكم لن تهدموا هذا المنزل ..

ونظر اليه الجندي الانجليزي وضحك ثم استمر في عمله واستطرد سعيد صائحا ..

- هل تظن انني ساتركك تهدم هذا البيت على اولادي ؟..

وقال له الانجليزي وهو يتصنع الادب والظرف .

- لا يا حبيبي .. سوف يخرج اولادك قبل ان ينفجر الديناميت .

- ولكنهم لن يخرجوا .. ولن اخرج ايضا .. واذا اردتم هدم هذا البيت فليكن فوق جثتي ..

وقال له الانجليزي .

- لا تكن عنيدا .. لقد حاول كثيرون غيرك ان يتشبثوا بما تدعو اليه ولكن نار الفتيل كانت تعيد لهم عقولهم فيبادرون الى ترك المنزل قبل الانفجار ..

وفتح سعيد باب منزله ونظر الى اطفاله الثلاثة ..

ورأى البؤس والجوع يرتسم على وجوههم .. وزوجته النحيلة تحتضن احدهم بحنان ورقة وتنظر الى زوجها بعيونها الضالة في الفراغ ..

وقال سعيد :

- هيا بنا .. انهم جادون وسيهدمون المنزل .. اخرجوا انتم وليهدموه فوق جثتي ان ارادوا ..

ونظرت الزوجة الى اطفالها ثم رفعت نظرها الى حيث كان زوجها وقالت :

- نذهب نحن .. الى اين ؟.. الى الشارع كي نموت جوعا ولماذا لا نموت هنا في بيتنا ميتة الاشراف ..

وتدخل الضابط الانجليزي صائحا :

- هيا .. هيا اخرجوا .. ان النار تلتهم الفتيل فنظرت اليه الزوجة وقالت :

- اخرج انت .. نحن لن نترك هذه البقعة الطاهرة التي عشنا فيها دون ان ندفع لها من دمائنا الثمن الذي تستحق..

واخذ الضابط يرتجف .. فالانفجار على وشك الحصول .. واخذ يشد سعيد من يده راجيا اياه ان يخرج . ونظر سعيد اليه ثم هجم عليه واحتضنه وادخله المنزل واغلق الباب بالمفتاح ..

كان منظر الضابط الانجليزي يدعو للرثاء .. لقد رأى الموت يزحف اليه فاخذ يبكي ويضرب الباب بكتفه بينما ارتفعت اصوات الجنود خارج البيت تصيح .. اطفئوا الفتيل . ومن ذا الذي يستطيع ان يقترب من جهنم .. كل كان يطلب من غيره ان يتقدم وارتفع صوت الانفجار . وتساقطت انياب الموت تخطف الاطفال غير عابئة بالبراءة التي ارتسمت على وجوههم ..

واستشاط الانجليز غضبا لمقتل الضابط . ولكنهم رأوا ان يقلعوا عن عمليات الهدم خصوصا وان الاخبار الواردة تشير بتجمع الثوار في الجبال .. واستعدادهم للانقضاض على تجمعات الجيش.

(14)

بدأ الجوع يجد طريقه الى الامعاء التي لم تدع شيئا الا واكلته ، حتى وصلت الى حد لم تجد فيه شيئا تأكله .. وكانت مزرعة الشيخ شلبي آخر امل للناس ، تركها لهم الشيخ حتى لم يبق فيها شيء يؤكل وسأل الشيخ شقيقه سالم :

- هل تركت لنا بعض المؤن؟ ..

ولما اجابه هذا بالايجاب قال له:

- اذا كان ما لديك يزيد عن حاجتنا فلا بأس ان نرسل بعضا منه الى من هم في حاجة وعوز فاجابه سالم :

- ان ما لدينا لا يكفينا شهرا واحدا .. ان في المزرعة اكثر من عشرين معدة .. ولكن .. هل سنبقى هنا نعيش في هذه العزلة. لو هجم علينا اليهود في احدى الليالي فانهم لن يدعوا فينا قلبا ينبض..

فقال الشيخ :

- واين تريد ان تذهب ؟ .. هذه ارضنا وهذا بيتنا الى اين نتركه ؟..

- الى أي بيت داخل القرية حتى يأتي الله من عنده بالفرج ..

- وماذا يقول الناس عنا ؟.. خافوا وهجروا مزرعتهم وبيتهم .. اياك ان تفكر مرة اخرى فيما قلته لي الان ..

- انني ابحث عن مصلحتنا ..

- ان مصلحتنا هي ان نبقى هنا..

- نبقى حتى يأتي الينا الموت .. الا نستعد ..

- اليس لديك بندقية .. اليس لدي انا الآخر وحسين ومسعود .. نستطيع ان نحارب اعداءنا حتى الموت .. وسكت الشيخ لحظة ثم استطرد سائلا :

الم تصلك اخبار من ابراهيم ؟..

- لا .. انه منذ غادرنا لم نعرف عنه شيئا . قال لي ابو خالد انه شاهده في العام الماضي يعمل في ميناء حيفا .. ولم اكلف نفسي السؤال عنه.

- لماذا .. لماذا لا تحاول اقناعه بالعودة ؟..

-الحقيقة انني سمعت انه ..

- انه ماذا ؟..

- قال لي احدهم انه متزوج من يهودية..

- لعنة الله عليه .. ابلغ به الطيش والاستهتار الى هذا الحد ..

- ماذا افعل يا اخي ؟..

سكت الشيخ شلبي لحظة .. ثم قال:

- انني سأذهب الى ابو سامي لقد انقطعت اخبار يوسف منذ ان سافر وحنان في غاية القلق ...

لم تكن الصدمة شديدة بالنسبة لعبد المجيد . فقد فرح بان ابنه سامي لم يصب بسوء . وايام الحرب يكون الانسان على استعداد للاستماع لاي خبر مهما كان مزعجا . ولما اعلم سامي والده بتدمير متجره قال له:

- الحمد لله على سلامتك .. انت المهم والمال يروح ويأتي ...

ثم تذكر ابنه يوسف الذي غادرهم ليدرس الهندسة في الجامعة الامريكية في بيروت فقال لسامي:

- اريدك ان تكتب لاخيك رسالة .. لقد مضت ستة اشهر دون ان نتسلم منه أي جواب ..

واخذ سامي يعد خطابا مطولا لاخيه يشرح له فيه الوضع الثائر وينصحه بالبقاء في بيروت الى ان تهدأ الاحوال..

ودخل الشيخ شلبي على عبد المجيد فقام هذا وسلم عليه . وكذلك فعل سامي تاركا الخطاب الذي كان يعده لأرساله الى اخيه ..

وبادر الشيخ سائلا :

- وصلت من يوسف اخبار ؟..

فاجابه عبد المجيد ...

- لا .. لا ادري لماذا انقطعت رسائله..

قال سامي ..

- ان مصلحة المواصلات متعطلة منذ ان اعلن الاضراب فاذا لم يجد من يحمل الينا الرسالة فكيف يستطيع ارسالها ؟..

قال الشيخ :

- ان حنان قلقة عليه .. لا تفكر الا فيه ..

وتذكر سامي منى فقال:

- كيف حال منى ؟.. اهي بخير ؟..

- كانت تود ان تأتي معي .. ولكنها توعكت قليلا فنصحتها بالبقاء في فراشها ..

وشاهد الشيخ الخطاب الذي كان سامي يعده فقال :

- هل تكتب خطابا الى يوسف .. ارجوك ان تخبره بقلقنا عليه .. نريد ان نسمع اخباره..

فقال عبد المجيد يطمئن الشيخ :

- انه في سلام . الخطر هنا حيث نقيم نحن . انه هو الذي يعصره القلق علينا ..

واخذ سامي يتمم رسالته لاخيه. وعندما انتهى منها اخذ يفكر في الطريقة التي سيرسل الرسالة عبرها ..

ارتفعت في تلك الليلة اصوات انفجارات. واشتد ازيز الرصاص على مقربة من بيت الشيخ شلبي .. وصحا جميع من في البيت ، وحمل الرجال اسلحتهم استعدادا لاي خطر...

وعاد السكوت يخيم من جديد بينما كان النوم قد فارق الجفون ،فقبع الجميع في بهو البيت الواسع في انتظار انوار الصباح ..

ومع شروق الشمس رأو شابا يتقدم ناحية البيت وقد حمل على كتفه رجلا آخر يبدو عليه انه جريح. واتجه الدكتور ناحية المقبل فلما رآه هذا قال:

- صباح الخير ..

فرد عليه الدكتور تحيته فعاد الرجل يقول:

- اسمي فؤاد عبد الرحمن .. نصبت كمينا مع صديق لقافلة اليهود ودمرناها واصيب صديقي بجراح فهل اطمع بمساعدتكم له حتى اجد طريقة انقله بها الى مكان امين ...

وابتسم الدكتور وتذكر اصوات الانفجار والازيز الذي حرمهم النوم ليلة امس ثم قال:

- اهلا وسهلا .. انا الدكتور حسين..

وصاح فؤاد قائلا:

- دكتور الحمد لله ... ارجوك ان صديقي نزف من الدم الكثير .. ولقد اضطررت الى ان انتظر حتى تشرق الشمس فلا اكون سببا لاقلاق راحتكم في منتصف الليل .. ارجوك يا دكتور ان تساعده ...

ونظر الدكتور الى وجه الجريح ... ورغم الدم الذي كان يلطخه وصفرة الموت التي كانت تعلوه وجد نفسه يصيح ..

- ابراهيم ... ابراهيم ..

وبهت فؤاد وقال:

- هل تعرفه ؟ ...

واخذ الدكتور ينظر الى جرح ابراهيم .. لقد كانت احدى الرصاصات قد اخترقت عنقه في حين استقر غيرها في صدره وبطنه وعاد الدكتور يصيح ثانية:

- ابراهيم ... ابراهيم ...

واندفع والده وعمه نحوه ، وفتح سالم فاه وهو ينظر الى ابنه الذي مضرحا بدمائه. والقى بنفسه فوقه وصاح:

- ابراهيم .. ولدي قتلوك ..

كان ابراهيم قد انتهى ولم يبق منه غير جثته..

والقت والدته بجسمها محتضنة ابنها تسكت تارة وتصيح تارة اخرى..

نظر سالم الى فؤاد غاضبا ..

- انت السبب .. انت السبب في موته ..

فصاح الدكتور في وجه عمه قائلا :

- اياك ان تعيد هذا الكلام ان ابنك مات بطلا .. اذهب وانظر الى اعداء الوطن الذي ابادهم ببطولة .

واتجه الدكتور الى الناحية التي وقع فيها الاشتباك فوجد ما يفوق عن عشرين قتيلا من اليهود وقد احترق بعضهم بينما كانت اربع عربات قد دمرت عل آخرها .. وعاد الدكتور مع فؤاد فوجد سالم لا يزال واقفا الى جوار ابنه الشهيد ..

(15)

اخذ فؤاد يروي للدكتور حسين قصة لقائه بابراهيم فقال:

- كنت مع بعض زملائي نعمل على تطهير الوطن من اعدائه الصهاينة والانجليز. وكان ذلك يتحتم علينا ان نقتلهم في الليل والنهار.. وكانت لنا جولات موفقة في بعض الاحيان.. وكان يحز في نفوسنا ان نجد بعض اخواننا العرب يقفون الى جانب اليهود جنبا الى جنب حتى ان احدهم وهو ابراهيم لم يتورع في ان يتزوج من فتاة يهودية هي عضو في عصابة الهجاناه الارهابية.. ولم نشأ الانتقام منه قبل ان نحاول اصلاحه. فاتصلت به شخصيا وابلغته ان عليه ان يعود الى رشده فانه يلعب بالنار، ويقدم على ما لا يحمد عقباه.. واعلمته ان جانيت، وهذا هو اسم زوجته، ما تزوجته حبا فيه وانما تغطية لاعمال اجرامية تنوي القيام بها ضد اخوانه العرب. وشرد ابراهيم ساعتها وهو يستمع لي ثم انتفض فجأة والقى سيجارته التي لم يكد يشعلها وداسها بقدمه ونظر الي قائلا:

- انك تهذي.. ان زوجتي ليس لها علاقة بشيء. ان عملها لا يترك لها وقتا لمجرد التفكير فيما تقوله..

وعدت احاول اقناعه بان عملها على بدالة التلفون في الفندق ليس الا ستارا لما تقوم به من اعمال اجرامية.. وثارت ثائرة ابراهيم واخذ يهددني اذا ما تعرضت لها بسوء. ثم استعاد اعصابه وقال:

- هل لديك دليل على اتهامك ؟..

ولما لم اكن املك الدليل القاطع الذي يدينها قلت له:

- الدليل القاطع ليس لدي في هذا الوقت... ولكني على استعداد لتقديمه اليك..

واخذت افكر كيف يمكنني ان احصل على الدليل فيما اخذت عينا ابراهيم تتفرسني فاستطردت قائلا..

- في اقرب فرصة..

وتركت ابراهيم وكل ما كسبته من لقائي به انني غرست الشك في نفسه... واتصلت باصدقائي وافهمتهم ان ابراهيم ليس كما خفنا ان يكون عالما باحوال زوجته راضيا عن اعمالها أي خائنا بكل معنى الكلمة، وانما كان يقف من الثورة موقف المحايد. كأن الامر لا يعنيه، ورغم انني لم استطع اقناع اصدقائي بحسن نيته.. فما ادراني انه لم يكن يمثل رواية جهله بعلاقة زوجته بالعصابة ؟... واخذت اقنع اصدقائي بالتريث من تلقينه الدرس الذي اعتدنا ان نلقنه لكل من سولت نفسه ان يخون الوطن... وبينت ضرورة التأكد من خيانته قبل تنفيذ الحكم.. وكان علينا ان نضع بين يديه الدليل المادي الذي يدين زوجته واخذنا نفكر..

كنا نعلم ان جانيت عضوا في عصابة الهاجاناه.. وطالما رأيناها مع بعض افراد العصابة ولكن اين هي الفرصة التي نستطيع ان نجمعه فيها وهي ترافق افراد العصابة ؟..

واخذنا نمسك بالخيوط من نهايتها.. ان عمل جانيت في الفندق معروف لدينا ايضا.. لقد كانت جميلة... بل وجميلة جدا... ولذا كان من الطبيعي ان تستغلها العصابة في اعمال الترفيه والاغراء للحصول على الضمائر والذمم وبالتالي الحصول على الارض التي كان اليهود يضحون بأي شيء في سبيل الوصول

اليها وامتلاكها ..

وقررنا ان نقدم جانيت لابراهيم وهي متلبسة بجريمة خيانته . وما كدنا ان نصل الى الهدف حتى حدث ما لم يكن بالحسبان ..!

هب الشعب العربي بأسره .. وقامت الثورة .. واصبح عمل جانيت لا فائدة منه من حيث ان الارض لا يمكن ان تنتقل ملكيتها وجميع معالم الحكومة معطلة .. بسبب الاضراب .

واخذت جانيت تعمل مع العصابة .. وكانت تفتن وتغري ولكن لا لتحصل على الضمائر والذمم كما كان عملها في الاول وانما لتحصل على الارواح ..

فقررت ان اجعل من نفسي ضحية .. ليس لاهمية ابراهيم في نظري .. فقد كان باستطاعتي ان اتخلص منه ومن زوجته ولكن للوصول الى بؤرة الخطر وعجم عود الاعداء..

ووضعت الخطة وتربص احد الاصدقاء لجانيت وحاول الاعتداء عليها في الوقت الذي كان علي ان امر لانقذها من بين يديه .. واصبحت صديقتي واخبرتني انها لا تكره العرب بل تحبهم .. تموت فيهم لدرجة ان زوجها عربي صميم .. واظهرت فرحتي لها .. ولما اظهرت لها رغبتي في التعرف بزوجها ابدت استياء واوضحت لي انه شديد الغيرة عليها ولا يحبها ان تتعرف على احد . ولكنها وافقت ان تصبح لي ... واخذت اضخم لها في مركزي بعد ان اشعرتها انني مطمئن لها كل الاطمئنان . وظنت انها حصلت على صيد سمين .. ودعتني ذات ليلة لزيارة منزلها .. كنت اعلم ان هذه العملية قد تكون آخر ايام حياتي .. ولكني قررت الذهاب .. اخبرت الزملاء وطلبت منهم احضار ابراهيم معهم ليكشف حقيقة زوجته ..

لم اكن قد رسمت اية خطة لانقاذ نفسي من الخطر الذي سرت اليه بقدمي . وكثيرا ما عاب علي الاصدقاء غلطتي هذه فيما بعد . اتجهت الى البيت الذي قالت لي جانيت انه بيتها تقيم فيه هي وزوجها ، وكنت اعلم علم الحقيقة انه ليس بيتها بل هو بيت المجزرة الرهيب .. واخذت قدماي تحسان بشيء من التعب وان خالطه بعض الخوف الذي يحاول ان يعبث بالاعصاب . واصبحت على مقربة من البيت ... كان منزلا قديما تحوطه حديقة ليست بالواسعة وترتفع فيه اشجار السرو متطاولة كأنما تهزأ من البيت القصير واخذت ادور حول البيت .. كان الباب مفتوحا ولكنني اردت ان اتجول داخل الحديقة وقد خطر الي ان اصدقائي سوف يأتون مع ابراهيم .. فهل من الممكن ان يجدوا وسيلة يدخلون فيها الى البيت... ولما رأيت ان البيت متقن التحصين انتابني شعور غريب .. وايقنت انني اقوم بمهمة فاشلة، اضحي بنفسي وباصدقائي في سبيل لا شيء ..ورأيت ان اعود ادراجي واترك لابراهيم مقابلة زوجته في هذا البيت الكئيب . واخذت اقتلع اقدامي من ارض الحديقة حتى لا احدث صوتا .. وتسلل خيط من النور والقى بنفسه في طريقي واتجهت الى مصدره فرأيت باب البيت ينفرج شيئا فشيئا وتطل منه جانيت ، فحاولت الاختباء خلف شجرة. ولكن سمعت صوتها يناديني .. فحرت في امري .. هل اطلق ساقي للريح ؟... ام ؟ ووجدت نفسي اتجه ناحيتها وانا اتصنع الثقة واحاول طبع ابتسامة على وجهي .. واستقبلتني باسمة والقت بنفسها في احضاني واخذت تقبلني .. واخذت افكر .. هل دعتني لكي تستريح مني .. ام لانها تريد قضاء ليلة جامحة .. لا ادري .. وتذكرت الزملاء وابراهيم كيف سيدخلون هذا البيت وسمعت جانيت تقول لي :

- هيا ادخل .. ان زوجي في انتظارك ..

وابتسمت ثم قلت لها ..

- انني متشوق لمعرفته ..

ودخلت ، فاذا بي امام احد اليهود . تقدم وهز يدي بحرارة وعيناه ينطلق منهما بريق لم ادر كنه معناه.

وشعرت بحركة داخل غرفة مجاورة ، فوجدتني اطلب من جانيت ان تدلني على دورة المياه .. فاشارت نحوها . ثم نظرت الى اليهودي وكأنما خطر على بالها انني سأحاول الهرب .. وكان ما خطر لي هو ان افتح النافذة المطلة على الحديقة لتكون السبيل الوحيد الذي يهيأ لزملائي دخول هذا الوكر ..

وقبل ان يصل اليهودي الى الباب كانت جانيت تناديه فلقد رأتني خارجا وانا اتصنع العبث بحزامي ..

جلسنا ثلاثتنا دون ان ينطق احدنا بكلمة ثم قال لي الرجل اليهودي :

- اتحبها ؟..

ونظرت الى جانيت .. كانت رائعة ووجدتني اقول ..

- اجل احبها ..

وعاد ينظر الي ويقول ..

- لست اقصد جانيت .. وانما اقصد فلسطين ..

وعرفت ان المناورات قد ابتدأت. وكنت اعلم انهم اذا قتلوني بسرعة فاننا سنخسر كل شيء، ولذا كنت احاول كسب الوقت حتى اهيىء للزملاء فرصة الوصول .. بعد نصف ساعة . ولم ادر لماذا اجبته على سؤاله بقولي :

- اجل احبها هي الاخرى .. وانت تحبها اليس كذلك ؟..

فقال لي وهو يخرج من جيبه علبة سجائره ويمد يده الى بسيجارة .. ثم يقول :

- انت تعرف اني عربي مثلك ..

وضحكت ، لا ادري لماذا .. وانطلق لساني يتمتم بكلمات غريبة لم افقه لها أي معنى . ولم ادر الدافع الذي جعلني اتمتم بها ... ونظرت الى جانيت التي بدا عليها شيء من الاضطراب، فأيقنت ان الساعة قد اقتربت وان علي ان اودع نفسي . ونظرت الى عين اليهودي الذي قال لي منذ لحظة انه عربي مثلي .. وتمالكت اعصابي وقلت له ..

- انت عربي .. اجل اعرف ذلك .. لقد اخبرتني جانيت بذلك .

وضحك الرجل ضحكة خيل الي انها لم تنطلق عن سجية بل كانت مصطنعة . وفتح باب الغرفة المجاورة ورأيت اثنين يتقدمان نحوي .. نظرت الى جانيت التي كانت جامدة في مقعدها .. واتجهت ببصري الى الرجل الاول، فرأيت الشر يتقاذف من عينيه، وحاولت ان اقف، فانقض الرجلان .. واعاداني الى مقعدي ...

قال الرجل الاول ..

- انت تظنني عربياً ؟..

ثم اتجه الى جانيت التي كانت لا تزال واجمة واستطرد :

- هل أخبرته بحقيقتي يا جانيت ؟..

تركت جانيت وجومها واخذت تبتسم ابتسامة الشقي وقالت :

-الا تخبره انت ايها الزعيم ..

ونظرت اليها وقلت :

- الزعيم .. هل كنت تخدعينني يا جانيت ؟..

فقالت لي :

- وهل تظنني كنت احبك ؟.. انني اقوم بواجبي المقدس في سبيل امتي .. لو كان باستطاعتي ان اشرب من دمائكم لما قصرت ..

وشعرت باقتراب نهايتي ونظرت الى ساعتي خلسة ، فوجدت ان دقائق باقية على وصول الزملاء .. وقلت للزعيم :

- اهذه هي الطريقة التي تظنون انكم بها ستكسبون حربا وستكونون دولة .. تتركون نساءكم تسعى لاصطياد الرجال وبالغدر تقتلون اعداءكم ...

وضحك الزعيم وهو يقول :

- المهم ان لا نبقي منكم احدا .. ان الغاية تبرر الوسيلة اليس كذلك ؟..

ونظرت خلسة الى ساعتي مرة اخرى وقلت :

- انكم ستقتلوني .. اليس كذلك ؟ ماذا تنتظرون ؟!..

ورأيت الزعيم ينظر الى احد الرجلين ، ثم غمز له بعينه فاخرج هذا سكينا أثار في نفسي الاشمئزاز .. الا يقتلوني الا بالسكين .. ذبحا .. هل عدموا كل السبل ؟.. لماذا لا يطلقون علي النار ؟.. وسمعت جانيت تقول للزعيم :

- هل ستقتلونه بدون محاكمة .. انه رجل ذو مركز في الثورة . قد تستفيدون من معلوماته ..

ولم ادر لماذا حاولت ان اشكرها لانها عملت على الابقاء على حياتي لمجرد لحظات .. لحظات يصل فيها زملائي الى البيت ..

وقف الجميع ، وتذكرت ان في جيبي مسدسا يمكن ان يحميني بل واكثر .. يمكنني ان اكون سيد الموقف .. تحسست جيبي فلم اجد للمسدس اثرا .. وبانت على وجهي الدهشة فاذا بجانيت تقول لي ..

- لا تخف عليه .. انه معي ..

واخرجت يدها التي كانت طوال الوقت داخل جيبها تتجه الى صدري .. كان مسدسي معها .. كيف وصل اليها ، لا ادري .. تذكرت انها احتضنتني وقبلتني عندما دخلت . لابد وانها استغلت تلك الفرصة وسلبت سلاحي .

وارتفع صوت الزعيم يقول فتحت الجلسة ..

وارتفع صوت صديقي عصام في نفس الوقت وهو يصيح ..

- لا تتحركوا ..

ونظرت الي جانيت التي كانت قد فتحت عينها على وجه صديقي ناسية ان المسدس لا يزال في يدها . وقبل ان تثوب الى رشدها كنت قد نزعت المسدس من يدها ..

ودخل ابراهيم يتبعه اثنان من زملائنا .. وصعقت جانيت وهي ترى زوجها . وعلت وجهها صفرة الموت من

شدة الخوف ، بينما كانت نظرات ابراهيم الغاضبة تكاد ان تقتلها.

وكنت أخشى ان يفاجأنا بعض افراد العصابة فنخسر كل شيء. ولذا رأيت ان نستريح من الجميع بسرعة. وكان ابراهيم يصر ان تستمر المحاكمة .. على ان تكون المتهمة هي زوجته ولكني رأيت ان اصدر الحكم فورا .. وبدون محاكمة ..

واصبح ابراهيم منا .. احد الابطال الذي طالما اقلق مضاجع اليهود في حيفا .. وقبل ايام .. قال لي انه يعرف طريقا تمر منه قوافل اليهود كل يوم ، وهو قريب من بلدتهم سلمة وانه باستطاعتنا انا وهو ان نعطل سير هذه القوافل. وفكرت لحظة ثم تركت نفسي اتبعه. واتينا البارحة الى هنا .. كنت استمع الى الآهات تعلو من صدره وهو ينظر ناحية المنزل .. ولكن ادركت السبب .. ولا ادري لماذا لم يبادر بالاتصال باهله هنا ؟.. كما انه لم يخبرني بأن له اهل .. قال لي انه مقطوع من شجرة وان له في سلمة اصدقاء ولكنه لا يود ان يتصل بهم ..

وكان ان وضعنا الالغام واستحكمنا في انتظار اول قافلة تمر ..

في منتصف الليلة الماضية اقبل الصيد ووقعت الكارثة عليهم .. وعلينا .. ان فقدان ابراهيم شيء عظيم لا اكاد احتمله .. لقد لمست في قلبه شجاعة لم اعهدها في غيره من الزملاء...

وكانه كان يريد ان يعوض الايام التي فاتت من عمره وهو الى جوار زوجته المخادعة .. كانما يريد ان ينتقم.

ما ان وصل فؤاد في حديثه الى هذا الحد حتى بدا عليه الغضب الشديد والانفعال وهو يتذكر صورة صديقه المضرجة بالدماء .. ودخل عليهما سالم وهو في حالة ذهول .. ولما رأى فؤاد صاح في وجهه :

- انت لا تزال هنا .. اغرب عن وجهي .. انت قتلت ولدي ..

وكاد الغيظ ان ينفجر في صدر الدكتور حسين الذي قال :

- عمي .. الا تكف عن جنونك ؟.. لو انك استمعت الى قصة ابنك منذ ان غادرنا لما وسعك الا ان تقبل رأس هذا الرجل ..

وصاح سالم :

- اقبل رأسه .. اقبل رأسه لانه قتل ولدي ..

وبدأ الدكتور ساهما كأنما يفكر في شيء. ثم تذكر الصدمة التي ما كان عمه يتوقعها وكأنما اراد ان يعذره فيما يقوله ..

وقال الدكتور :

- ان استشهاد ابراهيم لمفخرة لنا جميعا ، ولولا هذا الرجل لمات ابنك خائنا لوطنه ميتة الكلاب .. بين احضان زوجته اليهودية .. الا تشكره على نقل ابنك من النار الى الجنة ؟..

وتذكر سالم ابنه كيف غادرهم منذ ان اعلنت خطوبة منى .. وكيف اخبره ابو خالد انه يعمل في الميناء. وتخيله وهو يلقي بنفسه بين احضان اليهودية تلك المرأة التي لم يسمع قصتها بعد. واخذ الدكتور يسرد عليه الحكاية من اولها .. وما ان وصل الى النهاية حتى القى سالم بنفسه يعانق فؤاد كانما وجد فيه صورة حية لابنه الراحل .. واخذ يتمتم :

- اغفر لي يا بني .. اغفر لي .. لقد كانت الصدمة عنيفة لم اتحملها فأخذت اهذي ..

ورد عليه فؤاد :

- لا يهمك .. نرجو ان يعوضك الله خيرا ..

(16)

في الوقت الذي كان فيه اهالي سلمة يشيعون جثمان الشهيد الى مثواه الاخير كان اليهود يعدون العدة للانتقام .. ولم يفت ذلك على فؤاد الذي خبر اعدائه وعلم مكرهم .. واتجه الى الدكتور وقال له ..

- ان لي رأيا اود ان ابديه ..

- تفضل .. قل ما تشاء ..

- ان اليهود لن يبتلعوا تلك الضربة بسهولة .. بل انهم سيحاولون الانتقام .. ولذا فأنني انصحكم جميعا بترك البيت المنعزل والاقامة داخل القرية .

ونظر اليه الدكتور واخذ يفكر قليلا ثم قال :

- انني اوافقك على هذا الرأي .. ولكن والدي لن يوافق.

فقال فؤاد :

- ولماذا لا تحاول اقناعه .. اذا اصر على الاقامة فليبق معنا .. اما النساء والاطفال فيجب ان يرحلوا .. سابقى انا .. وسيبقى معي من يشاء لكي نستطيع حماية البيت . ولكن وجود نساء واطفال سيجعلنا في مركز حرج .

ووافق الشيخ على ان تترك النساء المنزل بينما اصر ان يبقى هو هناك حيث سيدافع عن ارضه حتى النهاية ..

وكان فؤاد يقبع الى جانب الدكتور وعمه سالم في احدى الاستحكامات التي اقامها .. بينما كان الشيخ عبد المجيد وولده سامي ومسعود يحرسان منطقة اخرى .

* * *

ذهلت منى للاحداث التي توالت بسرعة .. فحبيبها سافر ولا تعرف عنه شيئا وابن عمها الذي كان يعبدها فيما مضى ويقوم بدور الخادم الخاص قد مات .. وبسببها غادر المزرعة ولابد انه اراد ان يموت قريبا منها ليشعرها انه لا يزال يحبها .. وخطيبها ووالدها واخيها وعمها هناك تحت الاشجار يستعدون للدفاع عنها . ونظرت الى اختها حنان التي لم تكن تدري ما يحيط بها من امور .. كانت لا تفكر الا بيوسف .. مات ابراهيم او لم يمت .. ذهب سامي او لم يذهب .. لا يهمها .. ان يوسف بعيدا عنها ويجب ان يعود اليها .. وتقدمت ام خالد من ضيفتيها وقالت :

- منى .. حنان .. هل انتما مرتاحتان ؟..

واجابت منى :

- كيف نرتاح يا ام خالد ونحن هنا هاربين من بيتنا .. تاركين رجالنا للموت ؟..

وشعرت ام خالد بالاسى الذي يسيطر على هذه الفتاة فقالت لها :

- لا تخشي شيئا يا عزيزتي .. انهم في امان .. لقد ذهب ابو خالد .. وخالد .. وكثيرون من شباب القرية للوقوف الى جانبهم .. ان مزرعتكم ملأى بالرجال المسلحين ولن يستطيع الاعداء ان يفعلوا شيئا .. هيا بنا ان والدتك في الانتظار يجب ان تتناولي العشاء قبل ان تنامي. ثم اتجهت ام خالد الى حنان التي كانت في واد آخر وقالت لها :

- وانت يا حنان .. هيا يا ابنتي هيا الى الطعام ..

وتحاملت حنان على نفسها وتبعت اختها وام خالد دون ان تقول كلمة .

وعلى المائدة جلست ام خالد وضيوفها يتناولون الطعام ، ولم يكن باستطاعة احدهم ان يتكلم . وقبل ان يفترق الجميع الى النوم اخذت زوجة الشيخ تحتضن ابنتيها وتقبلهما ثم تركتهما لتكون الى جوار ام ابراهيم ...

اخذ فؤاد يوزع الرجال الذين اخذوا يتوافدون الى المزرعة بطريقة عسكرية اذهلت الجميع .. كان عليهم ان يتركوا اعدائهم يتقدمون ولا يبدأ احدهم باطلاق النار قبل فؤاد الذي سيحدد ساعة الصفر ..

واقبل اليهود .. لم يكونوا كثيرين .. حيث انهم ما توقعوا ان الا هالي من الفطنة بحيث ان ينصبوا لهم كمينا .. وانطلقت النيران تفجر السكون وعلا الصراخ وقتل من اليهود من قتل وفر الباقون وكل همهم النجاة .

استيقظت القرية جميعها على اصوات الرصاص .. وانطلقت صرخات النساء خشية ان يكون رجالهن قد اصيبوا بسوء ، بينما علا الوجوم وجه منى التي اخذت تتخيل الصورة التي يمكن ان تحدث .. وتستمع الى صوت رصاصة مكتومة فلا تدري هل استقرت هذه في صدر عدو او في صدر ابيها .. اخيها .. عمها .. خطيبها .. ووجدت نفسها تقف فجأة وتهرع جارية الى حيث مزرعتهم .. وصرخت امها تريد ان تستوقفها ولكن اصوات الرصاص حالت دون وصول الصوت الى اذنها .. واخذت حنان تبكي .

وصلت منى في اللحظة التي كانت فيها المعركة قد انتهت .. اخذت تجر ساقيها بحذر حتى تتبين الامر .. لقد توقف صوت الرصاص وانقطع الصراخ ولكن من الذي يسيطر على الموقف . واخذت تنتقل من شجرة الى اخرى تارة تقف وتارة تجري . واستمعت الى اصوات تتردد في الظلام فاخذت تصيح :

- بابا .. حسين .. سامي .. بابا .. بابا .

وسمع سامي نداء منى فانتفض يجري باتجاه الصوت وهو يصيح :

- منى .. منى ..

وسمع صوتها ينادي :

- سامي .. سامي .

- منى .. اين انت ؟..

- انا هنا ..

ووجدها قد اتكأت على جذع شجرة .. وكان التعب قد بلغ منها مبلغا لم تعد تستطيع معه الوقوف على قدميها وحملها سامي .. وهو يقول لها :

- لماذا جئت الى هنا .. لماذا ؟..

فقالت منى :

- لا ادري .. لقد خفت ان ابقى هناك ..

واقبل الدكتور واخذ ينظر الى وجه شقيقته ثم قال :

- هيا يا سامي .. عد بها الى البيت واخبر الجميع اننا انتصرنا والحمد لله .

ونظر فؤاد الى الدكتور وقال له :

- من هذه ؟..

- فاجابه الدكتور :

- انها اختي ..

- هل اسمها منى ؟..

- اجل ... هل هناك شيء..

ووجم فؤاد لحظة ثم امتدت يده الى عينيه تمسح دمعة وجدت طريقها الى النور وقال :

- لا شيء..

وعادت صورة ابراهيم وهو مستلق الى جواره مضرحا بدمائه وشفتاه لا تردد الا اسم منى .. ونظر فؤاد ناحية منى فوجدها قد غادرت المكان مع سامي.

(17)

اصر الشيخ ان يعود الجميع الى المنزل ولم يكن باستطاعة احد ان يعارضه . وعادت الحياة تمرح بين جدران البيت الذي تركه ساكنوه منذ اسبوع .. ولقد ارتاح جميع من في المنزل لوجود فؤاد بينهم حتى ان سعاد الصغيرة لم تكن تناديه الا يا عمي ..

ولم يشأ فؤاد ان تطول اقامته ، فقد كان مشوقا الى العمل .. وخطرت له فكرة .. ان سلمة محاطة بالمستعمرات من كل جانب .. لماذا لا يعمل على غزو هذه المستعمرات وزرع الخوف في نفوس الاعداء ؟ وفكر ان باستطاعته ايجاد رجال يساعدونه . ولما عرض الامر على الدكتور قال له :

- في الحقيقة .. انا لست خبيرا بشؤون الحرب .. ولكني واثق من انك ستنجح في مهمتك .

وقال له فؤاد :

- اني أرى ان اعمل في البداية وحيدا .. فانا اتقن العبرية كأي يهودي واستطيع ان اعيش بينهم كأنني فرد من افراد عصابتهم .. دون ان يكتشفوا امري .. والآن لقد قررت الليلة زيارة رامات جاب وسأعود في الصباح ..

فشد الدكتور على يده وهو يقول له :

- ارجو لك النجاح .

واخذت زيارات فؤاد للمستعمرات المجاورة تتكرر وانتشر الرعب في نفوس اليهود واخذوا يتربصون للقضاء على هذا الخطر العنيد .

وذات يوم كان فؤاد جالسا تحت شجرة وفي يده سيجارته تبعث بدخانها الى السماء ثم ينظر اليه وهو يتلاشى اقبلت سعاد نحوه والقت بنفسها الى جواره وهي تقول :

- عمي .. انت هنا .. ماذا تفعل ؟..

لمس بيده انفها ثم اخذ يربت على وجنتيها وهو يقول :

- انني ادخن سيجارتي ..

تقول له بصوتها الرقيق :

- من اين احضرت السجائر ؟.. من بابا ..

- لا يا عزيزتي .. من هناك ..

واشار بيده الى حيث تقبع احدى المستعمرات ولكنها لم تفهم قصده وقالت :

- من هناك .. من أين ؟..

- من اليهود ..

ونظرت اليه كأنما تعاتبه وانطلقت من فمها الكلمات تعبر عن غضبها ..

- من اليهود .. هل تأخذ السجائر من اليهود .. ولا تأخذها من ابي انني ساخاصمك ..

وعاد ينفث دخانه ثم مد يده الى وجهها واخذ يداعبها بينما اخذ الدلال طريقه الى وجنتيها وقال لها فؤاد ..

- لقد كذبت عليك .. ان هذه السجائر من ابيك .. انظري .. انها نفس سجائره .. اليس كذلك ؟..

- ولماذا كذبت علي ؟..

فاجابها ..

- كنت اريد ان اعرف اذا كنت تحبين اليهود ام لا .

فنظرت اليه مندهشة وقالت :

- انا .. انا لا احب اليهود .. لا .. لا ..

- ولماذا لا تحبيهم ؟..

- انهم .. انهم يهود ..

وضحك فؤاد وهو يستمع الى هذه الطفلة البريئة ثم قال :

- سعاد .. انني ساسافر عن قريب .. ماذا تريدين ان احضر لك ؟.. عروسة حلوة

وسكتت سعاد ثم عادت تقول :

- ماذا .. انت ستسافر .. لا تسافر .. ابقى هنا ..

فاجابها فؤاد :

- ولكني لن اتغيب طويلا ساحضر لك الهدية واعود ..

- وهل ستحضر هدية لوحيد اخي؟..

- اجل .. ساحضر له عروسة هو الآخر .. هيا لتعودي الى البيت ..

ووقف فؤاد وترك يده لسعاد التي سارت الى جانبه تنظر امامها تارة واليه تارة اخرى .. وشاهدت امها فقالت :

- عمي .. هذه ماما .. ارجو ان لا تضربني ونظر اليها فؤاد .. ثم جلس القرفصاء امامها وقال لها :

- لماذا تضربك ؟.. هل فعلت شيئا ..

- لقد كسرت لعبة وحيد .

فنهض وهو يبتسم ثم قال :

- لا تخافي .. انها لن تضربك ساحضر له لعبة غيرها ولك ايضا .. لقد وعدتك .

واقبلت فاطمة في اتجاه ابنتها وفؤاد والقت عليه التحية ثم نظرت الى سعاد وقالت :

- سعاد .. هل انت التي كسرت لعبة وحيد ؟..

ونظرت سعاد الى امها ثم القت ببصرها الى وجه فؤاد وعادت تنظر الى امها مستعطفة وقالت :

- اجل يا امي .. سامحيني .. ان عمي سيحضر له غيرها ..

ثم اتجهت الى فؤاد وهي تتمتم ..

- اليس كذلك يا عمي ..

وصمت فؤاد ووجه حديثه الى فاطمة قائلا :

- ام وحيد .. ان سعاد فتاة طيبة .. لقد اخبرتني بانها اغضبتك لانها كسرت اللعبة ارجو ان تسامحيها هذه المرة لاجل خاطري .. وضحكت فاطمة ثم مدت يدها واحتضنت ابنتها بحنان الى صدرها .. بينما اخذ فؤاد ينظر الى روعة الامومة .. وقالت لابنتها :

- هيا يا سعاد .. قولي لعمك تصبح على خير ..

ابتسمت سعاد وهي تطيع امر والدتها ، ورد فؤاد عليها التحية .

(18)

جلست منى تحت شجرة واخذت تحلّق تارة وتهبط الى قرار سحيق تارة اخرى. وبدا عليها الاعياء رغم التورد الذي كان يصرخ في وجنتيها .. ومرت امام عينيها صور واشباح تمثل الماضي الذي اندحر .. كانت تقف عند بعض الصور وقفة تطول بينما تمر عندها صور اخرى دون ان تتبين ملامحها .. وفجأة تهب مذعورة .. وهي تتمتم ..

- ابراهيم .. ابراهيم ..

وتلتفت حواليها فلا تجد احدا .. واعتراها ذهول القت بنفسها على اثره الى الارض وهي تحمد الله .. وعادت صورة ابراهيم تتراقص امام عينيها الدامعتين .. كانت آخر صورة عالقة في مخيلتها لا تفارقه .. الدم الذي كان يغطي وجهه والعبوس الذي اعتراه وهو يصارع الموت .. وحاولت ان تطرد هذه الصورة من خيالها .. ولكن عبثا حاولت .. لقد عاد اليها ابراهيم بنظراته الوالهة وهو يحدق بها والغضب باد على محياه يوم خطبتها من سامي .. واخذت تسأل نفسها لماذا افكر فيه وقد ذهب ؟.. هل كنت احبه .. طبعا .. فهو ابن عمي .. ولكني لم اكن احبه .. لم يكن حبي له يشابه حبي ليوسف .. واستراحت منى قليلا وعاود وجهها الابتسام وصورة يوسف ترتسم امام عينيها . ولكن هذه الصورة ما لبثت ان تلاشت وعاد ابراهيم .. والقت منى كفيها على وجهها وتركت لدموعها العنان .. وعلا نحيبها وهي لا تدري لماذا وعلى من تبكي ..

ووجدت نفسها تقف مذعورة وهي تستمع الى اسمها الذي انطلق من بين شفاه فؤاد .. واخذت تحدق في هذا الرجل الذي يقف امامها وحاولت ان تخفي ارتباكها وتمسح دموعها وهي تردد :

- استاذ فؤاد .. استاذ فؤاد ..

اخذ فؤاد يتفحص وجهها وهو يقول:

- آنسة منى .. لماذا تبكين ؟..

وطأطأت منى رأسها كانما كانت تخشى ان يرى عينيها فرفعت رأسها وهي تسمعه يقول:

- انني آسف لتدخلي فيما لا يعنيني .. ارجو المغفرة ..

وادار ظهره فاذا بها تقول له :

- استاذ فؤاد ..

والتفت فاذا به يراها تحدق فيه ..

ثم استطردت قائلة :

- لا تذهب ارجوك ..اريد ان اسألك سؤالا .

واتجه فؤاد ناحيتها ثم امسك بيده غصنا وادناه من انفه .. وهز رأسه ينبئها عن استعداده لسماع ما تريد ان تقوله ..

- متى تعرفت على ابراهيم ؟..

- منذ خمسة اشهر.

- هل كان حقا متزوجا من يهودية ؟..

وبدا على منى ان السؤال خرج رغم ارادتها فاجابها فؤاد ..

- لا بد انك قد استمعت الى القصة كاملة .. لقد عرفها كل من في البيت . اما الشيء الوحيد الذي لم يعرفوه عن ابراهيم فهو ..

وسكت فؤاد بينما حدقت منى وكأنما تستحثه ان يتم كلامه ..

وعاد فؤاد الى حديثه فقال :

- لقد كانت آخر كلمات قالها ابراهيم هي .. منى .. منى .

وطأطأت منى رأسها واخذت الدموع تنهار من عينيها وكادت ان تلقي بنفسها في حضن فؤاد لولا انها شعرت بخطورة الموقف ..

واخذ العرق يتصبب من وجه فؤاد بينما اخذ يسأل نفسه .. لماذا اخبرها ؟.. لماذا قال لها هذا الكلام .. ولم يشاهدها وهي غارقة في احزانها ؟.. وبدل ان يكفكف دموعها فجر بؤسها .. ها هو يسرد عليها ما يزيد لوعتها ويعكر صفو حياتها .. ولكنه تذكر صديقه .. تذكر شفتيه وهما ترددان اسم منى .. وشعر ان ما اقدم عليه هو واجب بل امانة في عنقه .. لقد كان هو الوحيد الذي استمع الى ابراهيم وهو يردد تلك الكلمات .. هو الوحيد الذي يستطيع نقل الرسالة الى اصحابها .. ونظر الى منى .. كانت لا تزال تبكي ووجد انه ليس في حل من ان يطلب منها ان تكف عن البكاء .. انها ارادة ابراهيم.

وترك فؤاد منى وحيدة واتجه ناحية البيت فقابله الدكتور حسين وقال :

- فؤاد .. اهذا انت .. لقد اوشك الامر ان ينتهي ..

- أي امر ؟..

- الاضراب .. لقد تدخل وزير خارجية العراق وبدات مفاوضات مع الانجليز في سبيل انهاء الاضراب .

وقال فؤاد مستغربا :

- انهاء الاضراب .. على اية شروط ؟..

- لا غرامات .. ولا تفتيش والعفو العام على عن جميع المعتقلين والمتهمين باحداث الثورة ..

- والوطن .. البلاد .. ماذا سيحدث لها .. هل ستبقى الارض فريسة لاموال اليهود وتبقى الاسلحة من حقهم والعرب لا يملكون ان يحملوا السلاح .. من الذي طلب من الوزير ان يتدخل ؟..

- انني اتوقع خيرا من تدخله .. ولا تنس ان جميع ملوك العرب مصممون على اعادة الحقوق كاملة الينا ..

- اتصدق ذلك ؟.. ان الانجليز امكر من ذلك بكثير .. وما هو موقف اللجنة العربية العليا ؟..

- انت تدرك الحالة التي وصلت اليها البلاد لقد ارهقت الناس جميعا واظن ان اللجنة لن تجد بداً من الموافقة على انهاء الاضراب ..

وهز فؤاد رأسه .. كان يتمنى ان تسود البلاد الطمأنينة والهدوء ..

وصعد الاثنان السلم بينما اقبلت سعاد وهي تحتضن عروستها الكبيرة التي احضرها لها فؤاد واخذت تقبلها وهي تقول لابيها ..

- عمي .. حبيبي .. اعطاني عروسة ..

وضحك فؤاد والدكتور ومد الاخير يديه ورفع ابنته الى صدره ... بينما اخذت سعاد تقرب وجه عروستها من وجه ابيها وهي تقول له :

- قبلها يا ابي ..

* * *

اذيع بعد ايام نداء من اللجنة العربية العليا تدعو الاهالي للاخلاد الى السكينة وانهاء الاضراب والاضطرابات مع شكرهم على الصبر الطويل والجهاد المرير في سبيل حرية الوطن ..

ولبى الشعب العربي في فلسطين نداء زعامته واخذوا ينتظرون ما ستقرره حكومة الانتداب بشأن حريتهم واستقلالهم..

ترك فؤاد المزرعة رغم الحاح اصحابها على بقائه معهم . وشعرت منى بفراغ هائل محيط بها اصبحت ترى ان حياتها خاوية وبدون معنى .. تغيرت نظراتها الى خطيبها .. لقد كانت سخيفة في بعض اللحظات وتحترمه وتعجب به في لحظات اخرى .. انها الآن تائهة تشعر بأنه عبء ثقيل عليها لا تستطيع احتماله .. لقد فتحت عينيها على حب ابن عمها ابراهيم .. وان كان هذا الحب لم يكتب له الحياة بسبب شخصية ابراهيم .. وظهر يوسف وتعلقت به واحبته ولكنه ردها خائبة بل حطم فؤادها عندما تركها من اجل اختها الصغرى .. اما فؤاد فهي لا تدري كنه العاطفة التي تشعرها نحوه .. ان كل ما يربطها بذكراه تلك اللحظات التي كانت توجه فيها التحية اليه او تتلقى منه تحيته .. وعلى المائدة في كثير من الاحيان كانت عيونهما تلتقي، ولكنها لم تكن تدري لماذا كان يخجل من ان يحدق في وجهها .. كانت عيناه تذبل عندما تتقابل مع عينيها، وتذكرت ساعة وجدها تبكي .. لماذا ؟.. اماذا انصرف ؟.. هل خاف ان يندفع ويقول لها شيئا ؟.. ولكنه يعلم انها مخطوبة .. وما معنى مخطوبة .. لقد فرضت عليها الظروف ان ترتبط بسامي رغم انها لا تحبه .. ويوسف .. اين يوسف .. لقد ذهب وذهبت اخباره ..

واخذت الدوامة تدور في رأس منى ، كل شيء بدا لها كأنه قطعة من سواد . ولكن لماذا تركهم فؤاد ؟.. وايضا ما الذي يحمله على البقاء؟ لقد سافر لان الاضراب انتهى وسيبحث عن حياته ووسيلة معيشته ..

ولاحظ جميع من في المزرعة التغير الذي طرأ على منى .. اصبحت لا تطيق احدا .. وبدأت الهوة تتسع بينها وبين سامي .. وخاف هذا ان تضيع منه منى فقرر الزواج فورا ...

واتجه الى عمه الشيخ شلبي وقال له:

- عمي .. لقد هدأت الاحوال .. وأرى ان اسارع بالاقتران من منى .. ماذا ترى ؟..

كان الشيخ شلبي يتمنى ان يتم هذا الزواج بسرعة بعد ان لاحظ على ابنته من تغير ، فقال لسامي :

- اجل يا بني .. لديك الحق .. لقد صبرتم طويلا ..

ثم اخذ ينادي على مسعود ولما اقبل هذا طلب منه ان يرسل اليه منى ..

اقبلت منى .. ووجدت والدها وسامي وفهمت ما يرمي اليه والدها بدعوته لها .. وقالت :

- خيرا يا والدي ..

- لقد آن الاوان يا بنيتي لتنتقلي الى بيتك الجديد .. ما عليك الا ان تحددي موعد الزفاف .

كان الشيخ يبتسم وكانه ينقل اليها بشرى .. ولما رأى الوجوم الذي علا وجهها والنفور الذي بدا عليها وهي تنظر الى سامي استطرد الشيخ يقول:

- ما بالك يا منى .. لقد تغيرت كثيرا ..

وردت عليه في تردد ..

- انها الحرب يا ابي .. لقد عشنا مدة طويلة تآكلت خلالها اعصابنا ..

- اما آن لك ان تستريحي .. الزواج سيهدئ لك اعصابك ..

- لا يا ابي .. ليس هذا وقت زواج .. كما ان الحرب لم تنته بعد ..

- لقد انتهى كل شيء ..

ثم اتجه الشيخ الى سامي وقال له :

قل لها يا سامي .. الم تنته الثورة والاضراب .. وستكون حكومة عربية فلسطينية ..

وقال سامي :

- منى .. يا عزيزتي .. لماذا تحرمين نفسك وتحرميني من السعادة والهدوء ... انني سأفعل المستحيل في سبيل اسعادك ..

واخذت منى تنقل بصرها بين والدها وخطيبها وخشيت ان توافقهم على ما ارادوا ولا تستطيع بعد ذلك الرجوع عن كلمتها ورأت ان تقول :

- ابي .. سامي . انني ارى ان لا اجرح شعور شقيقتي حنان .. لقد خطبنا معا .. ويجب ان نتزوج معا .. لننتظر حتى يعود يوسف ..

وتبادل سامي والشيخ النظر حيث هل اصابت منى فيما تقوله .. ولكن هل سيؤثر الزواج على حنان ؟.. ووجد الشيخ نفسه يقول ..

- يا لك من فتاة طيبة يا منى .. انك انبل انسانة على وجه الارض .. وان حنان تستحق منك كل هذا الاخلاص فهي في مثل نبلك واخلاصك ..

ووجه الشيخ حديثه الى سامي قائلا ..

وانت يا سامي .. ما عليك الا ان تنتظر قليلا حتى يعود يوسف .. انني ارى ان منى على حق .. فحنان رقيقة ومرهفة الحس وهي فوق ذلك متيمة بحب خطيبها وقلقة على قلة اخباره ..

ووقف سامي وهو لا يكاد يصدق ان هذا هو السبب الذي يجعل منى ترفض الزواج وقال لعمه ..

- لا بأس يا عم .. لن انتظر طويلا حتى يأتي يوسف .. سأذهب لاحضاره بنفسي ..

وشاهد سامي التغير الذي طرأ على وجه منى وهي تستمع الى كلماته .. فاستطرد يقول :

- الا اذا كانت منى لا تريد ذلك ..

فقال له الشيخ وهو يقف ويحتضن ابنته ..

- كيف لا تريد .. ان الفرحة ستكون عارمة مع فرحة الانتصار وحرية الوطن ..

(19)

سافر سامي الى بيروت لاحضار شقيقه يوسف بينما اخذت منى تفكر في الوسيلة التي تستطيع بها ان تتخلص منه .. لقد بدا لها سامي كانسان يحاول ان يختطف سعادتها .. لم تعد ترى فيه أي شيء يغريها على قبوله لحظة . واخذت تسأل نفسها .. ماذا عساها ان تفعل؟.. اتهرب من البيت ولكنها لا تود جلب الفضيحة لاهلها .. اتصارحهم بعدم حبها له .. ولكن من الذي ارغمها على قبوله في بداية الامر ؟.. لقد تمنعت ثم عادت ووافقت ولو اصرت على موقفها لما وصلت بها الامور الى هذا الحد .. ماذا تفعل ؟.. اتقول لسامي انها لم تعد تحبه .. لا تريده زوجا لها .. ليبحث له عن أي فتاة اخرى .. ووجدت منى نفسها تقف عند هذه الفكرة .. ولكن لماذا تركته يذهب الى بيروت ؟.. لماذا لم تخبره قبل ان يسافر ؟.. واخذت تعض على شفتيها بحقد وغيظ وتراءت لها صورة سامي وهو يقترب منها ثم يمد اليها يده بل الاثنتين .. انه يريد احتضانها وتقبيلها .. صرخت .. انها لا تريده .. لا تريده .. واخذت تتمنى ان يحدث شيء أي شيء من شأنه ان يمنع هذا الزواج .. لا بأس ان يموت سامي .. ان تندلع الحرب لا يهمها المهم الا تقترن به ..

وعاد سامي من بيروت ومعه شقيقه يوسف .. ولم تر منى في يوسف ذلك البريق الذي كان يجذبها اليه فيما مضى .. لقد اصبح في نظرها انسانا عاديا .. تماما كاخيها .. شعرت ان نهايتها قد دنت .. انها لن تسلم نفسها بسهولة لمن لا تحب .. واحتارت في امرها .. انها لا تعرف بماذا تصف نفسها وذاتها ؟.. اهي مجرمة .. خائنة .. لعوب .. انها لا تدري فالصفات كلها كانت تتقبلها .. ليقال عنها ما يقال .. ولكنها لن تستسلم لسامي ..

وتحدد موعد الزفاف .. واصبحت الفرحة المتلألأة في عيني حنان وابتسامتها مبعث الغيظ في قلب منى .. لقد بدأت تكره اختها .. تكره البيت .. تكره كل شيء ..

واصبح الجميع ينظرون اليها ويعاملونها بتلطف وحذر . واخذ سامي يفكر في الذي في كل هذا التغيير بينما اخذت والدتها تستعجل الامور داعية الله ان يتمم كل شيء على خير ..

واقبلت ليلة الزفاف .. ولبست منى الطرحة وتركت الغضب يسيطر على وجهها .. لم يكن احد يدرك ما يجول في خاطرها .. قالت احدى النساء انها الفرحة .. وقالت غيرها .. انه الخوف .. ولكن لماذا تخاف .. وصرحت اخرى بانها كانت خائفة في تلك الليلة ، ولكن ما ان اغلق الباب واختلت بزوجها حتى تبدد الخوف . وانتظر الجميع ان تعود اليها طبيعتها في يوم الصباحية ..

دخل سامي واغلق خلفه باب الغرفة .. وافزعه ان يرى منى باكية .. فاخذ يلاطفها قائلا ..

- منى .. حبيبتي لا تبكي .. انني الى جوارك ..

وحاول ان ينتزع منها كلمة فلم ينجح .. وحاول ان يقترب منها ..يضمها اليه فوجد نفسه امام انسانة لم يعرفها من قبل، هبت كالنمرة المذعورة تدافع عن نفسها .. والقى بنفسه ليستريح بينما عادت هي الى البكاء ..

ولم يشأ ان تستمر ليلة العمر التي طالما حلم بها على هذا الشكل المؤسف .. اقترب من منى وعاد يقول ..

- منى .. قولي أي شيء .. لماذا تبكين ..

ونظرت اليه .. وشعر كانه يكاد ان يذوب ، لقد صبت في نظرتها كل معاني الرجاء .. واستمع الى صوتها الباكي يقول له ..

- لماذا .. لماذا كنت مصرا على الزواج ؟..

فرد عليها فرحا لانها تكلمت وغاضباً لسؤالها .

- وماذا كنت تريدينني ان افعل ؟.. كنت انتظر هذا اليوم الذي ساولد فيه من جديد ..

فقالت له :

- ولكنك يجب .. يجب ان تطلقني .. انا لا استحق منك كل هذا الحب ..

وثغر سامي فاه .. وارتخت اعصابه واخذ يهمس :

- ماذا ..

وشعرت منى انها قد تنجو من ورطتها اذا استطاعت ان تستمر في تمثيل دورها فقالت:

- اجل يا سامي .. انا لا استحق منك اية رحمة .. لقد .. لقد ..

واجهشت بالبكاء .. بينما امتدت يده تعبث في شعرها وكانما نسي ما قالته .. ثم قال لها وهو يحدق في وجهها :

- لقد ماذا .. ماذا تودين ان تقولي ..

ووجدت نفسها تعجز ان تبوح له بشيء .. ولكنها آثرت ان تلق بكلماتها على شكل آخر فقالت :

- انني لست منى التي عرفتها .. والتي خطبتها منذ سنة .. لقد تغيرت .. الا تفهم .. لقد تغيرت ..

وفهم ما ترمي اليه منى .. وكان لفهمه صدمة الزمته الصمت ، بينما كان بكائها يخدش السكون السائد ..

والتفت اليها سامي وقال ودون ان يقترب منها :

- من الرجل ؟..

ولم تجبه بغير ارتفاع النحيب ..واستشاط غضبا فتقدم منها واخذ يهزها بعنف ..

- من الرجل ؟.. قولي ..

ورأت منى الشرر يتطاير من عينيه .. بينما ارتفعت في تلك اللحظة اصوات الزغاريد تشهد العالم على صيانة حنان لشرفها ..

ووقف سامي فجأة واخذ يبحث عن سجائره .. اشعل سيجارة .. واتبعها باخرى ومنى لا تزال واجمة، لقد نسيت انها تمثل على سامي .. نسيت انها تكذب عليه .. خيل لها انها تعيش في حياتها .. حياتها الحقيقية .

وخرج سامي من تفكيره المشوش بامر لابد منه . انه لا يستطيع ان يثير فضيحة .. ان ذلك سيعقد الامور ، ليس بالنسبة له ولمنى ولكن بالنسبة للعائلتين . وكذلك اخيه وحنان .. وقرر ان يكظم غيظه . ولكنه تذكر ان خارج المنزل اناس ينتظرون علامة الشرف . انهم لا يصدقون الا الدم .. ماذا يفعل ؟.. واخذ ينظر الى يديه ويرفع قميصه عن ساعده يحاول ان يختار الموضع الذي سيتركه جريحا .. واخذ يبحث في اطراف الغرفة .. ثم فتح احد ادراجه واخرج موس حلاقة وعاد يشمر عن ساعده بينما كانت منى تنظر اليه

واجمة .. ولما هم بجرح نفسه اقتربت منه .. فصاحت به ..

- لا .. لا تفعل ..

ونظر اليها ثم اخذ يشد طرف قميص نومها لتتساقط عليه قطرات الدم ..

وعادت منى تصيح ..

- سامي .. سامي .. لا تفعل لا تجرح نفسك

وصاح بها ..

- اخفضي صوتك ايها المجنونة .. ماذا تريديني ان افعل ؟.. وقفزت منى من مكانها واخذت تعبث بمحتوياتها ثم اتجهت نحوه وفي يدها زجاجة صغيرة ناولته اياها في خجل وهي تطأطئ راسها ..

واخذ سامي يحدق في الزجاجة ثم نقل بصره الى منى التي كانت لا تزال مطأطأة الرأس وقال لها :

- كنت واثقة من انني لن اثير فضيحة..

ورفعت منى رأسها والتقت عيناه الغاضبتان بعينيها الدامعتين ثم تركت نفسها تسقط على الارض .. وعاد صوت بكائها يزعجه فصاح بها ..

- هيا استبدلي ملابسك .. انهم سيدخلون عليك بعد قليل .. لا تظهري لهم شيئا ..

ثم سكب محتويات الزجاجة على قميص نومها والقى بالزجاجة الغامضة في احدى الادراج.

نظرت اليه منى .. والى قميص نومها بين يديه .. ثم اخذت تبتسم في رضا .. لقد وصلت الى ما تبتغيه .. لقد خدعته وليس عليها الآن الا ان تستمر في تمثيلها ورأته يقترب منها ويقول ..

- اريد ان اعرف الآن .. من الرجل الذي سبقني اليك ؟..

واظلمت الغرفة في عينيها .. كانت ترجو ان لا يوجه اليها هذا السؤال .. ان سامي ليس قريبها حتى يحمل عارها .. واخذت تبحث عن رجل تلصق به التهمة وتلاشت امام عينيها جميع صور الرجال وفجأة قالت :

- فؤاد ..

ودهش سامي .. لم يكن يتوقع ان يسمع هذا الاسم ابدا وعاد يهمس ..

- فؤاد .. لا يمكن ..

ولكنها اصرت على عدم تغيير الاسم بينما وقف سامي واخذ يحدق في وجهها من جديد ثم سألها ..

- ومتى كان ذلك ؟..

- قبل ان يغادرنا بيوم واحد ..

(20)

دخلت النسوة غرفة منى وارتفعت الزغاريد .. واقبلت حنان واخذت تقبل اختها وتبارك لها بينما كان سامي يشد على يد اخيه يوسف ويرجو له تمام السعادة ..

استطاع سامي ان يضبط اعصابه رغم الشرود الذي كان يبدو عليه في بعض الاوقات. واخذ الناس يقبلون على تهنئة العروستين والعريسين وعمت الفرحة جميع القلوب .. ورغم ان ام ابراهيم لم يمر على وفاة ولدها سوى تسعة اشهر ، فقد اضطرت ان تشارك اقاربها افراحهم.

واخذ سامي يفكر .. فؤاد .. انه عرف هذا الانسان في ظروف حالكة .. ليلة ما كان اليهود يعدون العدة للهجوم على المزرعة والقرية .. ولقد لمس فيه تضحية ونبلا وشجاعة خارقة وبدا عليه انه لا يستطيع ان يصدق ان مثل هذا الانسان يقدم على عمل دنيء .. ولكنه عاد وتذكر القصة التي رواها عن علاقته باراهيم .. لقد سمح لنفسه ان يتصل بزوجة ابراهيم ..ورضيت هي ان تكون له وان كانت يهودية فهي زوجة لعربي مثله .. وعاد يقنع نفسه ان فؤاد سافل ودنيء .. ائتمن على العرض فخانه ويجب معاقبته .. ولكن اين هو .. هل يترك البيت للسعي وراء العثور عليه .. وماذا بشأن زوجته قد تكون حاملا .. اينسب لنفسه ابن سفاح .. ايطلقها ولم يمض على زواجه ايام ... ولكن من الملوم اهو فؤاد .. ام منى .. هل يستطيع فؤاد ان يجبر منى ان تستسلم له .. لابد انها هي الشيطانة التي اغرته .. لو كان أي انسان مكانه لما استطاع ان يقاوم سحر انوثتها الطاغي .. ولكن اما كان بامكان فؤاد ان يترك البيت قبل ان يرتكب جريمته ؟ قبل ان ينحدر الى مستوى النذالة ؟..

واغلقت في وجه سامي نوافذ الامل .. واصبح لا يؤمن بشيء حتى انه كاد يفقد الثقة بنفسه .. واخذ يلوم نفسه .. لماذا اصر على الزواج وقد لمس التغير الذي طرأ على منى ؟.. والنفور الشديد الذي كانت تبديه ساعة اقترابه منها او محادثته لها ؟.. كان يفكر ان باستطاعته ترويضها في بيت الزوجية وهاهي الايام توجه اليه صدمة لن ينساها ما عاش.

وقرر ان يهجر القرية وعاد يطلب من والده اعادة فتح متجره في يافا .. ما دامت الثورة قد انتهت والحياة عادت الى طبيعتها التي كانت عليه .. واصر سامي ان يقيم مع زوجته في يافا .. ولم يجد والده بدا من موافقته. وفي نفس الوقت قرر يوسف السفر الى بيروت لمتابعة دراسته واخذت حنان تتشبث به راجية ان يأخذها معه .. ولكنه اوضح لها ان تكاليف الحياة هناك باهضة ووعدها بالزيارة في اقرب فرصة تتاح له ..

بدأت الحياة مملة بالنسبة لمنى .. اما سامي فقد بدا عليه انه يهرب من الحياة .. لم يكن يعاملها معاملة جافة .. ولم يكن يقسو عليها .. ولقد خطر لها ان تصارحه بالحقيقة ولكنها تعود وتشكر الله على انها لم تفعل .. ولم يحاول هو الاقتراب منها .. كانت في بيته اشبه بقطعة اثاث وليس بالزوجة ..

وطلبت منه ان يسمح لها بالذهاب الى سلمة ذات يوم لزيارة اهلها فتركها تفعل ما تشاء. وفي المزرعة مكثت مع اهلها عدة ايام لم تفكر خلالها ان هناك من ينتظر عودتها في يافا .. وشك والدها في ان شجارا قد نشب بينها وبين زوجها ، والا لماذا هجرته كل هذه المدة ؟.. واتصل بصديقه عبد المجيد يستفسر عما اذا كان قد حدث بين سامي ومنى سوء تفاهم. واخبره صديقه ان شيئا من هذا لم يحدث. ولكنه يرى ان اقامة منى بين اهلها قد طالت، وان زوجها لابد وان يكون في حاجة اليها . واخذ والدها يقنعها بالعودة الى

زوجها فقالت له :

- هل كرهتموني الى هذا الحد؟.. اتيت لزيارتكم فتطردوني

واجابها والدها ..

- يا بنيتي .. لقد مضى شهر وانت لست في بلد بعيد يمكنك ان تزورينا كل اسبوع عودي الى زوجك فهو في حاجة الى رعايتك .

ونظرت منى الى اختها حنان التي كانت نظراتها تستحث اختها على اطاعة والدها .. وان كان العجب باديا على الصغيرة ، فهي تتمنى ان تجد نفسها فجأة الى جانب يوسف .. فلماذا تهرب منى من زوجها ؟.. ان الدنيا اطباع وخلائق مختلفة ..

وقررت منى السفر الى يافا في اليوم الثاني مع شقيقها الدكتور . وفي مساء ذلك اليوم اعدت زوجة الشيخ عشاء فاخرا لابنتها كانما لتختم به الزيارة .. وجلست حنان الى جوار منى واخذت تداعبها بينما اخذت سعاد الصغيرة تعبث في يد عمتها فتشير لها تارة وتشدها تارة اخرى .. واقبلت فاطمة زوجة الدكتور وجلست الى جوار منى واضعة ابنها على خصرها واخذت تقول لمنى ..

- لقد اسعدتنا زيارتك يا منى ..

فقالت لها منى ..

- حقا .. ولكن ما بالكم تريدونني ان اذهب ..

فقالت فاطمة ..

- يا عزيزتي نحن نرجو لك السعادة .. لقد مرت علي ظروف مشابهة كنت اجد فيها هذا البيت كالشبح الرهيب الذي يود ان يبتلعني .. كنت انظر الى ابنتي كانها عفريتة صغيرة واخوك كان في نظري يمثل الجحيم .. ولكنني اكتشفت انني كنت واهمة .. كنت اعيش في جنة دون ان ادري .. كنت اسيء الى الغير والى نفسي . وكان الملاك يتراءى لي عفريتا والزوج الرحيم جحيما .. وانقشعت الغيمة عن عيني .. اردت ان اعيش في واقع حياتي .. اننا لا نعيش الا مرة واحدة يا منى .. فلماذا لا نستغل كل طاقاتنا لنعيش سعداء .. والسعادة لا نستطيع ان نشتريها ونحن شيوخا انها كالبناء الذي لابد له من اساس .. ولابد ان نبدأ في تكوينه منذ الصغر .. انك تستطيعين يا عزيزتي ان تكوني اسعد انسانة اذا اردت ذلك . غدا ستصبحين اما وسيملأ عليك طفلك البيت و قاطعتها منى قائلة:

- فاطمة .. ارجوك .. لقد اتعبت نفسك .. انني مسافرة في الغد وارجو ان لا تفارقني كلماتك ..

وسمع صوت زوجة الشيخ وهي تنادي ..

- منى .. حنان .. فاطمة .. هيا .. ان العشاء جاهز

وجلس الجميع حول المائدة .. ونظرت فاطمة حولها ثم سألت عمتها .

- اين حسين ؟..

فقالت لها ..

- انه مع الضيف .

- هل تناول عشاؤه ؟..

- سيأكل مع الضيف ايضا ..

وسكتت فاطمة بينما قالت حنان ..

- من هذا الضيف يا امي ؟..

لم تكن امها تدري من هذا الضيف كانت تعلم ان هناك ضيفا ولكنها لم تسأل من يكون .. وانتظرت حنان جوابا فاذا به تشاهده دون ان تسمعه ..

دخل الدكتور حسين الغرفة والى جواره كان فؤاد . وانتفضت منى ساعة ان رأته واحست ان مفاصلها قد تحللت .. واخذت تتأمله.. فؤاد .. اجل انه فؤاد .. الرجل الذي عاش معها في احلامها . الرجل الذي توهمت انها سلمت نفسها له . وسلم فؤاد على الجميع وعلى منى وجلس بينما ظلت منى واقفة وقالت حنان وهي تجذب اختها الى المقعد ..

- منى .. ماذا دهاك .. اجلسي .

والقت منى بنفسها على الكرسي . فاحست كأن كابوسا انزاح عن كاهلها .. ووجدت نفسها تجلس مواجة له مباشرة . واحس فؤاد بنظراتها تود ان تقول له شيئا . واخذ ينظر اليها بين لقمة واخرى . وانتهى الجميع . واتجه فؤاد ناحية المغسلة فتبعته منى وهي تحمل في يدها منشفة كبيرة وهمست وهي تناوله :

- فؤاد .. هنالك شيء يجب ان اقوله لك .

ونظر فؤاد حوله .. كان الجميع لاهين بمداعبة سعاد .

فقال لها ..

- ماذا ؟..

فعادت لتهمس .

- ليس الآن يجب ان اختلي بك ..

فهمس هو الآخر ..

- أين ..

وفكرت قليلا ولكنه التفت على وقع اقدام اخيها وهويتجه ناحيتهم .

فناولت المنشفة الى فؤاد وهي تقول له بصوت لا يكاد يسمع :

- في غرفتك بعد منتصف الليل.

(21)

اخذ فؤاد يفكر ماذا تريد منه منى .. انها ستأتي اليه بعد منتصف الليل يا للمصيبة ماذا يفعل ؟ انه لا يستطيع ان يفعل شيئا .. لو طلبت منه ان يذهب اليها لما فعل .. ولكن ايترك الغرفة التي سينام فيها ؟. واين سيذهب ؟.. وماذا لو ظن اهل البيت ان هذا الرجل الذي ائتمنوه على عرضهم اخذ يعبث بشرفهم ؟. انهم لن يصدقوا انه بريء.. وماذا عساها تريد .. ما هو الامر الهام الذي تود ان تكلمه فيه ؟.. اهي تريد منه ..لا انه لا يصدق ذلك .. ماذا اذن ؟..

واحتار فؤاد في امره وسرح بافكاره وصحا من غفلته على صوت الدكتور وهو يقول له :

- فؤاد .. هيا بنا الى اسفل .. لقد اقبل ابو سامي ليسلم عليك ..

ونزل فؤاد مع الدكتور الى غرفة الضيوف حيث كان الشيخ وابو سامي يتبادلان الحديث ..وتبادل ابو سامي التحية مع فؤاد ورحب به في بلدتهم ودعاه الى الغداء عنده في الغد ..

وسال الدكتور فؤاد عما يعتقد ان الامور ستصل اليه..

فاجاب فؤاد:

- لا اظن ان الحالة تدعو للارتياح ..

وتكلم ابو سامي فقال :

- ولكن لجنة التحقيق التي ارسلتها بريطانيا دائبة على العمل ولقد سمعت ان دولة عربية ستكون في فلسطين وسيعيش اليهود كأقلية في ظل هذه الدولة.

والتفت فؤاد الى الدكتور فقال له :

- ما رأيك فيما قاله العم هل تعتقد ان في نية بريطانيا انصاف العرب؟..

ولما اجابه الدكتور بالنفي استطرد يقول:

- لو كانت بريطانيا تنوي انصاف العرب لما ارسلت المستر بيل ورفاقه لتضييع الوقت باسم التحقيق .. انها تدرك الحقيقة الكاملة .. اتظن انها كانت تنوي انصاف العرب عندما عينت اول مندوب سامي لها .. لماذا اختارته صهيونيا ؟.. هل خلت بريطانيا من الانجليز غير اليهود ؟.. يا عم .. المشكلة اعمق بكثير .. ان بريطانيا ترمي الى سياسة تهويد فلسطين .. جعل فلسطين يهودية .. ولا شيء غير ذلك.

وتنحنح الشيخ شلبي كأنما يطلب الاذن في الكلام ونظر اليه فؤاد وقال:

- اظن للشيخ رأي يود ان يبديه ..

وقال الشيخ :

- الحقيقة التي لمستها ان الانجليز يساعدون اليهود ضدنا وعلنا .. ومعنى ذلك انهم لن ينصفونا في يوم من الايام . ومنذ ان وعد بلفور الصهاينة بانشاء وطن قومي لهم في ارضنا وحكومة بريطانيا جادة كل

الجد في خدمة هذا الوعد المشؤوم .. انا نفسي بدات اخشى ان لا استطيع حماية ارضي هذه .. لقد هددت اكثر من مرة .. ولا ادري الى اين سيصل باليهود الحمق في معاملتي حتى يستولوا على هذه المزرعة .. انني ادرك تماما ان ضياع مزرعتنا في يد اليهود معناه ان سلمة باسرها قد انتهت .. لن يستطيع احد فيها ان يعيش آمنا ولو لساعة واحدة .. المندوب السامي نفسه حاول اقناعي ان ابيعها .. فهل معنى ذلك ان الانجليز سينصفوننا ؟..

وحاول فؤاد ان يتكلم ولكنه رأى ان لا يقاطع الشيخ الذي بدا عليه الانفعال وهو يلقي بكلماته ..

- لماذا حرمنا الانجليز من حمل السلاح ؟.. لماذا يتشدد الانجليز في معاقبة العربي اذا حمل السلاح ويقدمون بانفسهم الاسلحة الى اعدائنا ؟ اهذا فيه انصاف ؟.. لا يا ابا سامي انك متفائل وحسن النية كغالبية زعمائنا .

ورأى فؤاد ان يتكلم بعد ان شاهد ان الشيخ قد بدا عليه الارهاق من شدة انفعاله .. فقال:

- - اننا نرجو ان يأتي الله بالخير .. لقد قاتلنا الانجليز واليهود دون كلل ستة عشر عاما. ولن يعرف الوهن طريقه الى نفوسنا .. ولن نترك الانجليز ان يتلاعبون في مقدراتنا ومصائرنا ..

كان الدكتور قد اعجب باخلاق فؤاد وبرجولته بعد ان خبره تلك المدة التي اقامها بينهم فيما مضى. وكان يعرف ان فؤاد لم ينل حظا وافرا من التعليم الا انه عرف من فؤاد نفسه ان الاخير من اكثر اهالي فلسطين خبرة في شؤون الحرب والقتال وصناعة الالغام. والمتفجرات .. وكان يلمس الصدق بل والتواضع في كلام فؤاد اثناء حديثه عن مغامراته. كان دائما ينسب لزملائه البطولات وكان الدكتور يعتقد ان فؤاد هو بطلها الحقيقي. واراد ان يطلع على ما حدث لفؤاد خلال المدة التي غادرهم فيها فسأله

- بالمناسبة يا فؤاد .. اين كنت طيلة هذه المدة ؟.. ولماذا لم تحاول زيارتنا من قبل؟.

رد فؤاد :

- ذهبت الى حيفا .. ولم استطع الحياة فيها فذهبت الى لبنان ..

فسأله عبد المجيد :

- وهل قضيت كل هذه المدة في لبنان ؟.. ليتنا كنا نعرف ذلك ..

- خير ان شاء الله .. انني مسافر غدا الى هناك ..

فقال عبد المجيد بلهفة ..

- حقا .. ابامكانك الاتصال بابني يوسف في الجامعة الامريكية ..

- ولم لا .. انني على استعداد لما تريدون ..

ونظر الشيخ الى ابنه الدكتور ثم نقل بصره الى فؤاد وقال :

- هل ستسافر غدا ؟..

- اجل .. لقد اعددت كل شيء .. وما جئت الا للتسليم عليكم. فقد لا اعود قريبا من هناك. لانني قررت ان اتزوج ..

وساله عبد المجيد عما اذا كان بالامكان تأجيل سفره ، ولما سأله فؤاد عن السبب قال عبد المجيد ..

- قد نرسل معك حنان زوجة يوسف ..

ودهش فؤاد الذي لم يكن يتوقع ان حنان قد تزوجت .. ولم يكن يبدو عليها ذلك اثناء العشاء .. فسأل:

- هل تزوجت حنان .. الف مبروك .. وسامي هل تزوج هو الآخر ؟..

ورد عليه عبد المجيد بالايجاب .. ثم قال:

- ولكن منى هنا في زيارة وستعود غدا الى يافا حيث يقيم زوجها..

وتذكر فؤاد الموعد الذي ضربته معه .. ونظر الى ساعته كانت تقترب من الحادية عشرة .. وتذكر سؤال عبد المجيد فقال:

- اذا كانت حنان تود السفر فلتجهز نفسها غدا وساسافر بعد غد ..

فقال عبد المجيد ..

- ولكن الامر يتطلب وقتا اطول .. فليس لديها جواز سفر ويجب ان تحصل عليه .

واخذ فؤاد يفكر ثم رفع رأسه وقال:

- في الصباح سأخبركم اذا كان بامكاني انتظارها ام لا ..

ثم نظر الى ساعته ولاحظ الدكتور حركته فقال ..

- ان فؤاد لابد ان يكون متعبا من السفر .. فاسمحوا له ان يصعد لينام ..

ووقف فؤاد مستأذنا وهو يقول:

- تصبحون على خير ..

ورد عليه الشيخ وعبد المجيد تحيته بينما اتجه معه الدكتور لتوصيله الى غرفته .

(22)

استلقى فؤاد على السرير بملابسه واخذ دخان سجائره يملأ الغرفة ، بينما كانت افكاره تحاول ان تكتشف السر الذي يكمن وراء تصرف منى هذه الليلة .. واخذ ينظر الى ساعته بين آونة واخرى ولما شاهدها قد قاربت الثانية عشرة .. نهض وجلس على حافة السرير بينما علت خارج غرفته اصوات .. كان الدكتور يتجه الى غرفته لينام وكذلك كان والده الشيخ .

قبل ان ينام الدكتور اتجه الى الغرفة التي كانت تنام فيها منى وحنان .. فقد تركت حنان بيت عمها لتكون الى جانب اختها تلك الليلة حيث ان منى ستسافر غدا الى يافا .. واراد الدكتور ان يزف الى حنان بشرى اقتراب لقائها بزوجها .. كانت الغرفة مظلمة ولكنه لم يعبأ .. فطرق الباب ..

انتفضت منى بالداخل .. كانت لا تزال ساهرة تبحث عن الكلمات التي ستقولها لفؤاد ونهضت من فراشها .. كانت تخشى ان يكون فؤاد قد جاء اليها بنفسه ولكنها عندما فتحت الباب وجدت نفسها تواجه اخيها فسألها :

- منى .. هل حنان نائمة ؟..

- اجل ..

ودخل الدكتور ورفع نور المصباح واقترب من حنان واخذ يداعبها وهو يقول ..

- حنان .. حنان .. هيا استمعي الى البشرى السعيدة ..

واخذت حنان تتقلب دون ان يفارقها شيطان الكرى فعاد الدكتور يقول ..

- حنان .. هيا .. الا تريدين السفر الى بيروت ..

ورفعت حنان رأسها .. وهي تستمع الى اخيها .. واخذت تفرك عينيها وقالت :

- حسين ماذا كنت تقول ؟..

- ستسافرين الى بيروت قريبا .. ابشري .. الا استحق قبلة على ذلك ؟..

واخذت حنان تحضن اخيها وهي تقول :

- انك تستحق كل خير ..

في هذه الاثناء كانت منى شاردة الفكر .. ماذا يقول اخوها ؟.. انها لم تفهم معنى ما يقوله فسألته :

- هل ستسافر وحيدة الى بيروت ؟..

وسارعت حنان بالاستفهام من الامر .. فقالت :

- اجل .. من سيسافر معي ؟.. انت ، اليس كذلك يا اخي ؟..

فقال لها الدكتور:

- ليس انا .. بل انسان تعرفينه .. فؤاد

ولو ان الدكتور التفت الى منى في تلك اللحظة للاحظ التغير المريع الذي اعتراها .. ولسمع الهمس المكتوم الذي انطلق من بين شفتيها ..

- فؤاد .. غير معقول ..

ولم تر حنان في الامر ما يحتمل الاعجاب .. ففؤاد في نظر الجميع مثال للانسان النبيل فقالت حنان :

- في الحقيقة حظي من السماء .. فهذا الانسان يوثق به ..

والتفتت الى منى وقالت :

- اليس كذلك يا منى ؟..

فتصنعت منى السرور وهي تقول :

- اجل .. هو كذلك ..

وخرج الدكتور من غرفة شقيقتيه بينما اخذت حنان تقول لاختها :

- ان يوسف سيطير فرحا عندما يراني ..

وهزت منى رأسها وهي تسخر في سرها من فرحة اختها ..

واخذت تتخيل الكارثة التي تنتظر البيت اذا ما حدث وسافرت حنان مع فؤاد .. ان سامي لن يسكت .. انه ما تحمل الاهانة وما صبر الا في سبيل سعادة اخيه الصغير . ولكنه لن يحتمل اكثر مما القي عليه . وارادت ان تترك اختها لتنام حتى تتسنى لها مقابلة فؤاد .. فطلبت من اختها ان تنام لانها تعبة وستسافر غدا مبكرة..

واستلقت منى على فراشها واخذت تتصنع النوم بينما كانت عيناها تخترقان الظلام .. تنتظر اللحظة التي تنتقل فيها اختها الى عالم النوم ..

ومضت ساعة دون ان تستطيع التأكد من نوم حنان التي اخذت صورة زوجها ولقاؤه يشغلانها عن النوم ..

ووقفت منى واتجهت الى الباب وهي تمشي على اطراف اصابعها .. ثم خرجت من الغرفة ورفعت حنان رأسها واخذت تتسائل ما بال اختها تتحرك هكذا بحذر .. ثم شكرتها في سرها .. ان اختها لا تود ان تقلقها .. لابد انها خرجت لقضاء حاجة .. واستمعت الى طرق خفيف يخترق السكون . فنهضت من فراشها وفتحت الباب بهدوء .. وراعها ان تجد شقيقتها تدخل الحجرة التي ينام فيها فؤاد بحذر . ودارت في رأس حنان دوامة من الغضب كادت ان تفقد اعصابها وتصيح .. ولكنها تمالكت نفسها واخذت تتحامل على اطراف اصابعها .. حتى وجدت نفسها امام الغرفة التي دخلتها اختها .. وقربت اذانها من الباب وسمعت صوت فؤاد يقول لمنى ..

- ماذا ورائك .. ماذا تريدين ؟..

فقالت منى بصوت خافت ، ولولا السكون المخيم لما استطاعت اذنا حنان ان تسمع كلماتها:

- يجب ان ترحل فورا .. ولا تعود الى هنا ابدا ..

فقال لها فؤاد :

- ماذا تقولين .. ارحل .. ولماذا ؟..

- لا تسألني .. قلت يجب ان ترحل ..

فهز فؤاد رأسه ثم قال لها:

- امرك يا سيدتي .. انني في الحقيقة سارحل .. ولن اعود الى هنا ابدا ..

فعاودت منى تقول:

- غدا صباحا .. لا تفكر في حنان .. اياك ان توافق على اخذها معك الى بيروت ..

واخترقت كلماتها هذه اذن حنان حتى كادت ان تصيح من فرط غضبها .. وخافت ان يفتضح الامر اذا ما هي احدثت ضجة فعادت الى السكون وهي تتعجب من طبيعة اختها التي لا تريد لها السعادة .. ثم سمعت صوت فؤاد يقول:

- ولكن لماذا هذا التشديد ؟.. انك ما جئت لتقولي لي انك لا تريديني ان اخذ حنان معي الى بيروت .. وان كنت قد عرفت امر سفر اختك معي فلابد انك عرفت ذلك قبل قليل ولكن لماذا طلبت مني ان انتظر قدومك بعد منتصف الليل ؟..

فقالت منى:

- كنت اريد ان اطلب منك الرحيل غدا ..

- واذا لم ارحل فماذا سيحدث ؟..

واخذت منى تتوسل اليه ان يفعل واخبرته ان وجوده هنا سيحطم سعادتها ومستقبلها .. ولم يشأ فؤاد ان يتقبل الامور على هذا الشكل المبهم فقال لها :

- لكل شيء سبب .. واود ان اعرف لماذا علي ان ارحل .. وما علاقة وجودي بحياتك ؟..

وسكت فؤاد لحظة ثم استطرد..

- كنت في الحقيقة انوي السفر غدا .. ولكني لن افعل الا اذا استمعت الى سبب وجيه منك يرغمني على ذلك والا فانني سانتظر حتى يتم الحصول على جواز سفر لحنان لاوصلها الى زوجها ..

واعتلى الارتباك وجه منى واخذت اعصابها تنهار شيئا فشيئا فخرت على اقدامه راكعة ترجوه ان لا يزيد في اشجانها ..

فقال لها :

- لماذا لا تصارحيني بالحقيقة .. تكلمي .. فقالت له :

- اذا لم ترحل ..

ثم سكتت لحظة وعادت تقول:

- اذا لم ترحل فان زوجي سيقتلك .. ارجوك .. ارجوك

ودهش فؤاد لكلامها .. واخذ ينظر اليها وقد خيل اليه انه لابد قد اصاب عقلها مس من جنون فقال:

- ماذا تقولين .. يقتلني .. لماذا ؟..

- انه يعتقد انك سبقته الي ..

فنظر اليها مستفهما وقال :

- سبقته اليك .. ماذا تقصدين ؟.. افصحي ..

فتطلعت اليه وفي عينيها رجاء ثم قالت :

- ان زوجي لم يقربني منذ ان تزوجنا ..

فقال فؤاد :

- وما ذنبي انا في ذلك ؟..

- لقد اخبرته انك ..

وسكتت فاستحثها على الكلام فقالت :

- لقد اخبرته انك نلتني .. وانا لا ازال مخطوبة له ..

فبان الغضب على وجه فؤاد واخذ ينظر اليها باحتقار وقال ..

- ولماذا تخبريه بذلك ؟.. لماذا اخترتني انا ؟.. لماذا لم تقولي له الحقيقة ؟.. لماذا لم تخبرينه عن اسم المجرم الحقيقي ؟..

فنظرت اليه منى معاتبة ثم قالت :

- لانه ليس هناك أي رجل ..

- هل تقصدين القول بانك كذبت عليه في الموضوع من اساسه ؟..

- اجل

- ولماذا تكذبين عليه ؟..

- لم اعد اطيقه ، حاولت ان امنع حدوث الزواج باي وسيلة ولكني وجدت الاحداث تسبقني فاذا بي وجها لوجه امام واقع مرير فاضطررت ان اكذب ..

- وما ذنبي انا حتى تنسبي لي هذه الجريمة المنكرة ؟.. انني لا استطيع ان اسكت على هذا الامر ..

ارتجفت منى من جديد واخذت تقبل يديه ودموعها تبلل الارض فقال لها ..

- هل عز عليك ان تختاري اسما آخر ؟.. ان الرجال يملأون البلد ..

- ولكني توقعت ان يطلقني بعد الزواج بمدة قصيرة ..

- ولماذا لم يفعل .. هل اراد ان يتركك تتعذبين ؟..

- انه يعذبني بل ويقتلني بحسن معاملته لي ..

- خير لك ان تخبريه بالحقيقة .. وان لم تفعلي فسافعل انا ..

فصاحت حتى كاد سكون الليل ان يفضحهما وقالت :

- اياك .. ساقتل نفسي ... لا تفعل .. ارجوك

ونظر فؤاد اليها .. الى جسمها الذي بدا في جلبابها كشعلة من الانوثة واخذ يحدق في اطرافها العاجية ووجهها المتورد وعينيها الذابلتين والمتلئتين بالدموع .. وسأل نفسه .. لماذا اختارتني بالذات .. هل كانت تحلم بتلك الحقيقة .. وود ان يعرف الحقيقة منها فقال :

- اريد ان اسال سؤالا اخيرا .. لماذا اخترتني بالذات .. لماذا ؟..

فنظرت اليه وكأنها كانت تدرك ما كان يفكر فيه .. فقالت :

- لست ادري .. عندما اصر سامي ان يعرف اسم الرجل .. بحثت في الدنيا الواسعة فلم اجد الا انت .. كانت صورتك تتابعني ..

فسألها :

- هل تقصدين انك تحبينني ؟..

فنظرت اليه وكانت نظراتها تؤكد الايجاب ولكن لسانها قال :

- لا ادري ..

فصاح بها ..

- كل شيء لا ادري .. انك ما كرهت خطبتك الا لان انسانا آخر دخل قلبك ..

فقالت له :

- انني لم احبه في أي يوم .. لقد قبلته لغرض في نفسي ولما انتهى امر هذا الغرض لم اعد اطيق رؤيته ..

فقال لها :

- وما هو الغرض يا ترى ؟..

- سر .. لا استطيع اطلاعك عليه ..

- سر .. وهل بقي عندك ما تخفيه عني ؟.. انني اعرف اخطر اسرارك ايتها العذراء ..

ووجدت منى نفسها صغيرة امام هذا الرجل .. لم تكن تعتقد ان الامر سيصل الى هذا الحد .. كانت تعتقد انها ستطلب منه الرحيل فيوافقها دون ان يسألها عن السبب واذا بها تجد نفسها تبوح له بكل شيء ..

واخذت تنظر الى عينيه .. كان بريق الغضب لا يزال يتراقص مع السنة السخرية فقالت له :

- منذ ان اتيت الى هنا خيل الي انني وجدت شيئا .. وعندما رحلت وجدت ان حياتي اصبحت بدون معنى ..

فضحك فؤاد وكأنما نسي ما يمكن ان تسبب ضحكته .. وصفعت منى صوت ضحكته بينما اخذ فؤاد يقول :

- يعني انك احببتني .. اليس كذلك ؟..

فقالت له :

- هو ذاك .. ارجوك .. لا تعذبني ..

قال لها :

- منى .. اعقلي .. انني ساسافر غدا .. لن آخذ معي حنان .. ساطيع اوامرك .. انني ذاهب الى بيروت .. اتدرين لماذا ؟.. لدي عروسة هناك .. وانا واثق من انها تحبني .. ولن تكذب علي كما فعلت انت مع زوجك .. هيا اغربي عن وجهي .. عودي الى زوجك الطيب .. لو ان لديك ذرة من انسانية لما ترددت لحظة في طلب المغفرة منه .. هيا اذهبي ..

والقى فؤاد بنفسه على السرير .. بينما اخذت حنان ترتجف خارج الغرفة . ثم ركضت بسرعة والقت نفسها على سريرها ..

وعادت منى الى غرفتها .. وراعها ان تجد الباب مفتوحا .. لقد اوصدته قبل ان تخرج .. واتجهت من فورها الى سرير اختها .. فالفتها صاحية فقالت لها :

- حنان .. الا تزالين مستيقظة ؟..

فقالت حنان :

- وهل استطيع النوم وانت خارج الغرفة .. اين كنت ؟..

وشعرت منى ان حنان تعرف شيئا .. بل اشياء .

ولكنها لم تكن متأكدة .. فقالت :

- شعرت بمغص .. فذهبت الى دورة المياه ..

- حقا .. هل عرفت الطريق اليه ام انك نسيت موقعه في هذا البيت .

فقالت منى وهي ترتجف :

- ماذا تقولين ..

- لا شيء يا عزيزتي .. لقد سمعت كل شيء .. اذهبي لتنامي ..

فالقت منى بنفسها الى صدر اختها وهي تبكي وتقول :

- حنان .. ارجوك .. لا تقولي شيئا ..

فقالت حنان..

- انت حرة تحبين من تحبين وتكرهين من تكرهين . ولكن لا اجد سببا يدعوك ان تفعلي بنفسك ما فعلت .. لقد نصحك فؤاد .. واتمنى ان تقبلي نصيحته .

(23)

استلقت منى على سريرها واخذت تتذكر الحديث الذي دار بينها وبين فؤاد .. تذكرت تذللها له .. ودموعها التي ارخصتها .

وتراءت لها صورة اختها حنان وهي تسترق السمع .. أي انفعالات اعترتها وهي تشاهد اختها راكعة .. ماذا قالت في سرها ؟ بماذا وصفت اختها ؟.. وكيف ستنظر اليها في المستقبل ؟.. وفؤاد هل سيرحل في الغد حقا ؟.. انها خائفة .. ولكنه وعدها بالرحيل غدا .. ولابد انه فاعل .. والى اين سيذهب .. الى بيروت .. ولماذا .. حقا .. انه يريد الزواج .. لا لن تدعه يذهب .. ماذا .. ايتزوج .. ولماذا لا يحبها هي .. انها لا تزال تنتظره .. اهي حقا تحبه !؟.. لقد طلبت منه ان يذهب .. وان لا يعود ابدا .. فلماذا هي غاضبة .. ثائرة لذهابه .. أمجرد انه سيتزوج .. وما شأنها به .. انها لا تريده ان يفعل ذلك .. لماذا .. انها ولا شك .. اجل انها تحبه .. يا للقسوة .. انها زوجة لرجل آخر ، رجل لم يذق طعمها بعد ، ولن تدعه يذوقها ابدا .. لقد وهبت نفسها الى هذا الرجل ولن تكون لاحد سواه .. لن تكون حتى ولا ليوسف .. اول صورة انطبعت على جدران قلبها .. لقد تلاشت تلك الصورة عندما اصبح الدم الذي يملك قلبها هو فؤاد .. فؤاد او لا شيء غيره .. لابد ان تكون له .. لن تدعه يسافر .. لن تدعه يذهب .. اتتجه اليه الآن .. اتذهب لتلقي بنفسها بين يديه .. لتحول كذبتها الى حقيقة .. ولكن هل سيرضى .. انه لابد ان يطردها .. لقد فعل ذلك قبل لحظات ..

واخذت منى تتحسس وجهها وتفرك وجنتيها بشدة . ثم تركت يدها تسبح رويدا حتى استقرت على احد النهدين الذين شهقا بالرغبة واندفعا يرجوانها ان تقوم من هذا السرير الجامد الى صدر يلهبانه ويحترقان معه .. واخذت تتمنى ان تتحول الى رماد لتتطاير مع انفاس فؤاد الحارة .. وخرجت من صدرها آهة مكتومة تبعتها دموع انسكبت دونما بكاء...

يالها من طفلة .. ان احلامها تنقلها الى البعيد البعيد .. انسيت انها زوجة .. ولكنها ليست زوجة .. ان الناس يعتبرونها زوجة .. وكذلك تلك الورقة التي وقع عليها زوجها في يوم مضى الى جانب توقيع والدها .. ولكن الناس لا يعرفون الآهات التي تعيش فيها .. ان هذا الذي يسمونه زوجا ، والذي تدعوه هي كذلك في بعض الاحيان .. لا تعتبرها كذلك . وان كان هو ايضا يناديها زوجته امام ضيوفه ومعارفه ..

واشتد الارق بمنى وتوالت صور قاتمة امام عينيها حتى ضاق صدرها وتقطعت انفاسها من التعب وهي تسير في درب العذاب اللانهائي .

* * *

استيقظ عبد المجيد مبكرا صباح ذلك اليوم واتجه الى بيت الشيخ كي يستفسر عما اذا كان فؤاد قد قرر الانتظار ام لا . ولم يكن فؤاد قد صحا من نومه بعد .. بل لم يكن قد نام .. لقد غرق في دوامة من الفكر حرمته النوم وتركته نهبا لهواجس الشيطان تارة .. ولصوت الضمير تارة اخرى .. لم يستطيع ان يطرد طيف منى . لقد رآها امامه قديسة حب وشهيدة عشق .. لقد احبته .. فحرمت نفسها من السعادة .. والقت نفسها في دوامة من العذاب .. لقد احبته .. ثم تلاشت الصورة من خياله فحمد الله واستلهم الكرى لينقله الى عالم النوم .. عالم النسيان .. فاذا بصورتها تطارده .. يالها من امرأة مجردة من كافة معاني الانسانية .. وانحدرت في اعمق مهاوي الظلام .. وتلاعبت بالقلب الذي احبها .. بالشرف الذي قدم لها على طبق من

الاخلاص والمحبة .. تركت الانسان يتعذب ويفقد الثقة باخيه الانسان. لقد تركته في نظر زوجها كمجرم فاسق ..

واغمض فؤاد عينيه غاضبا ليهرب من خياله. وتلاشت الصورة فعلا من خياله لتعود اليه شهقة انثوية تتمايل امامه عارية وقد امتدت من مقلتيها السنة اللهب. تحرك قلبه .. وانحدر شعرها شلالا ينسكب فوق بحر من الفتنة عميق القرار. وانقض اصبعها كالقدر يأمره الركوع امام هذا السحر الالهي .. يا ليته يستطيع ان ينام الآن .. انه يرجو ان يظل طيلة حياته راكعا يستجدي هذه الآلهة الصغيرة .. ولم يلب النوم رجاءه .. لقد تلاشت الصورة ليعود غيرها واخذ قلبه يرتفع تارة وينخفض اخرى يمتلئ بالدم ثم لا يلبث ان ينفجر.

وسمع صوت نقرات خفيفة على باب الغرفة فأفاق من شروده فارتفع صوت الدكتور يقول:

- صباح الخير فؤاد ..

ورد فؤاد التحية وهو يفتح الباب ونظر اليه الدكتور مندهشا ثم قال:

- ماذا .. انك لم تخلع ثيابك.

- صحوت مبكرا وارتديتها ..

وتبسم الدكتور وقال:

- لا يبدو عليك ذلك .. هل نمت نوما هادئا؟..

- ان اجمل ما يميز هذا المكان هو الهدوء ...

- ان ابا سامي في انتظارك .. هل قررت انتظار حنان ؟..

وهز فؤاد رأسه وقال:

- في الحقيقة لا ..

ولم يسأل الدكتور عن السبب بل تذكر الفرحة التي ابدتها حنان ، وتخيل المرارة التي ستشعر بها . ثم اتجه الاثنان الى اسفل حيث عبد المجيد الذي بادره يهتف بالسؤال .. واستمع الى نفس الجواب ورأى فؤاد ان يستطرد قائلا:

- ولكني على استعداد لاية خدمة مستعجلة تودونها . وسوف اتصل بيوسف واخبره عن احوالكم ..

ولم يبد عبد المجيد اهتماما كبيرا للرفض بينما اخذ فؤاد يكرر اسفه لعدم استطاعته الانتظار.

(24)

طلب الدكتور من فؤاد ان يسافر معه الى يافا ومن هناك يتجه الى حيفا حيث يستأنف سفره بعد ذلك الى بيروت. ولم يجد فؤاد ما يضيره لو فعل. فهو يود ان يهرب من هذا البيت. فقط يود ان لا يرى منى. يود ان يهرب منها رغم انها لا تزال تطارده.. يود ان ينسى الحقيقة بالخيال.. واتجه الى السيارة بعد ان سلم على الجميع.. وشكر الله بان منى لم تأت وتسلم عليه فهو لا يستطيع ان يكتم شعوره نحوها.. وعندما وصل الى السيارة.. جمدت يده على مقبض الباب..

- ماذا .. منى هنا في السيارة.. يا الهي.. لا.. انني لا استطيع السفر..

وكان الدكتور قد جلس في مقعد القيادة واخذ صوت المحرك يرتفع كانما ليعيد الى فؤاد رشده..

والقى فؤاد بنفسه الى جوار الدكتور دون ان يوجه الى منى تحيته ولكنه ادرك ان سلوكه كان خاطئا فادار راسه وقال:

- صباح الخير.

وردت منى التحية. ومضت السيارة تشق الطريق بين اريج زهر البرتقال وقبل ان تبلغ يافا بقليل قال الدكتور..

- ارى ان تأتي معنا لتسلم على سامي ثم تسافر بعد ذلك..

وتمالك فؤاد نفسه.. كان قد توقع مثل هذا الطلب فاعد جوابا عليه.. اما منى فقد القت برأسها بين يديها تهرب من اخيها خوفا من ان يرى وجهها خلال المرآة.

واخذ رأسها يرتفع رويدا رويدا وهي تستمع الى فؤاد الذي قال:

- في الحقيقة انني متشوق لرؤيته.. ولكني مضطر ان لا اضيع أي دقيقة من وقتي..

ولم يكن من عادة الدكتور التشدد في امر يختص بغيره.. او السؤال عن امر لا يود صاحبه ان يبديه فقال :

- كما تشاء..

وتنفست منى الصعداء.. كانت واثقة ان فؤاد لن يرضى مقابلة سامي ولكنها مع ذلك كانت خائفة..

وعندما دخلت السيارة الى يافا.. نزل فؤاد حيث اتجه الى بيت اخيه الذي كان قد اتخذ من يافا مقرا لاعماله واقامته بعد انتهاء الاضراب.

* * *

لم تبد الدهشة على وجه سامي وهو يرى منى عائدة اليه.. كان قد نسيها.. وود ان تبتعد عنه الى الابد. ولكنه لا يدري لماذا لم يقدم على طلاقها. ولكم راودته فكرة الطلاق ولكن شيئا رهيبا كان ينقض عليه فينثر الفكرة من دماغه.. ولم يكن يقصد تعذيبها بطريقة معاملته لها كما تخيلت بل كان يشعر انه يفعل ذلك

بدافع حب قديم ..

ونسي الدكتور ان يخبر سامي بامر فؤاد .. وحمدت منى الله على ذلك . وعندما اخذ سامي يستعد للذهاب الى متجره قالت له منى .

- سامي .. الا تريد ان تعتقني لوجه الله ..

فنظر اليها سامي وبدا عليه الغضب ثم اعتلت الابتسامة الساخرة وجهه فجأة وهو يقول:

- ومن الذي طلب منك ان تأتي الي؟..

- ما دمت في نظرهم زوجتك فانهم يريدون ان اكون دائما الى جانبك وانت تعلم ان في ذلك عذابا لي ولك ..

فضحك سامي عاليا وقال:

- لي انا !.. لا .. لا تفكري بهذا .. انا لا اتعذب من وجودك .. انني اتسلى.

- ولكنك تعذبني ..

- انت التي سعيت الى ذلك بنفسك ..

- وهل من العدل ان يعيش الانسان طيلة حياته معذبا جزاء غلطة ارتكبها رغما عنه ..

وعاد سامي يضحك .. كان باديا انه يضحك يائسا ويحرق اعصابه خلال ضحكاته المتقطعة ثم قال :

- رغما عنك ؟!..

- اجل .. انا لا اطلب منك ان تصفح عني .. ولكني اطلب منك ان تجازيني على غلطتي بنبذي بتركي .. افعل ذلك ..

- ماذا ساقول لهم ؟.. ما السبب الذي يدعوني الى طلاقك ؟.. أأقول الحقيقة ؟..

فنظرت اليه مندهشة ..

- الحقيقة ..

ثم تذكرت انه لا يستطيع ان يقول شيئا فقالت:

- الحقيقة لا تجدي ولا تصدق .. فقد مضى على زواجنا سنة .

واخذت اسنان سامي تصطك من الغضب فصاح ...

- لقد كنت مغفلا اذ حكمت على نفسي بالتعاسة في سبيل التستر عليك ..

فقالت له راجية ..

- ارجوك لا تجرح شعوري..

- شعورك .. وهل بقي لديك شعور .. تطلبين الطلاق لماذا ؟.. اتودين ان تعودي اليه .. اين هو .. انني لن اتوانى عن قتله اذا رايته ..

- تقتله .. لماذا .. انا لست من دمك .. وليس عاري بعارك .. ارجوك .. لا تورط نفسك في جريمة ..دعني ..

اوهبني لوجه الله .. ان لديك الف سبب تبديه للتخلص مني .. نحن لا نستطيع ان نستمر في حياتنا التعسة هذه .. يجب ان نضع حدا لهذا العذاب .. قل لهم انك لم تحبني .. لم تعد تستطيع العيش معي .. قل لهم اني مجنونة .. وانا على استعداد لان اكون كذلك .. قل لهم .. أي شيء .

- مجنونة انك ولاشك كذلك . سافعل .. بل يجب ان افعل حتى استريح انا الآخر . اني ذاهب لمقابلة اخيك .. ويمكنك ان تنتظري عودتي معه .. ويمكنك ايضا ان تذهبي للجحيم بعد ذلك ..

* * *

نزل سامي غاضبا واتجه الى المستشفى حيث يعمل حسين وطلب مقابلته .. وبادر حسين بالتحية ثم استطرد يقول :

- خيرا ان شاء الله ..

وحار سامي فيما يقوله .. لقد قطع الطريق الى المستشفى دون ان يفكر في الطريقة التي يبدأ فيها كلامه ..

فقال الدكتور بعد ان تذكر زيارة فؤاد :

- على فكرة .. ان فؤاد يهديك السلام .. وهو مشتاق اليك ..

وتمتم سامي بصوت مخنوق ..

- فؤاد ..

ولاحظ الدكتور التغير الذي طرأ على وجه سامي ولم يستطيع ان يجد سببا يدعوه الى كل هذا التغير فقال :

- ما بالك يا سامي .. انك تتغير فجأة .. هل حدث شيء ؟..

- لا شيء مطلقا ..

واخذ سامي يتصنع البهجة وتذكر زوجته .. وتذكر الامر الذي جاء من اجله .. يا لها من ساقطة .. انها ولا شك تعرف بامر فؤاد .. ان فؤاد في هذه النواحي .. فسأل الدكتور..

- هل قلت ان فؤاد يهديني التحية ..

- اجل

- ولكن اين رأيته .. انني مشتاق الى مشاهدته..

- هو ايضا كان يتمنى ان يراك لولا انه على عجل من امره ..

- اين هو الآن ؟..

- لقد سافر الى بيروت

- هل جاءك الى هنا ؟..

- لا .. بل قضى ليلة البارحة عندنا في البيت .

وبدت الدهشة على وجه الدكتور وهو يشاهد اهتزازات وجه سامي الذي بدا وكأنه اكتشف امرا ..

وقال سامي ..

- في البيت .. في سلمة ..

- اجل ..

وتذكر سامي السبب الذي جاء من اجله الى هنا .. انها تطلب الطلاق الآن .. لقد قابلته .. لقد تحدثت اليه .. لقد ذاقت طعم الجريمة ليلة امس . انه لن يدعها تذهب .. لن يطلقها .. سيعذبها .. سينتقم لنفسه منها اشد انتقام .. وصحا على صوت الدكتور الذي قال له ..

- سامي .. انك لست في حالة طبيعية .. ما بالك ..

ورأى سامي ان عليه ان يكذب . ان يقول أي شيء فاخذ يضع يده على بطنه وشعر فجأة بالم يكاد ان يمزق امعائه فقال :

- لقد قتلني الالم الذي يعبث باحشائي ..

فقال له حسين ..

- اهذا هو السبب الذي دعاك الى الحضور ؟.. لماذا لم تخبرني بذلك من قبل ؟..

- لقد داهمني المرض بعد ان غادرتنا بلحظات ..

وتناول الدكتور سماعته وطلب من سامي ان يستلقي على سرير الكشف واخذت يده تنتقل من موضع الى آخر وصدر سامي يرتفع وينخفض وآهاته الحاقدة تفلت من بين شفتيه .

عاد سامي الى بيته ، كانت اختلاجات وجهه وارتجافات يديه تبين بان عاصفة ستهب .. وفتحت له منى الباب ودخل دون ان ينظر اليها .. واخذ يمشي في الصالة ذهابا وايابا . وكان لتصرفه اثر كبير على اعصاب منى فقالت .

- ما بالك .. اين حسين .. لماذا لم يحضر معك ؟..

ونظر اليها . واحست انه يريد ان يحرقها بنظراته ثم اتجه اليها .. اقترب منها واخذت تتراجع الى الوراء شيئا فشيئا وهي لا تستطيع ان تهرب من وميض نظراته . وارتجف جسمها وهي تستند بظهرها الى الحائط . واخذت المسافة بينهما تقصر شيئا فشيئا .. فصاحت به :

- ماذا تريد مني .. ابتعد عني..

ولم يأبه سامي لكلماتها . واحست هي بانها يجب ان تصرخ ولكن سامي كان قد سبقها فالقى بكف يمناه على فمها . وجحظت عيناها وقد احست رأسها بين يده والحائط فلم تستطيع تحريكه ..

فصرخ سامي ..

- أتودين الطلاق ايتها الفاجرة .. لن تلتقي به يوما وان كنت قد قد تركتك تذهبين الى زيارة اهلك .. فلن اسمح لك بزيارتهم بعد ذلك .. ستعيشين هنا كالكلبة .. لن اطلقك ولن تري فؤاد ثانية .. ان كنت قد نعمت بجواره ليلة امس . فساجعلك تنعمين بجواره عما قريب ، يوم اصبغ وجهك بدمائه القذرة ..

سكت لحظة واستطرد

- ساتزوج .. هل تعلمين ساتزوج .. لا تفكري في نفسك . لن اصفح عنك في يوم من الايام .. ستعيش معك

في هذا البيت انسانة اخرى انسانة ستخدمينها رغما عنك ولا تصدقي ان بامكانك طلب الطلاق ، لا تصدقي ذلك .. ستسافرين معي الى بيروت .. رغما عنك .. وستقابلين حبيبك هناك .. ستقابلينه . الا تفرحين لهذا الخبر . ورفع سامي يده عن فمها وفي نيته ان يلطمها على وجهها ليبدأ معها درس العذاب . فاذا بها تخر على الارض بين جسمه والحائط .. نظر اليها .. ثم ركلها بقدمه واتجه ناحية المغسلة ليزيل انفاسها الدنسة من كفه .

(25)

لم يكن فؤاد قد غادر حيفا بعد عندما ارتفع صوت الشعب العربي في فلسطين صاخبا يستنكر المؤامرة التي حاكها الانجليز ضدهم وضد وطنهم ..

كانت اقتراحات مستر بيل ان تقسم فلسطين الى ثلاث دويلات احداهما يهودية . وتحتل الساحل الفلسطيني الخصيب بينما تقام دولة عربية في الجبال، اما الاماكن المقدسة بالاضافة الى .!!!!!. اللد والرملة فقد تقرر ان تبقى تحت سلطة الانتداب البريطاني .

عمت الثورة أرجاء الوطن كله من جديد وهب الشعب وهو اكثر تصميما وعزيمة من ذي قبل على تحرير أرضه وتراثه المجيد وولدت الثورة الجديدة أكثر تنظيما من سابقاتها فاندفع الابطال تاركين اعمالهم للانضمام إلى هذه الثورة.

ووجد فؤاد أنه لا يستطيع السفر إلى بيروت. ولا يستطيع الزواج ايضا في هذا الوقت العصيب. وبدأت صورة منى تداعب احلامه من جديد .. وان الحرب ما قامت الا لتمنع زواجه لتتركه ينتظر منى التي انتظرته طويلا. ولم يعد يرى فيها غير صورة القديسة الانثى التي قلبت لبه وادارت رأسه. ووجد ان من الخير له ان ينسى نفسه بين اصوات الرصاص وخطط المستعمرات وان يعود الى التفرغ للجهاد.. فكون مع بعض زملائه فصيلا فدائيا لتعطيل سير القاطرات وتدميرها حتى يعيق تحركات الجيش الانجليزي الذي اندفع كالمجنون للقضاء على الثورة.

كان سامي يفكر بالطريقة التي يستطيع فيها تعذيب منى اكثر واكثر، عندما انطلق نداء الثورة المدوي وجد نفسه ينسى منى. ينسى انتقامه الصغير ليتوجه الى هؤلاء الذين يريدون ان ينزعوا منه روحه وشرفه معا. وقرر ان يهرب من نفسه .. لن يعود الى سلمه.. ولن يبقى في يافا ليتاجر فيها.. اغلق متجره والتحق بجيش الثورة المرابط فوق الجبال. وعادت منى الى بيت ابيها.. وقد حمدت لله على ان الثورة اندلعت لتنزع من بين يديها كأس البؤس التي كانت توشك ان تتجرع.

لم يكن فؤاد يستطيع الذهاب إلى سلمة.. انه يتمنى أن يفعل.. يتمنى أن يشاهدها.. لقد هرب منها ذات يوم.. ولكنه يجد أنه مشدوداً إليها برباط لا يدرك كنهه. ولم يشأ أن يغالط نفسه أو أن يصارح نفسه بحبه لمنى.. أهو حب جديد؟ .. أم هو قديم ولد يوم أن تركها تبكي تحت الشجرة بعد موت ابراهيم.. ولكن.. اينقلب الرأس.. بهذه السهولة.. وتلك الفتاة التي قرر أن يتخذها زوجة له.. تلك الصغيرة الطيبة. هل كان اقدامه على الزواج منها مجرد عطف عليها لأنها ابنة صديق مات بين يديه فاوصاه خيراً بها؟ ووجد نفسه يخط لها رسالة .. يخبرها انه لا يستطيع التفكير في الزواج الآن لان نداء الوطن أقوى من نداء قلبه. وتمنى لها حياة سعيدة بعد أن تحرر من وعده لها بالزواج بلباقة.

ولكنه تذكر ابراهيم.. وتذكر الكمين الذي نصبه معه لقافلة فسحقاها، وقرر ان يفعل ذلك الليلة مع رفاقه. ثم يتجهون بعد ذلك الى الجبال.. ورأى ان لا يهاجم القافلة وهي تتاخم المزرعة لئلا يحاول اليهود الانتقام من اهلها بل نصب كمينه للقافلة على مقربة من رامات جان حيث يكون اليهود قد القوا اسلحتهم باطمئنانهم لوصولهم.. ويكون لعامل المباغتة اثره الكبير.

وعبر سكون الليل، كانت تنطلق اصوات الرصاص والقنابل من كل ناحية، واعتاد الناس على هذه

الأصوات حتى اصبحت جزءاً من حياتهم العادية.

ازاحت بريطانيا عن وجهها قناع الانسانية واخذت تتفنن في تعذيب الشعب وافنائه.. واصدرت نداءها الذي يرسل الى الموت كل من يحمل أي نوع من السلاح حتى لو كان طلقة واحدة. ولم تفت هذه القوانين من عضد المجاهدين.. كانوا دائبي العمل على اختطاف أرواح الاعداء وتحطيم منشآتهم والهجوم على معسكراتهم.. وقد قررت بريطانيا ارسال قوات من جيشها المرابط عند قناة السويس لكي تسيطر على الموقف في فلسطين الذي كان قد فلت من يدها.. وتعالى نداء القادة في جبال نابلس راجية من الشعب كله ان يتعانق ويتساند في سبيل هذا القحط المقبل.. واتجه فؤاد و.. إلى جنوب فلسطين حيث القرية التي سيهاجم بها جيش المعتدين واخذ يحرض الناس على تدمير خطوط سكة الحديد حتى يعجز الجيش عن الوصول الى فلسطين وهب جميع اهالي الجنوب في غزة والمجدل واخذوا يدمرون الخطوط.

واتجه فؤاد مع رجاله بعد ذلك إلى يافا.. لم يدر الدافع الذي يقوده الى هناك.. الا بعد ان وصلها.. رأى انظاره تتجه الى سلمة.. الى البلد التي عرف فيها منى وكلمها.. بل وجاءت إليه في غرفته بعد منتصف الليل. بكت بين يديه راجية، وفوق ذلك اعترفت له بأنه الانسان الذي تحبه.. وتذكر ان منى لا تقيم في سلمة بل في يافا حيث يقيم زوجها ورأى ان من الحكمة ان يبتعد عن هذه المنطقة حيث ان الانجليز لا يزالون يسيطرون عليها تمام السيطرة.. ووقوعهم في قبضة الاعداء معناه الموت المحقق..

لاحظت منى التغير الذي طرأ على حنان في معاملتها لها.. ولم تعد تخافها كما كانت من قبل او تحسب لها حسابا بل كانت تعاملها كما يعامل الانسان طفله الصغير.. يريد ان يبرهن لها انه يحبها ويعطف عليها ولم ترض منى من اختها هذا السلوك فقالت لها ذات يوم:

-حنان.. ماذا انا في نظرك؟..

ونظرت اليها حنان وقالت:

-انت اختي

- اعرف ذلك.. ولكن الا ابدو في نظرك انسانة ثانية غير تلك التي كنت تذهبين معها كل يوم الى المدرسة؟..

-لا يامنى.. انت كما انت لم تتغيري

-ولكنك انت تغيرت.. تغيرت معاملتك لي..

-انا تغيرت.. ابداً.. قد يبدو لك هذا..

-اريد ان اعرف.. لماذا بقيت ساكتة؟ لماذا لم تخبري سامي بكل شيئ؟..

وفتحت حنان عينيها قائلة:

-ماذا ..اتريديني ان اقول لهم شيئا انت لا تريدينهم ان يعرفوه.. لا يا منى.. انت اكبر مني.. واكثر تجربة.. وما ادراني فقد تكوني على حق..

-هل تعتقدين انني قد اكون على حق؟..

-ولم لا.. انك لا تفكرين بعقلك بل بقلبك فانت اذا احببت انسان وهبت له كل شيء اما اذا كرهت فانك جامدة حياله كالجسم الصلد.

-في الحقيقة يا حنان.. كم انبت نفسي في بعض الاوقات وكم امتلأت نفسي بالزهو لاستطاعتي الصبر

على العذاب اوقات اخرى..

فسألتها حنان

-وهل حقاً تحبين فؤاد؟..

-انه يجري مع كل قطرة من دمائي..

-لماذا لا تطلبين الطلاق؟.. وتتزوجينه

فهزت منى رأسها وقد بدأ الأسى في التأوهات التي انطلقت من ثغرها وقالت:

-وهل سيرضى بي هو.. وهل سيرضى أن يطلقني قبل ذلك.. لقد حاولت طلب الطلاق لأستريح من العذاب فلم أستطع أن أحصل عليه ولولا هذه الثورة التي نشبت فأراحتني من وجه سامي لما بقيت حتى الآن في هذه الأرض.

-لقد تعذبت كثيراً يا منى وانني ارثي لك.. وقد يكون هذا هو السبب الذي يدعوك للاعتقاد بتغيري.. وتغير معاملتي لك.. وان كنت انا الاخرى لا أقل عنك عذابا.. فلقد قيل انني تزوجت.. شهرا واحدا مكثت فيه مع زوجي وهاهو يوسف تردد ان يسأل عني..

فنظرت منى الى وجه اختها الذي تورد خجلا عندما التقت عيناهما.. وقالت:

-انت تعيشين على امل.. ان الحب الذي يملأ قلبك هو الذي يقودك الى طريق النور.. اما انا فانني اركض خلف سراب من العدم.. دربه الم وبريقه عذاب. وليس لي الا ان ادعو الله ان يريحني..

***

وقف فؤاد في الكمين الذي اعده للقافلة.. لقد استطاع مع رفاقه تحطيم ثلاث سيارات شبت فيها النيران ولم يكن باستطاعة فؤاد ان يطيل وقت المعركة حتى يسحق الاعداء.. فقد حان ان تصل نجدة من المستعمرة لتحاصرهم وتجعل وضعهم حرجا.. فما ان انفجرت الالغام تحت السيارات حتى انطلق الصراخ وانطلق معه ازيز الرصاص.. واستطاع فؤاد ان يتجه وزملاؤه نحو اشجار البرتقال حيث اختفوا واخذوا يشقون طريقهم في هدوء عبر سكون الليل.

وفي اليوم الثاني وصل الى الجبال التي لا تعرف الخوف.. واتجه لمقابلة احد القادة من اصدقائه واستقبله صديقه بسرور بالغ.. وقال له:

-فؤاد.. لن نستطيع ان ننسى لك التضحية الباهرة التي قمت بها..

فرد عليه فؤاد متواضعاً:

-وهل ما فعلت انا يصل الى ركبة ما فعلتموه يا اسماعيل..

وهز اسماعيل رأسه معبرا عن بطولة فؤاد ومندهشاً من دماثة خلقه وتواضعه وقال:

-لولا ما قمت به من تخريب سكك الحديد لما استطاع هجومنا على ثكنات الانجليز ان يفلح.. ولما استطعنا ان نبث الرعب في قلوبهم إلى الحد الذي جعلهم يهربوا تاركين وراءهم كل شيء..

ووقف فؤاد فجأة وهو ينظر الى شاب يتقدم نحوه ببطء مخيف.. وصاح..

-سامي..

واسرع سامي في خطواته ثم توقفت على بعد قليل من فؤاد وقال:

-اجل سامي..

وعجب اسماعيل للتغير الذي اعتلى وجهيهما فوقف هو الآخر وقال:

-سامي.. فؤاد.. ما بالكما؟..

ونظر سامي الى قائده.. ثم اعتلت وجهه ابتسامة واخذ يقول:

-لا شيء.. ان فؤاد صديقي وقد ادهشني وجوده هنا.. ثم اتجه الى فؤاد ثانية وقال دون ان يمد يده اليه:

-فؤاد.. كيف الحال؟.. لقد تعبت من البحث عنك.. نحن نلتقي.. انني مشتاق اليك.. كثيرا.. كثيرا جدا..

ولم يشأ فؤاد ان يجعل اسماعيل يتوه في دوامة من الشك بعد ان استمع الى الكلمات التي القاها سامي بلهجة تهكمية.. فقال:

-سامي.. لقد كنت البارحة في سلمة.. ولدي كلاما احب ان اقوله لك.. لو سمح بذلك سيادة القائد..

كان فؤاد قد قرر ان يعترف لسامي بكل شيء.. انه لا يستطيع ان يعيش خائنا في نظره.. على سامي ان يتدبر امره بنفسه.. ليصفح عن زوجته اذا شاء.. وان كان هذا هو ما يخشاه.. ولكنه تذكر انه لابد لان يكون عند سامي بعض الكرامة فيطلق الانسانة التي لم تستطع ان تحبه رغم معاشرتها اياه مدة طويلة.

واشار القائد اشارة واتجه....

قال فؤاد موجها كلامه الى سامي:

-انني اعرف لماذا انت حاقد علي..

وفطن سامي الى ما قاله فؤاد من قبل فقال بعد ان اصبح الاثنين داخل الخيمة:

-هل قلت انك كنت البارحة في سلمة..

-اجل.. لم اذهب الى المزرعة فقد وعدت ان لا ادخلها ابدا..

وثغر سامي فاه قائلا:

-وعدت من؟

-منى.. زوجتك..

واغتاظ سامي من اللهجة الجادة التي نطقها فؤاد حتى انه يعتبرها اهانة.. فقال:

-انها ليست زوجتي.. لقد انتهى ما بيننا..

كان هذا ما يتمناه فؤاد ولكنه اراد ان يثبت براءة نفسه فاذا به يقول:

-هل صدقت ما قالته لك منى عني؟..

ثم توقف عن كلامه واستطرد وهو يحدق في وجه سامي..

-لقد كذبت عليك..

وصاح سامي:

-كذبت علي.. ومن ادراك انها قالت لي شيئا.. ما ادراك انها تكذب علي؟..

ورأى فؤاد ان يظل هادئا ازاء ثورة سامي.. فقال بصوت خافت:

-قبل ان تندلع الثورة.. ذهبت لزيارتهم.. لم أكن أدري انك قد تزوجت.. كنت عازما ان اسافر الى بيروت فطلب مني والدك ان آخذ حنان معي لأوصلها إلى أخيك يوسف..

وكانت منى قد طلبت مني قبل ذلك ان اقابلها لأمر هام ففعلت واخذت ترجوني ان ارحل.. وان لا اعود الى هناك ابدا.. ولم أشأ ان اطيعها دون ان اعرف السبب فاخبرتني بكل شيء.. وبقد اغضبني ان اكون انا الضحية التي اختارتها لتفسها امام عينيك على صورة مجرم دنيء.. وقررت ان اتصل بك واقول لك الحقيقة.. وهددتها اذا لم تفعل هي ذلك وتصارحك بكل شيء.. فسافعل انا.. ولكنها ثارت فجأة واخذت ترجوني ان لا افعل.. وهددت بقتل نفسها.. قالت انها لم تعد تطيق الحياة معك.. وانني آسف لما قلته ولكنني مضطر لأن اثبت براءتي.. ان زوجتك لا تزال عذراء....

استمع سامي الى الكلام الذي قاله فؤاد.. واخذ يتطلع الى وجهه ليرى مدى الصدق الذي يحتويه كلامه.. ثم أخذ يتنفس بحرقة واتجه الى كرسي وجلس عليه ونظر الى فؤاد وقال:

-احقا ما قلته لي؟..

-اجل يا سامي.. انها حقيقة مرة لا تقل عن مرارة الوهم الذي عشت فيه من قبل..

ووقف سامي فجأة.. وقال:

-انني ذاهب الى هناك لأكشف حقيقة ما قلته لي.. اما اذا كنت قد كذبت فلن ادعك تفلت من يدي..

واتجه سامي الى باب الخيمة وانطلق الى حيث كان القائد جالسا مع بعض الثوار وقال له:

-سيدي.. يجب ان اسافر إلى بلدي لأمر هام.. واتمنى ان أجد فؤاد هنا عندما أعود..

وكان فؤاد قد خرج هو أيضا من الخيمة واتجه ناحية القائد ونظر القائد الى فؤاد كأنما يستشيره.. فقال فؤاد:

-دعه يذهب..

ثم التفت الى سامي وقال:

-سأنتظرك حتى ترجع.. لا تنسى تبلغ سلامي إلى الشيخ والدكتور ووالدك والجميع..

(26)

لم يقف اليهود مكتوفي الايدي امام ما لحق قافلتهم من حرق وقتل في عقر دارهم.. وتذكروا القافلة التي احترفت قرب سلمة ومحاولتهم الانتقام ووقوعهم في شرك مميت.. فأخذوا يعدون العدة للانتقام من جميع اهل سلمة.. واتجهوا بأفكارهم الى المزرعة.. تلك البقعة التي تقف حائلا دون حركة قوافلهم، فقرروا شن هجوم شامل، وقدم لهم الانجليز ما يشاءون من مساعدة.. وفي وضح النهار اتجهت مصفحات القوات البريطانية ناحية سلمة.. واحاطت بالمزرعة بحجة البحث عن الثوار. واخذوا يعيثون فسادا ويتركون خرابا اينما وطئت اقدامهم. وتبعهم افراد العصابات الصهيونية وفي نيتهم ان يدعوا المزرعة قاعا صفصفا..

فوجئ الشيخ شلبي بمسعود يصرخ ويصيح:

-يا سيدي.. اليهود والانجليز يهاجموننا..

وكان الشيخ لا يزال غارقا في قلب الأحداث التي توالت على البلاد.. ورفع الشيخ رأسه وخرج من مكتبه وصاح به ضابط انجليزي:

-اين الثوار؟..

فقال الشيخ:

-ثوار.. ليس لدينا احد ايها القائد..

فصاح به القائد:

-ان هذه المزرعة هي التي تخفي الثوار الذين يعيثون في البلاد فسادا.. وخرابا..

ولم يستطع الشيخ ان يبتلع الاهانة، فصاح:

-انتم الذين تعيثون فسادا وخرابا.. انهم يريدون ان يتحرروا.. اخرجوا من بلادنا..

واخذ سالم يستجدي اخاه ان يسكت وان لا يلقي بنفسه إلى الهلاك ولكن الشيخ لم يعبأ به بل اندفع يصيح:

-انكم مهما حاولتم ان تخمدوا الجذوة الكامنة في الصدور فان محاولاتكم ستعصف بها رياح الثورة العاتية.. انتم لا تستطيعون الاستئساد إلا على المواطنين الذين لا يملكون الدفاع عن انفسهم.. هذا البيت لا يضم سوى الشيوخ والنساء.. ليس لدينا أي ثائر ايها القائد الباسل..

والتفت القائد الى الجنود حوله وقال:

-ابحثوا في كل مكان.. هيا..

ودخل الجنود البيت، واخذوا يحطمون كل ما تصل اليه ايديهم اذا رأوا انه لا فائدة من اخذه. واخذ صياح النساء يرتفع، واخذت حنان تبكي من فرط الخوف، بينما كانت منى لاتزال رابطة الجأش.. وقررت ان تذهب الى القرية لتخبر اهلها حتى يهبوا لنجدة اهلها.. واخذت تنزل الدرج وانظار الجنود من الانجليز

واليهود تكاد ان تلتهمها.. وصاح بها الضابط الانجليزي..

-انت.. الى أين انت ذاهبة؟..

فنظرت اليه ثم غمزت له بعينها وقالت:

-الى بيتي.. انني ضيفة هنا..

وارتفع صياح احد الجنود.. وهو يقول:

-سيدي لقد وجدنا هذا الثائر.

وجمدت منى وهي تحدق في سامي الذي اخذ ينظر اليها وقد ركزت عليه فوهة من الموت.. بينما اخذ الشيخ يصيح وقد اعترته الدهشة من وجود سامي في هذا الوقت..

-هذا ابننا..

فقال الجندي الذي احضره وهو يخرج من جيبه مسدس:

-سيدي القائد.. لقد وجدت معه هذا السلاح..

فهز القائد رأسه وقال:

-هذا سبب كاف لاعدامه..

وفي تلك اللحظات استطاعت منى ان تختفي عن الابصار وان تشق طريقها بين الاشجار عبر البيارة التي يمتلكها والدها ثم والد زوجها الى سلمة.. واخذ الرجال الذين يمتلكون الاسلحة يتجهون الى تلك المنطقة حتى يخلصوا الشيخ وعائلته من الموت..

ولم يكن رجال سلمة يعتقدون ان هجومهم على الانجليز سينتج عنه كارثة.. فما ان استمع هؤلاء الى رصاص العرب ينطلق.. حتى اخذت مدافعهم توجه نيرانها ناحية القرية.. ولم يمنعهم عن قتل جميع من في البيت.. تركوه والسنة اللهب ترتفع الى عنان السماء.. والدماء البريئة تنساب فوق الثرى الطاهر.. وبعد ان قام الانجليز واليهود بجريمتهم المنكرة عادوا ادراجهم ولم يتركوا في البيت قلبا ينبض ولو كان الدكتور حسين وابنته سعاد موجودين ساعة الهجوم لما بقي لهذه المزرعة من يقول انا لها غير منى..

اقبل احد اهال سلمة الى المستشفى حيث كان الدكتور واخبره ان اليهود والانجليز يهاجمون المزرعة... وفوجئ الدكتور بالخبر فترك عمله واتجه الى حيث رأس الجريمة..

لم يستطع ان يتحمل ما رأته عيناه.. هذا والده الشيخ وقد تضرح بدمائه.. وهذه حنان اخته الجميلة فصل رأسها عن جسدها.. وامه.. وابنه الصغير.. ابنه ذهب.. يا للقدر القاسي انه لا يحتمل.. ووقع بصره على منى.. كانت لاتزال حية تنتقل بين الجثث كمجنونة في قفص وتهذي تارة وتصرخ تارة.. والقت بنفسها في حضن اخيها.. لم تكن تصدق انه ما زال حيا.. واخذ الاثنان يبكيان حتى خرا على الأرض. وارتفع صوت سعاد الصغيرة باكية وهي تنادي والدها.. وتحتضنه.. لقد رأت الموت يخطف جميع من في البيت ولا تريد ان يخطف منها والدها.. واخذ اهالي سلمة ينقلون الجثث الى القرية للصلاة عليها ودفنها..

افاق الدكتور من ذهوله بعد ايام.. وقد صمم ان لا يذهب هذا الدم الزكي هدرا.. يجب ان ينتقم بنفسه لهذه الارواح الطاهرة.. ان الصورة الشنيعة لن تفارقه يوما الا اذا استطاع ان يرسمها على ارض اعدائه من دمائهم وجثثهم.. الانجليز.. واليهود.. اهالي رامات جان.. يجب ان ينتقم منهم.. يجب.. وتذكر فؤاد.. ان باستطاعته ان يساعده.. ولكنه لا يريد ان يساعده احد.. لينتقم بنفسه لنفسه..

كانت حوادث القطارات قد تلاشت بعد أن اخذ الانجليز يسيرون كاشفة امام القطار.. ولكن الدكتور لم يجد وسيلة ينتقم بها من الانجليز غير ان يحطم قطارا يمتلئ بالجنود.. واخذ يفكر بطريقة تجعله ينفذ انتقامه.. ووصل الى حل.. ان القاطرة الخفيفة لا تستطيع ان تكشف الخطر الذي يكمن وراء اقتلاع المسامير الحديدية التي تربط الخطوط بالقواعد.. اما القطار الثقيل فانه لن ينجو من تحطيم عنقه.. وخرج الدكتور بوصوله الى هذا الحل.. اخذ يختار المنطقة التي يزداد فيها خطر خروج القطار عن خطه.. وكانت اعمال الثورة العربية قد اشتدت في منطقة القدس وباب الواد مما جعل الانجليز يوجهون قواتهم الى تلك المنطقة.. وسافر الدكتور الى المنطقة الجبلية.. حيث المهاوي التي لن ترحم القطار.. كم كان فرحه شديدا وهو يشاهد الكاشفة تتعدى المنطقة بأمان.. بينما رأى القطار بعد قليل وقد هوى في قرار سحيق.. ثم اعقب ذلك انفجار ملأ صوته الافق. فقد كان القطار محملا بالجنود وبالكثير من الالغام.

(27)

عاد الدكتور الى سلمة .. واخذت انظاره تتطلع الى رامات جان .. يجب ان ينتقم .. ان يكمل انتقامه .. لقد وصل الى ما يبتغيه من اعدائه الانجليز . واما اليهود فلم ينتقم منهم بعد ..

وكانت المزرعة قد اصبحت خرابا منذ العدوان عليها .. واقام الدكتور مع ابنته وشقيقته في احد بيوت القرية . وعادت قوافل اليهود تمر من جوار المزرعة لا تخشى أي عدوان .. فقرر الدكتور ان يحطم كل قافلة تمر .. لن يدعهم يتمتعوا بالهدوء او السكينة .. ولما كانت الاسلحة محرمة على العرب وان كان بعض اهال القرية يمتلكون اسلحة فقد اخفوها حتى لا ينكشف امرها ..فقد رأى الدكتور انه في حاجة الى بعض الالغام . واستطاع الحصول على بعضها من يافا . واخذ يعد العدة لبداية معركته .. كان عليه ان يعتمد على الآخرين من سكان القرية لمساعدته . وكان الرجال على اهبة الا ستعداد لاي عمل يخدم الثورة ويعززها ..

وتوالت هجومات حسين على القوافل .. ليس فقط التي كانت تمر جوار المزرعة .. بل والتي تذهب من تل ابيب الى رامات جان .. حتى اصبحت خطوط القوافل اليهودية مغلقة في وجه اليهود ..

ورأى اليهود ان عليهم ان يستولوا على المزرعة .. يجب ان تصبح لهم .. واتصلوا بالمندوب السامي الذي لم يتورع ان يشاركهم في الجريمة ..

وفي صباح احد الايام .. تسلم الدكتور رسالة من مصلحة الضرائب تفيد ان عليه ان يدفع مبلغا ضخما لتسديد الضرائب المستحقة عن ثلاث سنوات . وان عليه ان يبادر فورا بالدفع والا فان الدولة ستقوم بالحجز على الارض وعرضها للبيع .. ووجد الدكتور ان المؤامرة المحاكة حوله شديدة الخطورة .. كان باستطاعته ان يدفع هذا المبلغ .. فهو لديه ، او يمكنه الحصول عليه .. ولكن المزرعة لا تنتج أي محصول بعد ان قام الانجليز بتخريبها .. فماذا يفعل في العام القادم .. سيواجه نفس المشكلة ..

واخذ يفكر فيما عساه ان يفعل .. عندما اقبل عليه الممرض قائلا :

- سيدي الدكتور .. رجل يريدك ..

- دعه يدخل ..

ودخل الى غرفته في المستشفى رجل بادره بالتحية وقد امتلأ وجهه بالابتسامة وقال:

- دكتور حسين .. يشرفني ان اتعرف بك ..

- وانا كذلك يا سيدي .. اهلا وسهلا ..

فقال الرجل :

- سيدي الدكتور .. انني اعلم انك تمر بمرحلة حرجة .. لقد فرضت عليك ضريبة باهضة .. ومزرعتك لن تدر محصولا وسيحصل هذا وفي العام القادم والذي يليه حيث ان اليهود يريدون ان يحصلوا عليها .. ولذا فقد قررت ان امد اليك يد المساعدة ..

ونظر اليه الدكتور مستفسرا .. واستطرد الرجل..

- ما رأيك في ان تبيعني المزرعة ..

واجابه الدكتور مندهشا ..

- ابعك المزرعة .. لا يا سيدي ..

- لا تخف شيئا .. فانا عربي مثلك .. انك لن تبيعها لليهود بل للعرب .. لن يلومك احد على ذلك ..

فقال له حسين :

- ومن الذي يضمن لي انك لن تبيعها لليهود في اليوم التالي ؟.. لقد مرت هذه اللعبة على غيرنا ..

وهز الرجل رأسه وهو يقول :

- وانت ماذا يهمك .. اليس كل ما تبتغيه الا تظهر بمظهر الخائن امام العرب ؟.. سالبس عنك هذا الرداء يا سيدي .. انني اريد مصلحتك ..

ونظر حسين الى الرجل غاضبا ثم وقف وقال وهو يهز قبضة يده مهددا :

- اسمع ايها الرجل .. اذا عدت لتراني فلن ادعك تخرج سالما .. هيا انصرف ..

وغادر الرجل الغرفة بينما غرق الدكتور في دوامة من الفكر .. انه لن يترك ارضه لتصبح ملكا لليهود .. تذكر والده تذكر اصراره على عدم البيع رغم التهديد والاغراء الذين واجههما ، وهو لا يريد لوالده ان يثور في قبره بل يريد له الهدوء ..

واخذ الدكتور يتخيل وضع المزرعة واهميتها بالنسبة لسلمة . ان استيلاء اليهود عليها معناه تأمين جميع طرق القوافل ، ومعناه ايضا التهديد لوجود سلمة . واخذ الدكتور يفكر ثم رفع رأسه وهو يقول لنفسه ..

- فكرة .. ليس لدي ما افعله سوى ذلك .. انني اضمن السلامة لسلمة .. وازيد الخطر على قوافل اليهود بل اقطع طريقها ..

ثم صمت فجأة واخذ يفكر ثم عاود يقول ..

ولكن هل يقبل الناس كما توقعت على امتلاكها .. انه من الافضل ان اتصل بالجريدة .. يجب ان انشر الخبر على الصفحة الاولى .. اريد ان أصنع حدا لاطماع اليهود ..

كان الدكتور قد قرر ان يبيع ارضه بعد ان يقسمها الى مساحات صغيرة .. باثمان تعادل الضريبة المفروضة عليها مشترطا على المشترين ان يبادروا بانشاء مساكن لهم عليها حتى تتحول تلك المزرعة الى قرية كاملة .. واقبل المشترون من كل صوب .. وبدأت الحياة في سلمة تأخذ شكلا جديدا فقد باع عبد المجيد سالم ارضه ايضا بنفس الطريقة .. واخذت المباني الجديدة تنتشر حتى التقت مع سلمة لتكون قرية كبيرة تنغرز كالشوكة في جبين اليهود .

واعاد الدكتور بناء بيتهم الذي كان الاعداء قد احرقوه . وفتح لنفسه عيادة داخل القرية وكرس كل وقته في خدمة مواطنيه اهال قريته .

(28)

اخذت منى تحدق في وجه سعاد ابنة اخيها وتراءت لها صورة الماضي .. كانت سعاد تشبه حنان الى حد بعيد تشبهها في رقتها .. في بسمتها البريئة وفي الذكاء الذي تنطق به عيناها .. عادت بمنى الايام .. ايام كانت هي الاخرى صغيرة ، ايام كانت تمسك بيد حنان وتهبطان معا ببطء وحذر لتستلقيان خلف شجرة عند اطراف مزرعتهم . ومن هناك تشاهدان يوسف وتستمعان الى صوته ..

يوسف .. اين هو الآن ؟.. وهل يدري ماذا اصاب زوجته ؟.. وطفرت دمعة بل دموع من عيني منى . احتضنت الصغيرة سعاد وهي تتمتم بحشرجة .

- حنان .. حنان .. اين انت يا حنان .. احقا ؟.. احقا ذهبت تلك الروح الطاهرة .. ذلك الجسد الجميل .. ذلك العقل النير .. والقلب الكبير .. حنان .. لماذا تركتني وذهبت .. لماذا يذهب السعداء ويبقى التعساء ؟..

ولم تدر الصغيرة سعاد لماذا وجدت نفسها تبكي .. ودار في نفس منى ان تكون هي السبب في ايلام هذه الصغيرة ، فاخذت تداعبها وتحاول ان تخفف عنها . ولم يكن من السهل اقناع الصغيرة بان عمتها لا تعاني من الآلام الكثير .. فقد كانت الدموع لا تزال تلمع على وجناتها بينما انطفأت البهجة التي كانت تعلو وجهها من وقت لآخر .

وشعرت منى بعد ان شاهدت البسمة تعلو وجه سعاد ان لديها الرغبة في ان تبكي .. بل وان تظل تبكي حتى آخر دمعة يمكن ان تنحدر من مقلتيها . ولم تشأ ان تغير ابتسامة سعاد الى حزن ، فتركتها بعد ان الهتها بواجب دراسي .. حيث كانت تقوم على تدريسها بنفسها .. ثم اتجهت الى غرفتها والقت بنفسها على السرير ، واجهشت في بكاء مرير ، دموعه صور قاتمة لذكريات ولدت في الظلام . وآهاته انغام للمآسي التي انقضت على قلبها بدون رحمة ..

واستبد بمنى التعب حتى غرقت في عالم النوم العميق .

ودخل الدكتور غرفة شقيقته ، ولاحظ الاسى المرير على وجهها والذبول الذي سلب النضارة وخطف البسمة . واخذ يتحسس دمعها بحنان وشعر بالرطوبة التي خلفتها الدموع على الوسادة .. وتراءى له السبب الذي انتزع كل هذه الدموع .. انه نفس السبب الذي ينتزع منه ايضا دموعه كلما خلا بنفسه .. وخشي الدكتور ان يستمر في انفعالاته وهمومه حتى لا يظهر بمظهر آخر .. واخذ يربت على كتف شقيقته ولسانه ينطق اسمها بصوت خافت ، كأنما يود ان يوقظها ولكنه يخشى ان يفعل ..

واستيقظت منى واخذت تنظر الى وجه اخيها الذي علته ابتسامة واستمعت الى صوته يقول لها ..

- منى .. الا تكفين على البكاء لحظة .. انك تبكين حتى وانت نائمة .. ان الدموع لا تغير ما كتبه القدر .. هلمي . الا تريدين ان تري صديقا عزيزا ؟..

وتذكرت فؤاد .. احقا فؤاد قد جاء .. يالها من فرحة قد تخفف عنها بعض احزانها وتوفر لعينيها بعض الدموع .. فؤاد حقا .. انها ستكون سعيدة ..

ولاحظ حسين ان منى قد شطحت بافكارها فقال لها :

- منى .. ما بالك .. انك لم تسأليني عن الصديق ومن يكون ..

فقالت له :

- حقا .. لقد نسيت نفسي .. من يكون هذا الصديق ؟..

- من تريدينه ان يكون ؟..

- لا استطيع ان اخمّن ..

وادنى حسين وجهه من وجهها وكأنه يود ان يقول لها سرا .. ثم هتف :

- يوسف .. لقد عاد من بيروت ..

وارتجف قلب منى وجسدها .. لم تكن تتوقع ان يكون يوسف . ولم تدر اهي قد اصيبت بخيبة امل .. ام ان المفاجئة هي التي هزت مشاعرها .. وتركت سريرها وقالت لاخيها:

- يوسف .. جاء من بيروت .. كيف حاله؟..

- انه في حالة يرثى لها ..

- يا للمرحومة حنان .. لقد كانت تنتظره بين لحظة واخرى.

- هيا بنا الى اسفل .. لا تزيدي احزانه .. حاولي ان تخففي عنه الصدمة ..

ونظرت الى اخيها والحزن باد على محياها ثم قالت :

- وهل استطيع حقا ان اكذب على نفسي .. ان اخفف عنه الصدمة التي تعصر فؤادي ..

ونزل الاثنان حيث كان يوسف جالسا .. يتأمل سعاد .. لقد رأى فيها صورة لحبيبته الراحلة فاخذ يهيم بخياله الى الزمن البعيد الذي رأى فيها حنان وهي لا تزال طفلة كسعاد .. ووقف يوسف فجأة وهو يشاهد منى .. ومد يده ليصافحها وهو يسأل نفسه اهذه منى حقا ؟.. لقد تغيرت كثيرا .. بل كثيرا جدا .. يالقسوة الايام . وفي نفس الوقت كانت منى تردد نفس الكلمات وهي تستنكر ان يكون هذا الوجه الذي فارقته النضارة والوسامة هو وجه حبيبها الاول يوسف .

والتقت ايديهما وعيونهما . وشعرت منى بالايام تنقلها الى ماض لا تستطيع ان تعيش فيه، بينما لم يستطع لسان يوسف سوى ان يقول :

- منى .. البقية في حياتك ..

وعاودت منى الرغبة في البكاء .. لقد اصبح لديها شيئا عاديا . بل تعتقد ان الدموع هي من الله ليطفئ بها الانسان احزانه .. ولكنها تمالكت نفسها وقالت :

- تعيش ..

وسكتت لحظة ثم قالت :

- الحمد لله على السلامة

ولم يشأ الدكتور ان يترك المجلس يتحول الى مناحة فبادر يوسف قائلا ..

- ما رأيك في المشروع يا حضرة المهندس ؟.. الا ترى انني وفقت فيه ؟..

فقال له يوسف :

- في الحقيقة يا دكتور انك كنت رائعا .. نعم انت ضحيت ، ولكن بعملك هذا قطعت خط الرجعة على اليهود .. من كان يصدق ان المزرعة ستتحول الى بلد وبهذه السرعة العجيبة .. ولقد اعجبني تحمس والدي وتقليده لك .. كنت اتمنى ان يترك لي شجرة احببتها وعشت تحتها اجمل ايام حياتي .. بحثت عن موقعها بالامس .. اتدري ماذا وجدت هناك ؟..

وتذكرت منى الشجرة التي كان يجلس يوسف تحتها .. وتذكرت ايضا الشجرة التي كانت تختبئ خلفها مع حنان .. وعنفت نفسها لانها لم تحاول البحث عن موقعها . وتذكرت ان حب يوسف لحنان هو الذي دفعه للبحث عن موقع الشجرة قبل ان يأتي للسؤال عنها .. ولربما عاش مع تلك الشجرة طيلة الايام التي قضاها بعيدا عن حنان . وشعرت انها راغبة في معرفة ماذا اصاب تلك الشجرة .. وبماذا بدلتها الايام فقالت ليوسف :

- ماذا وجدت في مكان الشجرة ؟..

- وجدت نفسي ..

- ماذا ؟..

- اجل .. لقد اقتلعتها الايام .. ولم تترك لها اثرا .. وقفت في المكان الذي قدرت انها ازدهرت فيه .. ودرت بعيني كيما ارى شيئا .. فلم اجد سوى نفسي .. واثناء وقوفي ترامى الى اسماعي صوت ناي حالم .. اعقبه صوت جميل ما لبث ان تلاشى مع هدير مطرقة الحداد الذي اتخذ ذلك الجزء من بيارتنا مسكنا له ..

ودهش الدكتور .. وخيم الصمت لحظة بينما كانت انظار حسين ومنى مسلطة على يوسف الذي طأطأ رأسه محدقا في ارض الغرفة .. ثم رفع رأسه وقال:

- حنان لماذا لم ترسلوها الي ؟..

وتذكر حسين يوم ان استعد فؤاد لاخذها معه .. ثم اعتذر .. بينما اخذت منى تعنف نفسها .. انها السبب في كل ما اصاب هذا البيت .. لولاها .. لولا انسياقها وراء رغبات قلب جامح لما وصلت بهم الحال الى ما هو عليه من أسى .. لو انها لم تغادر المزرعة يوم العدوان لكانت قد استراحت .. لكانت قد اصبحت في عداد من ذهبوا . او ربما لم يكن الانجليز يقصدون قتلهم لولا انها اثارت رجال القرية..

ورد الدكتور على سؤال يوسف بصوت يختنق :

- انها ارادة الله ..

وتمتم يوسف قائلا :

- انا لله وانا اليه راجعون ..

واراد الدكتور ان يغير اتجاه الحديث فقال :

- في لبنان .. الى أي مدى يتجاوب العرب هناك مع الثورة هنا ؟..

- انهم يعيشون مع الثورة بكل جوارحهم .. هذا في لبنان .. اما في دمشق .. فلا تسأل .. انهم لا يشاركون معنويا فقط بل وماديا .. لا يأبهون لبطش السلطات الفرنسية الظالمة ..

فسأله الدكتور :

- وفي الجامعة .. ما هو الشعور السائد بين الشباب ؟..

- سخط دائم على الاوضاع ، ومظاهرات شاملة اقتضت طرد الكثيرين من الطلبة .. ولكن النهاية ستكون في صالحنا .. فالثورة تعتمد على اسس متينة . والانجليز فقدوا هيبتهم وسيطرتهم على البلاد . واليهود ملأ قلوبهم الرعب، والثوار الابطال يغذون السير في دروب النصر مرخصين دمائهم .

وهز الدكتور رأسه .. انه يعرف كل هذا، ولكن النتيجة . وتململت منى في مقعدها ثم قالت :

- والى متى سنظل نعيش في هذا القلق المميت ؟..

فقال يوسف :

- ان الانجليز لابد وان يستجيبوا لرغبات العرب .. فالعاصفة ستجتاحهم الى ان يسارعوا الى ايجاد حل حاسم للقضية ..

فعادت منى تقول :

- متى ستنتهي المخاوف .. لقد كنا نعيش في بيت تحيط به الاشجار ومع ذلك كان الامن يسيطر على قلوبنا .. وها نحن محاطون بالناس والرجال .. ومع هذا فانا دائمة الخوف ..

فقال الدكتور .. وكل همه ان يبث الافراح في نفس منى :

- ان لجنة التحقيق الاخيرة التي ارسلتها حكومة بريطانيا لن تكون كسابقتها .. سوف تلغي مشروع التقسيم وتقرر قيام دولة عربية في فلسطين .. وهذا هو الهدف الذي من اجله قامت الثورة ..

فقالت منى :

- ولكن .. هل سيرضى اليهود بذلك ؟..

فضحك الدكتور وقال :

- وهل يستطيعون عمل شيء ؟.. بريطانيا هي التي خلقتهم هنا .. وهي التي تحميهم .. انها لو قالت لهم سأترككم وسأسلمكم للعرب .. فلن يبقى في فلسطين يهودي واحد ..

وعلت وجه منى اشراقة امل ما لبث ان انطفأت وهي تستمع الى صوت سعاد تقول :

- ابي .. ابي .. اليس اليهود هم الذين قتلوا امي واخي وحيد ؟..

ومد الدكتور يده ليحتضن سعاد ولكن يوسف كان قد سبقه الى ذلك وقال لها :

- لا تفكري بذلك يا عزيزتي .. لقد احضرت لك لعبة جميلة من بيروت .. هل ستأتين معي الى البيت لأخذها ؟..

فقالت سعاد وقد تهلل وجهها بالبشر ..

- اجل .. سأتي معك ..

ووقف يوسف مستأذنا بالذهاب وسار الدكتور الى جانبه بينما كانت يد سعاد لا تزال مشتبكة مع يده فقالت عندما انحنى يوسف ليقبلها مودعا :

- متى سآتي لأخذ اللعبة ؟..

فقال لها :

- غدا سوف تأتين لزيارتنا مع والدك وعمتك ..

ثم وقف يوسف وعاد يؤكد لحسين ومنى انه سيستقبلهم غدا ليتبادلوا معا طعام العشاء.

(28)

لم يستطع عبد المجيد بفكاهاته ونوادره ان يطمس الجو الكئيب الذي ساد الجميع وهم يتناولون العشاء .. كان يقف تارة ليصيح ..

- يا ام سامي .. اين رأس الديك ؟.. لقد سمعت ان من يأكله يطول عمره ..

فترد عليه مكتئبة :

- الاعمار بيد الله ..

ويعود محاولا ان يفرض المرح على الجميع فيقول :

- انتبهوا .. ثم يوجه كلامه الى منى قائلا :

- استمري في الاكل .. وانتم لاحظوا كيف تأكل .. انها لا تمضغ الطعام بل تزدرده .

ورغم برودة الفكاهة فقد ضحكت منى .. فقد كانت الطريقة التي تكلم بها عبد المجيد وحركاته المصاحبة تنزع الضحك .. ولكن الحزن عاد وخيم . وتأكد عبد المجيد انه ليس باستطاعته ان يخدعهم ويخدع نفسه .. انه يعيش نفس المأساة التي يعيشونها .. ولكنه اعتاد ان لا يشكو همه لغير الله ..

وما ان انتهت سعاد من طعامها حتى قالت ليوسف :

- لقد شبعت يا عمي .. فأين اللعبة ؟..

فقال لها يوسف :

- الا تنتظرين حتى اشبع انا الآخر ..

ووجد عبد المجيد ان الوقت مناسب ليضحكهم فقال :

- الم تشبع بعد ؟.. عجبا .. لقد شبعت منى وانت لا تزال تأكل ..

ولم تكن منى قد شبعت .. بل كانت لا تزال تلتهم الطبق الذي امامها .. فقالت :

- ماذا يا يعني .. هل تريدني ان اشبع ..

فقال مستغربا :

- الم تشبعي .. لقد سمعتك تحمدين الله وتمسحين يديك ..

فنظرت اليه ضاحكة ثم عادت تلتهم الطعام قائلة :

- لقد خيل اليك .. سآكل حتى لا يبقى شيء امامي .. انني اعتدت ان اترك الصحن الذي امامي نظيفا .. اليست النظافة من الايمان ؟..

ووقف عبد المجيد وهو يقول ..

- اجل من الايمان ويظهر انني قليل الايمان .

فحدقت منى في صحنه .. لم يكن هناك اثر للطعام فيه فقالت :

- لكي تكون قوي الايمان يجب ان تأكل الصحن ايضا .

وحمد حسين الله معلنا انه فرغ من تناول طعامه واتجه ليغسل يديه ..

انتهى الجميع من تناول طعام العشاء . واتجهوا الى صالة البيت حيث اخذ الحديث طريقه بين كل اثنين على حدة .. كان يوسف يحتضن سعاد ويداعبها وهي تحتضن اللعبة التي احضرها لها .. بينما كانت منى غارقة مع عمها في حديث مرح . ورغم الضحكات التي كانت تنطلق بين آونة واخرى من افواه عبد المجيد ومنى وسعاد .. فان غيمة الحزن كانت لا تزال تظلل البيت . وكان الحديث يدور بين الدكتور وام سامي . وبهت الجميع عندما قالت :

- مسكين سامي .. لقد مات دون ان يخلف اثرا .. كنت اتمنى ان ارى له ولدا ..

والتفتت منى الى عمتها ، وارتسمت ضحكة كادت ان تنطلق من بين شفتيها . ونظر يوسف الى امه ، ثم التقت عيناه مع عيني منى ، ولم يلبث ان طأطأ رأسه وعاد ينظر الى وجه سعاد .. وهو يحتضن احدى يديها بين يديه . اما حسين فاخذ يهز رأسه ثم نظر الى يوسف وقال:

- البركة في يوسف .. غدا سيملأ عليك البيت ..

واتجهت انظار ام سامي ناحية منى التي حملتها افكارها الى ماضي بعيد وقالت :

- ولكن يوسف لا يريد الزواج ..

فقال عبد المجيد ..

- لا تصدقيه .. انه سيتزوج ..

ورد يوسف قائلا :

- لا اظنني سأفعل ..

فقال له حسين ..

احقا تقول .. انك مخطئ .. بعد فترة ستنسى كل شيء وستتزوج ..

فنظر يوسف الى الدكتور نظرة جادة وقال له :

- وهل ستتزوج انت يا دكتور ..

ونظر الدكتور الى سعاد التي كانت تحتضن لعبتها وتبادل والدها النظرات وقال :

- لولا هذه الصغيرة لما احجمت عن الزواج في يوم ما .. سأربيها وساعيش لها .. لا اريد لها ان تعرف الحقد .. والقت ام سامي بيدها على كتف منى وقالت :

- منى .. لقد كنت غالية علينا . انت الذكرى الوحيدة التي خلفها المرحوم . وارجوك ان تقبلي طلبي وتوافقي على الزواج من يوسف ..

ووقفت منى فجأة .. واعتلى وجهها احمرار رهيب سبقه اصفرار غاضب ثم قالت :

- احقا تقولين .. اتفكرين في الزواج والاولاد ولم تمض على المجزرة خمسة اشهر .. يالقسوة القلب .. انني لا احتمل .. انا لن اتزوج ابدا ..

ووقف الدكتور واتجه الى اخته والقى يده على كتفها وقال :

- منى .. لا تثوري .. ان ام سامي تمزح .. انها تريد ان تعرف الى أي حد وصلت معزة المرحوم عندك ...

وتذكرت منى زوجها .. هل كانت تعزه حقا ؟.. من يصدق الحقيقة ؟.. وتذكرت فؤاد .. فازداد دبيب قلبها وتصبب العرق من جبينها .. فأخذت تمسح وجهها بيديها ثم نظرت الى يوسف .. لم تر فيه اول حب دخل قلبها .. انه في نظرها تماما كأخيه ... وهي لا تريد للمأساة ان تتكرر .. وهي لا تستطيع ان تتزوجه .. انه هو نفسه لا يود الزواج منها ولا من غيرها .. وهي لن ترضى ان تفرض نفسها عليه . بل ولن ترضى له ان يفرض نفسه عليها . انها ستنتظر من تحب ولن ترضى عن فؤاد بديلا ..

غادر حسين وشقيقته وابنته البيت . بينما اخذ عبد المجيد يعنف زوجته ويؤنبها لسوء تصرفها .. فقالت له :

- لم اكن اتوقع ان تثور الى هذا الحد .. ولا ارى اية مبرر يدعوها للغضب .. ابننا مات .. وحزنها عليه لن يصل مهما بلغ الى مدى حزننا عليه ..

فقال عبد المجيد :

- ولكنك وجهت اليها اهانة .. الم تعلمي ذلك ؟..

فقالت ام سامي :

- اهانة ..

- اجل اهانة .. هل كنت تتوقعين ان توافقك منى .. لم تكن قد مرت لحظة على قول يوسف انه لا يريد ان يتزوج .. ثم تاتي انت لتعرضي عليها الزواج منه . ماذا كنت تظنينها ؟..

فأخذت ام سامي تتأوه حزينة وقالت :

- لقد اخطأت فعلا .. لم اكن اقصد ان احرجها .. لقد احرجت نفسي ولولا الدكتور لذبت خجلا وهي ترفض طلبي ..

واقبل يوسف الذي كان قد ذهب لتوصيلهم الى البيت . ورأى الحزن المرتسم عل وجه والدته .. لم يشأ ان يعنفها او يلقي عليها بملامة .. لقد شعر ان والده قد فعل ذلك وبادرته والدته قائلة :

- يوسف .. انني آسفة عما حصل ..

فرد عليها قائلا :

- حصل خير .. يا اماه .. لا تزعجي نفسك

(30)

القت ام عثمان جسدها عند قدمي الدكتور حسين باكية واخذت تصيح :

- زوجي يا دكتور .. زوجي ..

فقال لها الدكتور :

- ما باله .. ماذا حصل ؟.. مم يشكو ؟.. لا داعي لكل هذا الصراخ ..

وارتفع صراخ ام عثمان .. قالت :

- زوجي سيقتلونه .. سيعدمونه .. المجرم سعيد .. المجرم ..

وخرجت من فم الدكتور كلمات خافتة مستفهمة :

- سعيد .. ماذا فعل ؟..

- لقد وشى بزوجي .. وشى بأخيه هذا المجرم ..

- سعيد وشى بأخيه ..

اجل .. لقد عملها الخائن .. لقد عملها .. انهم سيعدمون زوجي .. ارجوك يا دكتور .. انقذني .

وهز الدكتور رأسه .. ثم عاد يسأل :

- وهل حضر الجنود ؟..

- لقد اخذوا زوجي ..

- اخذوه .. وهل وجدوا لديه سلاحا ؟..

- قنبلة .. لقد وجدوا قنبلة .. من أين جاءت ؟.. من أين وصلتنا ؟.. لا ندري .. لابد ان يكون هو الذي وضعها ثم اخبر الانجليز ..

فسألها الدكتور ..

- ولكن لماذا يفعل سعيد ذلك ؟.. لماذا يشي بأخيه ؟..

فصاحت ام عثمان :

- ليس هذا وقته يا دكتور .. ليس هذا وقته . المهم ان تنقذ زوجي اولا .. ارجوك .. حاول تخليصه قبل ان يعدموه ..

وكان الدكتور يعلم انه ليس باستطاعته ان يفعل شيئا . فمن وقع في يد الانجليز بتهمة امتلاك الاسلحة لا بد ان يلاقي حتفه .. ولكنه اراد ان يعرف الدافع الذي يجعل سعيد يشي بأخيه فعاد يسالها :

- لا تكوني متسرعة .. يا ام عثمان .. هيا اجلسي وتكلمي بصراحة حتى استطيع ان افعل شيئا ..

فرفعت ام عثمان جسمها من على الارض وتحاملت على ساقيها والقت بجسمها على المقعد الذي اشار اليه الدكتور .. وقالت :

- منذ حوالي شهر وسعيد يحاول اقناع اخيه ان يبيع قطعة الارض التي حولها ابو عثمان الى بيارة منذ العام الماضي .. وابو عثمان مصر على عدم بيعها .. كان يقول لاخيه .. ان هذه الارض لا تزال تحمل اسم والدنا الذي قضى طول حياته يعمل ليتركها لنا .. فلا يجوز ان نفرط فيها ابدا ..

ولكن سعيد كان مصرا على البيع ..

فسألها الدكتور :

- ولماذا يريد سعيد بيع الارض ؟..

- انه ينوي السفر الى اميركا ..

فهز الدكتور رأسه وقال :

- ثم ماذا حصل ؟..

- كان سعيد يقول لأخيه .. نبيع الارض فهي بعيدة عن القرية وقريبة من ارض اليهود وتأخذ انت حصتك وتشتري بها احسن قطعة قريبة من القرية

فسأل الدكتور :

- وهل كان سعيد ينوي بيع البيارة لليهود ؟

- كان هذا اول الامر . ولما وجد ان اخاه مصر على عدم البيع وخصوصا لليهود اخبر اخاه انه وجد مشتريا عربيا للأرض ..

فهز الدكتور رأسه .. تذكر العرض الذي قدم له من احد السماسرة في يوم مضى .. واستمرت ام عثمان في حديثها فقالت :

- ولم يوافق زوجي على بيع الارض للعرب ايضا .. وقبل يومين وصل بينهما الامر الى حد النزاع والتهديد .. ثم جاء بالامس بحجة انه جاء ليعتذر من اخيه الكبير ..

وثارت ام عثمان فجأة عندما وصلت الى هذا الحد من حكايتها ، ووقفت ثم اخذت تصيح ..

- انه هو .. تصنع انه جاء للاعتذار حتى يدخل البيت ويترك القنبلة .. المجرم يجب ان انتقم منه .. لو حصل لزوجي شيء فساقتله ..

واخذ الدكتور يهدئ من روعها بينما كان يبحث في عقله عن وسيلة ينقذ فيها البريء. وجاءت نظرات ام عثمان الشاردة ، وآهاتها التي ملأت الغرفة بالالم ، تعيق الدكتور عن التفكير . انه لا يدري ماذا يصنع ليهدئ من روعها ويطمئنها . اخذ يبحث عن وسيلة لعمل ايجابي ينقذ زوجها ؟.. وسالها الدكتور :

- من تركت في بيتكم ؟..

فقالت له :

- عثمان ابني ..

- وسعيد اين هو ؟..

- في بيته .. على ما اعتقد ..

- الم يحضر ساعة قدوم الجنود ؟..

- لا ..

- اذهبي الى بيتك الآن .. وسأحضر الى هناك بعد قليل ..

واتجهت ام عثمان الى بيتها واتجه الدكتور الى بيت سعيد . فطرق الباب لكن احدا لم يفتح له .. فعاد يطرق الباب بشدة .. وبعد لحظات استمع الى صوت اقدام ناحية الباب .. ثم فتح الباب وظهر سعيد .. وبهت سعيد من المفاجأة وقال :

- دكتور .. خيرا ان شاء الله ..

- أين هو الخير ؟.. هل علمت بما جرى ؟..

- ماذا جرى ؟.. قل

- اظنك تعلم بذلك .. لقد طرقت الباب حتى كدت ان ايأس .. لماذا تأخرت في فتحه ؟..

- كنت احاول النوم ..

وشعر الدكتور بوجود حركة في الداخل فنظر الى سعيد وقال :

- انك لم تدعني للدخول .. اريد ان اتكلم معك ..

وتلفت سعيد خلفه كان الباب ينفرج قليلا بحيث يسمح لجزء من جسم سعيد ان يظهر .. ولم يدر سعيد ماذا يفعل .. ان الدكتور رجل ذو مركز عظيم في البلدة .. انه لا يستطيع ان يمنعه من الدخول . ولكن الرجل الذي بالداخل .. ماذا يقول للدكتور عنه .. لماذا لا يقول انه صديقه انها فكرة ..

وابتسم سعيد وهو يفتح الباب ويقول :

- تفضل .. البيت بيتك يا دكتور ..

وتقدم الدكتور بخطوات وئيدة .. ثم جمد في مكانه فجأة .. لقد وقع بصره على الرجل الذي كان داخل الغرفة .. ووقف الرجل مندهشا من شدة المفاجئة وصاح الدكتور :

- انت .. ما الذي جاء بك الى هنا ؟..

وابتسم الرجل ابتسامة خوف .. وقال :

- عملي ..

واتجه الدكتور الى سعيد الذي اخذ الخوف يسري في اوصاله .. وقال :

- انه صديقي ..

وضحك الدكتور بسخرية وقال :

- صديقك حقا .. انه نعم الصديق .. كيف واين تعرفت عليه ؟..

ووجم سعيد .. ماذا يقول .. وخرجت من فمه حروف متقطعة ..

- لقد .. لقد ..

ولم يدعه الدكتور يكمل حديثه .. فقد كان يعلم انه ليس عنده أي شيء يقوله .. فقال له :

- لقد جاء ليشتري منك الارض .. اليس كذلك ؟.. ولقد كان صديقي في لحظة ما .. جاء ليشتري مني الارض ايضا ..

ثم اتجه الى الرجل السمسار وقال له :

- انت ايها الرجل .. انج بجلدك .. لو كنت املك الوسيلة لما ترددت عن قتلك الآن .. انني لا اضمن وجود الضمير عند هذا الرجل .. واشار الدكتور الى سعيد الذي حاول ان يتكلم فلم يسعفه لسانه ووقف السمسار وقال لسعيد :

- الا ترى .. ان الدكتور يريد قتلي .. ولكن لا يهمك .. تعال غدا الى يافا وسنسوي الامر بسرعة ..

ثم حول السمسار حديثه الى الدكتور وقال :

- وانت يا دكتور .. عم مساءً .. واشكرك على وطنيتك وانسانيتك ..

وتركه الدكتور ينصرف ثم جذب سعيد من ذراعه ودفعه الى احد المقاعد وصاح به ..

- يا حقير .. لقد بلغت قمة النذالة .. ليس امامك سوى طريق واحد للتكفير عن ذنبك الشنيع .. يجب عليك ان تقول الحقيقة للانجليز وان لم تفعل سيعدم اخوك .. ولن تعيش انت .. لن تعيش ..

ونظر سعيد الى الدكتور .. ممتلئا بالخوف .. وهو يشاهد الغضب المنبعث من نظراته واخذ عرقه يتصبب غزيرا .. وحاول سعيد الوقوف فركله الدكتور بقدمه وصاح به :

- لا تتحرك من مكانك .. ايها المجرم انت تريد لأخيك الموت .. تيتم اطفاله وترمل زوجته لترث الارض الطيبة ايها الوغد .. لقد حكمت على نفسك بالتعاسة .. قم .. هيا لتذهب فورا الى قسم البوليس وتقول الحقيقة ..

فأخذ سعيد يبكي وهو يقول :

- انهم سيقتلوني .. سيقتلوني ..

فقال الدكتور متهكما :

- وماذا كنت تظنهم سيفعلون بك ايها المغفل .. هيا سر امامي ..

واخذ سعيد يسير وكأنه مقيد.. وفكر في ان يهرب من الدكتور ولكن الاخير لم يدع له الفرصة ..

واتجه الدكتور بسعيد الى بيت ابي عثمان . وجد جمعا غفيرا من الرجال والنساء يحيطون بأم عثمان الباكية وصغارها المنتحبين . ووجم الجميع لمنظر سعيد . واخذوا ينظرون اليه بغيظ وحقد . وانتفضت ام عثمان من وسط النساء وصاحت :

- المجرم .. السافل ..

وتوجهت انظار الجميع الى الدكتور الذي قال :

- ان سعيد سيكفر عن ذنبه .. سيذهب ليقول لضابط القسم عن الحقيقة وبذلك سيطلق سراح ابي عثمان ..

إطمأنوا ..

وصاح احد الرجال:

- يا دكتور .. لا تدعه يهرب ..

فقال له الدكتور:

- لا تخف ..

فعاد الرجل يقول:

- اسمع يا سعيد .. اذا لم تقل الحقيقة فسوف نقطعك اربا ..

ونظر سعيد الى زوجة اخيه الثائرة والى اولادها الثلاثة الذين التصقت اجسادهم بالارض وصرخت عيونهم بالأسى القاتل.. ورأى نظرات النساء تنصب عليه باحتقار مذيب. بينما كانت اعين الرجال تكاد ان تحرقه بنظراتها .. فاتجه الى الدكتور وقال بصوت مرتجف .. الا نذهب يا دكتور ..

فأخذ الدكتور يجره من يده ثم التفت وقال:

- يا ابو خالد ..

فنظر اليه هذا وقال له:

- خيرا يا دكتور ؟..

- هل يمكن ان تأتي معنا ..

- اجل يجب ان افعل..

واتجه الثلاثة الى سيارة الدكتور وجلس الدكتور خلف المقود وترك سعيد يجلس بينه وبين ابي خالد .. كان يخشى ان يهرب منه .. ومضت السيارة الى يافا بينما كان سعيد يحاول ان يجد حلا ينقذ به نفسه ..

(31)

جلس ابو خالد داخل السيارة ينتظر بينما دخل الدكتور وسعيد الى قسم البوليس. وطلب الدكتور من احد الحراس ان يسمح له بمقابلة الضابط لأمر هام.. واتجه الحارس بالاثنين ثم فتح باب احدى الغرف واشار لهما بالدخول..

نظر الضابط الانجليزي اليهما وقال:

- ماذا هناك ؟..

فقال الدكتور:

- لقد اعتقلت السلطات رجلا من قرية سلمة بتهمة وجود اسلحة في بيته..

وصاح القائد:

- وانت ماذا تريد ؟. هذه امور لا يجوز لاحد ان يتدخل فيها..

فعاد الدكتور يقول:

- ارجوك يا حضرة القائد.. انكم تريدون تحقيق العدالة.. لقد ظلم الرجل..

ولمعت عينا سعيد وسيطر على عقله خبث الجريمة فصاح كالمظلوم:

- سيدي القائد.. سيدي القائد.. ان الذي ظلمتموه هو اخي.. لقد عرفت الحقيقة بعد ما اعتقلتموه.. لقد وضع هذا الرجل القنبلة في بيت اخي.. لقد اعترف لي بذلك وجاء ليكفر عن جريمته..

وصعق الدكتور وهو يستمع الى صوت سعيد.. لم يكن يتوقع مثل هذه المفاجأة.. فصاح..

- لا تصدق يا سيدي.. انه هو الذي فعل ذلك وقد جاء ليعترف بالحقيقة.. ولدي شهود اثبات.. جميع اهالي القرية عرفوا الحقيقة..

فهز الضابط رأسه وقال:

- لا تهمني الحقيقة.. لقد وجدنا الاسلحة في بيت الرجل فقبضنا عليه وسنعدمه.. اما انت (واشار الى سعيد) فتقول ان هذا هو الذي وضع السلاح في بيت اخيك.. اظنك على حق.. يجب اعدام هذا الرجل ايضا..

وحاول الدكتور ان يدافع عن نفسه فصاح القائد..

- لا تتكلم.. لقد قلت انه هو الذي وضع القنبلة في بيت اخيه.. ولماذا اعتبرك كاذبا.. سأعدمه هو الآخر ارضاء لخاطرك.. ثم قرع الضابط احد الاجراس وجاء احد الحراس فقال:

امرك يا سيدي..

فقال له الضابط:

- خذ هذين المجرمين الى السجن ..

ولم يدع الحارس للدكتور فرصة الكلام .. فأخذ يشده وقال له :

- سر امامي .. ولا تتكلم ..

واخذ الدكتور ينظر الى سعيد نظرات حاقدة بينما كان وجه سعيد مسلطا على الارض لا يستطيع تحريكه .. وقال الدكتور لسعيد ..

- هل يرضيك ما فعلته ؟..

فصاح الحارس :

- قلت لك لا تتكلم ..

فمد الدكتور يده الى جيبه واخرج ورقة مالية ودسها في يد الجندي الذي قال له :

- اليس معك غيرها .. انهم في السجن سيأخذون منك كل شيء .. والاحسن ان تعطيني ..

فقال له الدكتور ..

- سأعطيك كل شيء على ان تؤدي لي خدمة ..

- ماذا تريد ؟..

- توجد خارج مدخل السجن سيارة سوداء .. بداخلها رجل اود ان اتحدث معه ..

فقال الحارس :

- لا استطيع ان اذهب الى هناك ..

- دعه يأتي الى هنا

- كيف ؟..

قل لاحد اصدقائك ان يستدعيه ..

فصاح سعيد :

- ماذا ايها الحارس .. انني سأخبر القائد .. لقد اخذت رشوة .. وسأجعله يعاقبك ..

وصفعه الجندي بشدة وصاح بصوت مرتفع :

- أيها العربي الحقير .. تشتم حكومة صاحب الجلالة وتشتم القائد .. سوف ترى العذاب الذي ينتظرك .. ووجم سعيد للتهمة التي وجهت اليه .. لم يستطع ان يقول كلمة ونادى الحارس احد اصدقائه وقال له :

- هل تتكرم بخدمة ..

فأجابه صاحبه بالقبول فقال :

- خارج مدخل القسم توجد سيارة وبداخلها رجل ..

اتجه الحارس الى الدكتور وقال له :

- ما اسم الرجل ؟..

- ابو خالد

فاتجه الحارس الى صاحبه وقال له :

- اسم الرجل ابو خالد .. قل له ان يأتي لمقابلة صاحبه ..

وذهب الجندي الانجليزي وعاد بعد قليل والى جواره ابو خالد وقد علا وجهه الاستغراب .. فقال له حسين ..

- ابو خالد لقد حدث ما لم يكن بالحسبان .. سعيد اتهمني بوضع القنبلة في بيت اخيه ..

فنظر ابو خالد الى سعيد وقال له :

- ايها المجرم .. اوصلت بك الحقارة الى هذا الحد .. سوف تنال جزاءك ..

ولم يتكلم سعيد بينما قال الدكتور :

- اسمع يا ابو خالد .. اخبر اهل القرية بما جرى .. لا ادري ان كانوا سيعدموننا كما قال الضابط ام لا .. انهم لا يتورعون عن ذلك .. ارجوك .. قل لمنى شقيقتي وسعاد ان تحضرا غدا اريد ان اراهما قبل ان اموت ..

وطفرت دمعة من عين ابي خالد الذي اتجه الى سعيد وصاح به غاضبا :

- يا نذل ..

وذهب ابو خالد بينما اتجه الحارس بالدكتور وسعيد الى السجن بعد ان اخذ من الدكتور كل ما معه ..

استلقى الدكتور داخل الزنزانة التي وضعوه بها واخذت تدور براسه دوامة من الافكار السوداء وتراءت له صورة المجزرة الرهيبة التي سلبت منه معظم اهله .. انه على مقربة منهم الآن .. وتراءت صورة ابنته الصغيرة سعاد .. يالها من مسكينة ستعيش بقية حياتها يتيمة .. وتذكر منى .. شقيقته التي فقدت كل انسان عزيز .. والدها .. وزوجها .. وهاهو اخيها يلحق بهم .. يا للقدر الذي لا يرحم هذه الفتاة وغرقت عينا الدكتور بالدموع بينما بدأ عقله يفكر فيما عسى ان يحمله الغد . واخذ يتمتم محاورا ذاته .

- سعاد .. حبيبتي .. ليس بيدي اني سأتركك وحيدة .. انه امر الله .. عمتك منى ستكون الى جانبك لن تدعك تحسين بالوحدة .. كوني مطيعة لها .. وانت يا منى .. انني اترك سعاد امانة في عنقك .. ولكنك لا تزالين صغيرة .. قد تتزوجين يوما .. فماذا سيصل اليه امر سعاد هل ستضيع تحت اقدام زوجك ..

ومرت في خيال الدكتور صورة يوسف فقال :

- يوسف .. يوسف .. انت الذي يستطيع ان ينقذني .. تستطيع ان تمنحني الراحة .. سعاد .. ومنى .. امانة في عنقك .. ستكون منى لك نعم الزوجة .. ان كانت قد رفضت ذلك منذ مدة فلا أظنها ستخيب رجائي .. اما انت فارجوك انت تفعل ما اطلبه منك .. ان كنت تضحي بشيء فمن اجل راحتي .. راحة المرحومة حنان التي احببتها طيلة حياتك .. ايرضيك ان ترتمي زوجة المرحوم اخوك في احضان رجل آخر .. وسعاد ابنتي .. ماذا ستخبئ لها الايام .. انت الوحيد الذي يستطيع انقاذها .. انت الوحيد ..

وعلا صراخ في تلك اللحظة وارتفع صوت يحطم سكون الظلام وانتفض الدكتور واقفا في زنزانته الضيقة لقد عرف صوت سعيد .. واخذ الحراس يتجهون ناحية الصوت الذي تعالى بهدير الفاظ خاوية المعاني ..

فهو تارة ينادي اخاه .. وتارة ينادي الدكتور وتارة يقول .. انا مجرم .. ثم يهدأ لحظة ليعود الى صراخه ..

وسمع الدكتور احد المساجين يسأل احد الحراس :

- ماذا حدث ؟..

فقال الحارس :

- لقد اصيب احد المساجين بالجنون ..

- حقا .. وماذا سيفعلون به ؟..

- سينقلونه الى سجن عكا ..

- المسكين .. لقد اقتربت نهايته ..

فقال الحارس :

- اطمئن لن يبقوا عليه سيريحونه حال وصوله ..

واخذ الدكتور يهمس محدثا نفسه :

- يا لها من نهاية ..

اقبل في صباح اليوم التالي جمع غفير من اهالي القرية يريدون الاستفسار عما حدث للدكتور. وكانت منى وسعاد ترتجفان من الخوف ، بينما اخذ يوسف يهدئ من روعهما .. ولم يسمح الحراس لكل هذا الحشد بزيارة السجن .. اثنين فقط وعلى الدكتور ان يختارهما ..

وطلب الدكتور مقابلة يوسف واخبره بالحكاية والحالة العصبية التي وصل اليها سعيد واخذ يسرد القصة التي اعد كلماتها طول الليل وانهالت الدموع من عيني يوسف وهو يعد الدكتور ان يفعل ما اراده بينما تهلل وجه الدكتور بالبشر واقبلت منى فصاح بها :

- منى .. منى اين سعاد ؟..

- انها في الخارج لم يسمحوا لها بالدخول ..

- ارجوك .. افعلي أي شيء اريد ان اراها .. اين حبيبتي اريد ان اراها قبل ان اموت ..

وعلا صراخ سعاد في الخارج وهي تصيح راجية ان يسمحوا لها برؤية والدها .. وادخلها احد الحراس تخلصا من صراخها فألقت بنفسها على القضبان تقبل يدي والدها بينما اخذت منى تحضنها وهي تبكي .. وقال الدكتور لشقيقته :

- منى .. ارجوك .. انت كل ما بقي لسعاد في هذه الدنيا .. انني اتركها امانة في يدك وفي يد القدر . لم اجد غير وسيلة اضمن بها لك ولها عيش رغد وسلام ..

والقت منى بنفسها تريد ان تخترق القضبان .. انها لا تريد ان تصدق ان اخاها سيموت .. يا للظلم وهتفت :

- اخي .. انك ستعيش .. ستعيش .. لن تموت ..

فقال لها:

- لنعيش في الواقع .. ان الانجليز لا يرحمون .. ارجوك .. واتوسل اليك ان تقبلي رجائي .. ان يوسف هو الانسان الوحيد الذي يستطيع اسعادك واسعاد ابنتي. لقد وعدني بذلك .. هل تقبلين انت الاخرى ان تكوني له نعم الزوجة .. ارجوك ..

ونسيت نفسها .. نسيت فؤاد .. نسيت كل شيء في الدنيا .. الآن اخيها سيموت .. لا .. انها لا تريد ان تصدق ذلك .. وعادت تلقي بنفسها على القضبان ثم اخذت تحتضن ابنة اخيها بحرقة ودموعها تنهمر وتشنجها يعصر المآقي .. فقال الدكتور :

- منى .. انك لم تعديني .. اريد ان اتركك وانا مرتاح الضمير .. هل ستقبلين بيوسف ..

وهزت رأسها موافقة بينما اقترب احد الحراس واخذ يشدها بقوة طالبا منها ان تنصرف .. وبقسوة بالغة انتزع الحارس كفي سعاد اللتين تشبثتا بالقضبان لتبقى الى جوار والدها ..

(32)

كان على يوسف ان يعود الى بيروت بعد فترة وجيزة لاتمام دراسته وخلال الايام الاخيرة كان دائم التفكير في منى وفي وعده للدكتور باتخاذها زوجة له.. متى يفعل ذلك .. ابعد تخرجه من الجامعة .. ولكنه لا يضمن ما تخبئه الايام طيلة السنين المقبلة لماذا لا يبادر فورا بالزواج منها .. ولكن منى .. هل ستوافق ؟.. هل تربط روحها بالمصير الذي ينتظر شقيقها .. ولكنها ارادته .. هو الذي طلب ان يتم هذا الزواج ..

واتجه يوسف الى بيت الدكتور فقابلته سعاد عند المدخل وجرت نحوه هاتفة :

- عمي .. عمي .. اين ابي ؟.. متى سيعود ؟..

فانحنى قليلا واخذ يداعبها وهو يقول :

- قريبا ان شاء الله ..

وسالت من عينيها دموع صافية ثم تمتمت :

- صحيح يا عمي ..

فنظر اليها ولم يستطع ان يمنع انهمار الدموع من عينيه فاحتضنها .. ولكن حشرجة صوته فضحت حزنه فقال :

- سيعود اليك .. اين عمتك ..

- في الداخل ..

- هيا بنا اليها ..

ساد السكون لحظة بينما كانت العيون تحاول ان تتكلم ومنى لا تستطيع ان تفهم ما يبغي يوسف بينما كان هو قد ادرك انها تفهم معنى نظراته فنظر الى سعاد وقال :

- سعاد .. اريدك ان تقدمي لي خدمة ..

- اني تحت امرك يا عمي ..

- اذهبي الى بيتنا وقولي لوالدي ان يأتي الى هنا ..

- لماذا يا عمي ..

- ستعرفين .. هل ستذهبين لاحضار ابي ؟..

- سأذهب بسرعة ..

وغادرت سعاد الغرفة بينما اخذت منى تنظر الى يوسف مستفهمة ثم قالت :

- يوسف .. ماذا وراءك ؟..

- منى .. انني سأسافر بعد اسبوع ..

- رافقتك السلامة .. سنفتقدك كثيرا يا يوسف ..

- لا اريدك ان تفتقديني .. اريدك ان ترافقيني الى بيروت ..

فحدقت به مستغربة :

- يوسف .. هل تعي ما تقول ؟..

- اجل يا منى ..

- ولكنك ..

قاطعها يوسف قائلا :

- لا تفكري فيما مضى .. انني اتقدم اليك راجيا الا ترديني خائبا ..

- ولكن انتزوج في هذا الوقت العصيب .. ان مصير حسين لم يتقرر بعد ..

- انها ارادة حسين يا منى .. لقد وعدته ان اطلب منك الزواج وها انذا افي بوعدي ..

فأخذت منى تهز راسها وتنظر الى يوسف نظرة استغراب .. ثم قالت :

- انك لم تتقدم الي لأنك تريدني .. بل لأن حسين يريد ذلك ..

- لا يا منى .. انت تعرفين مقدار حبي لك .. لو بحث طيلة حياتي عن زوجة فلن اجد من هي خير منك ..وارجو ان اهيئ لك الراحة التامة ..

- وسعاد ..

- ستأتي معنا .. سنعيش ثلاثتنا هناك حتى انتهي من دراستي ..

وبدات افكار منى تطوف بها .. ماذا لو تزوجته .. انه نعم الانسان الذي تتمناه كل فتاة .. الم تحبه هي منذ طفولتها .. ولكن فؤاد .. لقد اعترفت له بحبها .. توسلت اليه .. ركعت على قدميه ماذا لو ظهر في حياتها فجأة .. بيروت .. ان فؤاد في بيروت لقد ذهب الى هناك .. ولكنه ذهب ليتزوج .. انه انسان نبيل لا يمكن ان ينغص عليها عيشها يوما .. لكن ماذا تقول ليوسف .. هل تكذب عليه .. ماذا تقول عن علاقتها باخيه .. هل تخبره الحقيقة .. تقول له انها ما تزوجت من اخيه الا لانها تحبه هو .. وما كذبت على اخيه الا لانها تحولت الى حب جارف ملك عليها قلبها .. حبها لفؤاد .. ماذا تقول له .. بماذا تعلل له انها لا تزال كالوردة لم يلثم عبيرها الهواء .. عذراء .. ماذا تقول له انها لا تستطيع ان تبني حياتها الجديدة على اساس من الكذب ولكنها لا تستطيع ايضا ان تقول الحقيقة ..

لقد كذبت على زوجها الاول فعاشت في جحيم الخوف خشية ان يلتقي زوجها بفؤاد . ولقد كادت ان تفقد اعصابها يوم ان رأت فؤاد في المزرعة فماذا تقول هذه المرة .. لابد لها من كذبة ميتة .. كذبة لا تعيش معها خوفا من ان تكتشف ..

وتذكرت سامي ..زوجها . انها اساءت له في حياته وها هي تفكر في الاساءة اليه وقد انتقل الى العالم الآخر .

لم ينطق يوسف بكلمة .. طيلة الوقت الذي خيم على منى فيه . الصمت اراد ان يدعها تفكر. ولما رفعت منى رأسها والتقت عيناهما رأى بريقا من الدعوة يطفر من عينيها .. ترطبه الدموع التي اخذت تلمع على وجنتيها . مدت منى يديها الى يوسف ، وامتلأ قلبه بالفرح واخذ يقبلها في سرور بالغ وهو يردد :

- الحمد لله .. اني اسعد انسان ..

واقبلت سعاد تقول :

- عمي .. ان والدك ليس في البيت ..

فقال لها وهو يضمها الى منى ويحتضن الاثنتان معا :

- لا بأس يا حبيبتي .. لا بأس ..

ثم سكت لحظة وعاد يقول بعد ان اسدل ذراعه الى جانبه ..

هيا بنا الى يافا .. لنقابل حسين ونخبره ..

واتجه الثلاثة الى سجن يافا حيث سمح لهم بمقابلة السجين بعد مشقة ..

فرح حسين للخبر واخذ يقبل صغيرته من وراء القضبان وكانت سعاد تنظر الى ابيها نظرة ريب وشك .. اهذا هو فعلا والدها :

- ابي .. لماذا لا تحلق ذقنك ؟.. هل تريد ان تفعل مثل جدي ؟..

فقال لها :

- سأحلقها في المرة القادمة .

ثم سكت لحظة واخذ خلالها ينظر الى عيني ابنته ثم عاد يقول لها :

- سعاد .. انك ستذهبين مع يوسف ومنى الى بيروت كوني فتاة طيبة كما عهدتك .. كوني مطيعة لهم ..

فقالت سعاد :

- وهل ستأتي معنا يا ابي ؟..

- ساتبعكم بعد قليل ..

لا يمكن ان يتم في هذه الاحوال زواج مليء بالبهجة يرقص فيه الراقصون ويطرب فيه الناس لاصوات الغناء .. دونما ضجة وجلبة كان على منى ان تزف الى عريسها ولكنها كانت مصممة على ان تخبره بالحقيقة بل بالكذبة التي اعدتها ولكن قبل ليلة الزفاف ..

فطلبت مقابلته والاختلاء به ذات يوم وقالت له :

- يوسف .. لدي كلام احب ان اقوله لك ..

واحس يوسف بنبرات واضحة في لهجتها فقال :

- ماذا يا منى .. خيرا ان شاء الله ..

ولم تشأ ان تلف وتدور فقالت :

- ان اخاك لم يلمسني ابدا ..

وبهت يوسف الذي لم يكن يتوقع سماع هذه المفاجأة فوقف مستغربا وقال مستفهما :

- ماذا .. لم يلمسك .. سنة كاملة عاشها معك دون ان يلمسك ..

- اجل ..

- ولماذا .. لماذا .. انه لا يمكن ان يكون مريضا .. لقد كان مقبلا على الزواج برغبة شديدة .. ولكن .. ليلة الزفاف .. لقد تم كل شيء بسلام .. لقد رأيت الدم بنفسي ونظرت اليه

وقالت خجلة :

- لم يكن دمي ..

فقال مبهوتا :

- ماذا ؟..

- اجل .. لقد جرح نفسه ولطخ بدمه قميص نومي ليثبت للناس انه رجل ..

وصاح يوسف محتدا ..

- لقد كان رجلا ..

فقالت منى متأوهة :

- يا ليته كان كذلك ..

- ولماذا كان مصرا على الزواج .. لو كان يعرف انه لا يستطيع ان يقوم بدور الزوج لما اقدم على الزواج بتلك الحماسة .. وسكت يوسف لحظة ثم نظر الى منى نظرة شك وقال :

- معنى قولك انك لا تزالين ..

وهزت منى رأسها توافقه على ما كان سيقوله ثم اخذ ينظر اليها نظرة مليئة بالاشفاق وقال :

- منى .. ولماذا رضيت ان تعيشي معه طيلة هذه المدة ..

فقالت له :

- وماذا تريدني ان افعل .. انه زوجي . أأفضحه ؟.. أأسيء الى سمعته ؟.. انك اول انسان يعرف الحقيقة .. لقد تعذبت كثيرا يا يوسف . انا انسانة كنت اجري وراء سراب حتى وجدت نفسي اغرق في بحر من البرود .. لم تعد تثور في اية رغبة الى الرجال .. حتى كان يوم ان طلبت مني الزواج .. لقد شبت في قلبي نار لم ادر كنهها .. نار كانت قد اختبأت تحت رماد السنين الباردة ..

ومد يوسف يده الى منى .. وقال لها :

- منى .. لا تحزني على ما فات .. سأعوضك عن كل ما فقدتيه ..

قال جملته الاخيرة وهو يحضنها بشدة بينما اخذت ذراعاها طريقهما الى ظهره واخذت تشده اليها وقد نسيت كل شيء الا انها مع رجل .. أي رجل .. حتى انها ليلة الزفاف لم تستطع ان تجود بنقطة دم .

(33)

اخذ يوسف يصيح والجريدة تلوح في يده والفرحة تكاد ان ترفعه الى السماء ..

- منى .. سعاد .. منى ..

وخرجت منى من الغرفة فاسرع يوسف يحضنها ويقبلها وهو يقول :

- الحمد لله .. يا منى.. حسين سيطلق سراحه .

واخذت منى تشد يوسف اليها وهي تبكي من شدة الفرحة وتتمتم :

- صحيح .. يا لكرم الله .. حمدا لله يا رب .

ثم تركت زوجها واخذت تصيح :

- سعاد .. سعاد .. اين انت يا حبيبتي .. سعاد ..

واقبلت سعاد فأخذت منى تغرقها بقبلاتها واخذت الصغيرة تتساءل في براءة ..

- ما بالك يا عمتي .. لماذا تبكين ؟..

- انا لا ابكي .. انها الفرحة .. ابوك ..

فقالت سعاد :

- ابي .. هل سيأتي ؟..

- اجل يا سعاد .. اجل .. الحمد لله .. لقد لطف الله بك وبي انه لا ينسى احد „ ثم وقفت فقالت ليوسف :

- من اين سمعت الخبر ؟..وهل هو اكيد ؟..

فمد اليها الجريدة وتناولتها ورأت .. ثم القتها جانبا وعادت تحتضن زوجها تارة وسعاد تارة اخرى ..

- الحمد لله .. الفرحة التامة على الابواب جميع المساجين سيطلق سراحهم .. جميع الناس من اهل بلدنا سيخرجون كما قرأت .. جميع الرجال الذين حاربوا من اجل الوطن ستكتب لهم الحياة .. يا لكرم الله .. يوسف .. يوسف .. متى سيطلقون سراحهم ؟.. وهل سيفعلون ذلك حقا ؟..

- اجل يا منى .. لقد انتهى كل شيء ..

وعلت وجه منى علامة استفهام كبيرة ودارت برأسها دوامة شك .. فهتفت متسائلة :

- حسين .. هل سيخرجونه حقا .. ولكن من ادرانا انه لا يزال حي يرزق .. لا .. لا .. يوسف .. يجب ان اسافر الآن يجب ان اراه .. يجب ان اعرف ما جرى له ..

واخذت تنظر الى يوسف كأنما ترجوه ان يسمح لها بالسفر فقال لها ..

- انت تعرفين انني لا استطيع ان اترك الدراسة في هذا الوقت .. وكذلك لا استطيع ان اتركك تسافرين لوحدك .. فاليهود ثائرون لتطبيق سياسة الكتاب الابيض الذي يحرمهم من كيانهم ..

- ولكني يجب ان اسافر يا يوسف .. ارجوك .. قدر موقفي ..

واخذ يوسف يفكر ماذا يفعل .. ايذهب معها .. انه لا يستطيع .. ايسمح لها ان تسافر .. انها قد تقاسي من مصاعب الحياة اكثر مما يمكن للقدر ان يخبئه لها .. ولكنه يخاف عليها واخذ ينظر اليها والى توسلات دموعها وآهاتها .. والقى ببصره الى سعاد .. كانت كأنما ترجوه هي الاخرى فقال:

- وسعاد .. هل ستبقى هنا ..

- لا .. سآخذها معي ..

كما تشائين يا عزيزتي .. ولا تنسي ان تكتبي لي رسالة حال وصولك لأطمئن .. غدا صباحا سأتدبر امر السفر ..

ولم تستطع منى ان تنام تلك الليلة وان كانت بعض لمسات الكرى قد غافلتها . ولكنها لم تخرج عن عالم غدها الذي ترجوه .. حسين .. شقيقها حسين ستراه .. ستحتضنه ستستمع الى صوته .. يا لفرحتك يا منى .. يا لفرحتك يا سعاد .. كيف تشكران الله على هذه الرحمة الواسعة ؟. ان جميع المصائب التي توالت طمستها الفرحة ، ستغرقها في بحر الامل الجميل. متى ستشرق الشمس .. متى سنركب السيارة .. لماذا لا تطير الى هناك .. لماذا لم يخلق لها اجنحة كالملائكة .. لو تكرم الله واكمل جميله وحملها بقدرته الى هناك .. لماذا لا يفعل انه على كل شيء قدير .. يا الهي .. انت تعلم ما قاسيت .. وتعلم مدى الالم الذي حاق بي والظلم الذي صعق فؤادي .. الطف بي يا رب واكفني شر ما يختفي بالغيب .. ليست لي القدرة على الاحتمال اكثر مما احتملت ..

ودع يوسف زوجته وسعاد واتجه الى دراسته بينما اخذت السيارة تشق طريقها قاصدة حيفا ومن ثم الى يافا .. كانت منى تنظر الى السائق الذي كانت سعاد تفصلها عنه وكانما تستحثه ان يطير بينما اخذ الرجال الثلاثة في المقعد الخلفي يطالع كل منهم جريدته باهتمام .. واخذت منى تؤنب نفسها .. لماذا لم تحضر معها جريدة .. انها تريد ان تعرف ما قد اتى به هذا اليوم من اخبار .. هل تطلب من احد الرجال جريدته .. انه سيعطيها اياها .. ولكنها لم تفعل .. واخذت تتمنى ان يناولها احد الرجال جريدته بنفسه ولكن لماذا يفعل ما دامت هي لم تطلبها منه .. ورفع احد الرجال راسه عن جريدته وقال بصوت جهوري متشائم:

- مش ممكن .. كلام فارغ ..

ونظر اليه الرجلان اللذان كانا يحيطان به وقال احدهما :

- ما هو ذا الغير ممكن ؟..

فقال الرجل:

- ايصدق عاقل ان بريطانيا قد افرجت عن جميع المساجين

فعاد الرجل يقول له :

- ولماذا لا تصدق ..

فهز الرجل رأسه وعاد ينظر الى جريدته وهو يقول:

- لانني عاقل.

والتفتت منى بحركة لا شعورية واخذت تنظر الى الرجل. كانت جريدته تخفي وجهه بينما اخذ الرجلان الآخران ينظران الى وجهها المتقع تارة والى بعضهما تارة اخرى .. ثم عادت تنظر امامها وما لبثت ان التفتت فجاة وقالت :

- انت يا استاذ .. ماذا تقصد بقولك ..

وخفض الرجل جريدته فبان وجهه واخذت عيناه تحدقان في وجهها الذي اكتسى صفرة وقال:

- أي قول يا سيدتي ؟..

فقالت له محتدة :

- الكلام الفارغ

فضحك ثم قال وكانه لم يلاحظ اثر كلماته على وجهها :

- اجل يا سيدتي .. لا شك انك عاقلة .. هل تعتقدين ان الانجليز سيطلقون سراح العرب ؟..هل يطلقون سراح اعداءهم. انهم يا سيدتي ينظرون الينا كاعداء ..

فقال لها احد الرجلين وكأنما لاحظ انفعالات وجه منى وهي تستمع الى قوله :

- يا سيدتي .. ان الثورة قد انتهت. والمفاوضات بين دول العرب والانجليز بالاتفاق مع زعماء فلسطين جميعهم قد انتهت ....شروط الاتفاقية اطلاق سراح جميع المساجين.

ونظر الرجل الى محدثه وقال وهو يهز راسه :

- هذا اذا بقي هناك مساجين احياء ..

ارتجف سائق السيارة وهو يستمع الى صيحة منى :

- اسكت .. يا الهي .. لا تقل هذا اسكت ..

وارتفع صوت سعاد باكية عندما شاهدت عمتها تصرخ ، واخذ الرجال الثلاثة والسائق يحدقون في هاتين المخلوقتين وقال الرجل :

- لم اقصد يا سيدتي ان ازعجك .. انا آسف

فعاد محدثه يقول له :

- ان وجهة نظرك خاطئة .. بل خاطئة جدا ..

ونظر امامه حيث كان رأس منى قد اندفن بين يديها وقال :

- ارجو يا سيدتي ان لا يؤثر كلامه فيك .. هل لك اقارب في السجن ؟..

ودون ان تلتفت هزت رأسها الذي ظل مدفونا بين كتفيها .

فقال الرجل :

- اهو زوجك ؟..

وخرجت من حلقها كلمة (اخي)..

فقال الرجل وقد شعر بعمق حزنها :

- سيدتي .. لا اريد ان اجاملك بما سأقول . بل اريد ان اؤكد لك ان جميع المساجين سيفرج عنهم ان لم يكن قد أفرج فعلا . ان بريطانيا في حاجة الى العرب .. الى صداقتهم .. انها على وشك ان تخوض حربا مع دول اقوى منها .. ان صوت هتلر يهز لندن كل ليلة وقد شعر الانجليز بقرب اندلاع الحرب وهم في حاجة الى جنود يساعدونهم .. وفي حاجة ايضا الى استقرار يسود البلاد التي يحكمونها . لا يستطيعون ان يوزعوا جهودهم في الداخل والخارج .. قد يخدعوننا الى حين قد يعدلون عن وعودهم بتكوين دولة العرب .. وقد يعدلون عن كل ما وعدوا به . الا انهم لا يستطيعون الا الايفاء بالوعد الذي يقدم برهانا على حسن نيتهم تجاهنا . وهو اطلاق سراح المعتقلين والمسجونين .. فاطمئني .. يا سيدتي ..

وكانت منى قد رفعت رأسها اثناء حديثه والتفتت اليه وقلبها يسرع بدقاته تارة ويبطئ اخرى .. لقد قال هذا الرجل ما فيه الكفاية لاقناعها .. واما هذا الذي الى جانبه ، هذا الابله بماذا تستطيع تصفه .. كانت نظراتها اليه تعبر عن مدى اشمئزازها مما قاله ..

وعندما وصلت السيارة الى الحدود اللبنانية الفلسطينية نزل الجميع من السيارة لاجراء المعاملات الجمركية ومعاملات المرور . ولقد لاحظت منى ان افراد البوليس والموظفين كانوا من العرب . اما الضباط وبعض افراد البوليس من الانجليز فقد كانت معاملتهم تؤكد ما قاله الرجل لها من ان بريطانيا ستغير سياستها بالنسبة للعرب .. واخذت مخاوفها تزول شيئا فشيئا حين وصلت السيارة الى حيفا .. كانت الشوارع تكتظ بمظاهرة هائلة .. ان الاصوات فيها تنادي بحياة فلسطين وبحياة زعمائها المخلصين .. ولم تستمع منى الى الهتافات التي كانت تحمل شتائم بريطانيا وتنادي بسقوط حكومة الانتداب كما كانت المظاهرات التي وصفت لها من قبل .. واضطرت السيارة ان تبحث عن شارع فرعي حيث كان الشارع العام يكتظ بالناس .. وعندما وقفت السيارة عند محطة بنزين ونزل السائق لشراء وقود لسيارته.

اخبرت سعاد عمتها بانها عطشى فنزلت منى من السيارة وتبعتها سعاد .. كانت اقدام منى قد تخدرت من الجلوس .. فأخذت تتحامل عليهما واتجه اليها احد العمال قائلا :

- سيدتي .. هل من خدمة اؤديها لك ؟..

- اذا تكرمت بشربة ماء لهذه الصغيرة .

وهز العامل راسه مبتسما وعاد بعد لحظة يحمل في يده كأسا مليئا بالماء .. واخذت سعاد ترتشفه بينما قالت منى للعامل :

- ما هي اسباب هذه المظاهرات الصاخبة ؟

فقال لها العامل :

- انها تحية الشعب لاخوانهم الثوار الابطال . لقد ارغموا الانجليز على اطلاق سراحهم ..

فهتفت منى متسائلة :

- وهل اطلق سراحهم ؟..

- اجل .. جميع المساجين والمعتقلين السياسيين ..

- حقا ؟..

- اجل يا سيدتي ..

- شكرا .. شكرا يا اخي

ثم اخذت تنظر حواليها باحثة عن السائق وهي تصيح :

- اين السائق .. اين السائق .. هيا بنا ليس لدي صبر ..

وفتحت باب السيارة وقبل ان تدخل قالت للرجل الذي طمئنها والابتسامة على وجهها تبين عن السعادة التي غمرتها :

- كلامك صحيح يا استاذ .. لقد اطلق سراح جميع السجناء هنا في سجن عكا .. ولا بد انهم فعلوا ذلك في يافا ايضا ..

فقال لها الرجل مبتسما :

- الحمد لله .. اذا كان المساجين في عكا قد خرجوا سالمين فمعنى ذلك ان جميع المساجين في السجون قد خرجوا معززين مكرمين .. فسجن عكا هو اقذر واظلم السجون انني اهنئك من كل قلبي يا سيدتي ..

ثم التفت الرجل الى جاره المتشائم وقال له :

- هل لا زلت تعتبر نفسك عاقلا يا صاحبي ؟..

فقال الرجل :

- ان هذا الامر يسرني .. اني آسف يا سيدتي واهنئك على سلامة اخيك ..

(34)

لم تكن فرحة منى وسعاد اكثر من فرحة حسين وهو يضمهما الى صدره . ولا اكثر من فرحة ام عثمان وهي تحتضن زوجها .. لقد عمت الفرحة جميع انحاء قرية سلمة واخذ الناس يهللون شاكرين لله كرمه .. قالت سعاد لابيها :

- لقد انتظرتك يا ابي .. فلماذا لم تحضر الى بيروت كما وعدتني ؟..

نظر اليها وهو لا يصدق ان القدر عاد فجمعه بها ثم قال:

- كنت سأفعل ذلك .. ولكنكم جئتم قبل ان الحق بكم ..

قالت سعاد :

- ان بيروت جميلة يا ابي .. هل سنرجع اليها ؟.. ان المدرسة التي وضعني فيها عمي يوسف جميلة . وجميع الطالبات احبوني وانا كذلك احببتهم . لكني كنت ابكي عندما يسألوني عنك لا ادري لماذا .. اما الآن فلن ابكي ابدا ..

واقبلت منى فرحة .. كانت كلما تنظر الى وجه اخيها تحس وكانها تراه لاول مرة .. فلا تستطيع ان تمنع نفسها من احتضانه وقال لها :

- منى .. انني ارى بوادر التعب باد على وجهك .. هل كان السفر مزعجا؟ ..

- قد يكون هو السبب وقد يكون شيئا آخر .. انني انتظر مولودا ..

- احقا .. مبروك .. انني لم الاحظ ذلك .. هل اخبرت ام سامي ؟..

- لا ..

- يجب ان تخبريها .. ان الخبر سيسعدها .

- سأفعل ذلك الليلة انهم سياتون للسهر عندنا ..

- هل ذهبت الى ام عثمان ؟..

- اجل لقد فعلت .. ان الفرحة لم تنسني ان اسارع لتهنئتها ..

- خيرا فعلت ..

ونظرت منى الى سعاد .. ثم اقتربت منها واخذت تربت على كتفها بحركة لا شعورية ثم ما لبثت يدها ان توقفت عن الحركة بينما انحنت حتى لامست شفتاها راس سعاد ومرت على الشعر الثائر حتى التقت في وجنتي الصغيرة .. ورفعت راسها فجأة وكأنما كانت تفكر اثناء حركاتها .. وقالت :

- حسين .. لدي رجاء عندك ..

فقال لها :

- ماذا يا عزيزتي ؟..

- الا تردني خائبة ..

- وهل هي عادتي يا منى ؟..

- لا ..

- اذن تكلمي ..

- ستسافر معي الى بيروت لقضاء فترة تريح فيها جسمك واعصابك ..

فابتسم حسين وقال:

- منى .. يا لك من شقيقة طيبة .. سافعل ما تريدين فالقت بنفسها بين ذراعيه وهي تتمتم:

- احقا ؟.. اشكرك .. متى نسافر ؟..

- في أي وقت تريدين .. االى هذا الحد اشتقت الى يوسف ؟..

فتركت منى يديها تستلقيان الى جنبها ورجعت خطوة الى الوراء ونظرت الى اخيها كأنما تريد ان تؤكد له شعوره .. فقالت :

- حسين .. لقد كان يوسف نعم الزوج لي ونعم الاخ والصديق .. ليحمه الله على ذلك .. لقد كانت معاملته الطيبة الى سعاد تجعلني ابكي .. لم يكن يدعها تطلب شيئا .. كل ما يشعر انها تريده يحضره بنفسه لها .. يترك كتبه ولوحاته ليجلس الى جوارها يداعبها ويقص عليها احاديث الاطفال .. كانت لا تعرف ان تنام دون ان تقبله وتقول له تصبح على خير يا عمي .. انه انسان .. انسان بكل ما تحمل الكلمة من معنى ..

واخذ حسين ينظر الى ابنته سعاد .. كانت سنواتها العشرة قد رسمت على وجنتها حمرة الاصيل . بينما كاد قميصها ان يقول انها تخبئ شيئا يتحرك . واخذت سعاد تبادل والدها النظرات وتبتسم له فيزداد تورد وجنتيها فتقول :

- حقا يا ابي .. متى سنسافر الى بيروت .. اريد ان يراك عمي يوسف .. انه كثير الشوق لك .. والتفتت الى عمتها وقالت :

- عمتي .. لقد قال لك ان ترسلي رسالة له ..

فنظرت منى الى الصغيرة واخذت تنظر الى اخيها وقالت له :

- لقد وهبك الله اذكى ابنة في العالم .. انها لم تنس مع انني نسيت .. ولكن لا اريد ان ابعث له رسالة .. لماذا لا نكون نحن الرسالة اليه .. الا ترى ذلك يا حسين ..

- اتعنين ان نسافر قريبا .. قريبا جدا ..

- اجل ..

- كما تشائين .. انني طوع امرك ..

استيقظت منى مبكرة ، فقد كان حلما مزعجا بل كابوسا فظيعا هو الذي اقض نومها وحرمها من نومة الصبح التي تحبها .. رفعت رأسها وهي تصرخ .. لا .. لا ..

ثم نظرت حولها في الغرفة فلم تجد احدا .. وأخذت تتمتم :

- بسم الله الرحمن الرحيم .. اعوذ بالله ..

وعبثا حاولت النوم ثانية لقد عاودتها صورة الحلم وهي في يقظتها .. ماذا .. يوسف .. زوجها .. يموت .. لا .. انها لا تريد له الموت .. انها لا تريد ان تفقده .. لقد انتهت علاقتها بفؤاد ولا تريد ان تراه .. فما باله يطاردها في نومها .. وفي اسعد ايام حياتها .. ايريد ان ينغص عليها عيشها .. ليبتعد عنها .. لا انها لن تدعه يقتل يوسف لتكون له .. اذا كان قد فعل ذلك في الحلم فهي لن تتركه يفعله في الحقيقة .. انها تحب يوسف زوجها .. تحبه اجل .. لقد كان فؤاد ظلا القي على حياتها فغطى حب يوسف .. ثم انقشع هذا الظل وليس له ان يعود ثانية . لقد تأججت شمس حبها لزوجها .. ان في احشائها جنين يربطها بيوسف .. انه سيكون والد طفلها .. ثم تذكرت نهاية الحلم الفظيع .. كيف قتل فؤاد يوسف فأخذت تشد شعرها وتصيح وكأنها افاقت من حلمها ثانية ..

- لا .. لا ..

وحمدت الله انها رأت الدم في نومها .. فهي تعلم ان منظره يفسد الحلم .. وتركت سريرها واخذت تمشي داخل الغرفة في عصبية كأنها تفكر في حل لمشكلة .. واتجهت ناحية النافذة .. كانت قطرات الندى قد علقت على الوردة التي تركتها تنمو هناك .. اخذت تهز الشجرة برقة ، واخذ الندى يتساقط حول الاصيص . والتصقت بعض الحبات بيدها واخذت تفرك يديها ثم مسحت وجهها .. واخذت تنظر من النافذة .. لقد تغير العالم امام عينيها .. وجال بصرها مستعرضا المناظر التي امامه .. واخذت تتذكر ايام الماضي ايام كانت هذه الارض الشاسعة تطل عليها بلوحة خضراء تلمع خلالها اضواء صفراء لحبات البرتقال ، تحط عليها ازهاره كالفراش الابيض يغزو الجو برائحته العبقة .. اين الماضي .. اين الايام الجميلة التي كانت الاشجار تظلها خلالها .. يا لايام الطفولة .. لو خيرت ان تعيش حياتها طفلة لما ترددت في القبول .. ثم اخذ لسانها يهذي بكلمات هادئة .. لقد تذكرت اختها .. حنان وتسائلت :

- حنان .. اين انت الآن .. اذا كان حقا هنالك جنة فانك هناك بدون شك .. استغفر الله العظيم .. استغفر الله العظيم .. انني بدات اشك في ايماني لا يا رب لا تؤاخذني على هذا الهذيان انني اؤمن بك وبجنتك .. وبجحيمك الذي استحقه .. اغفر لي يا رب .. اغفر لي .. انني اعيش على انقاض نفسي ..على حطام حياتي .. اخدع احب الناس الي .. واظلم من احبني حتى الموت ، اظلم الذي عفا عني عند مقدرة . يا لي من جاهلة شقية استحق كل ما رأيت .. يا رب اذا اردت ان تعذبني .. ان تزيد في القسوة علي .. ليكن ذلك في شخص آخر .. افعل بي ما تشاء لا تجعلني اتعذب وانا ارى آلام احب الناس الي .. او اعيش حتى يختطفهم الموت ليس باستطاعتي ان اكفر عن سيئاتي .. الا بطلب المغفرة منك ..

وبدات الحياة تأخذ طريقها في تلك اللوحة التي تطل عليها النافذة .. ان كانت الايام قد غيرت بها المنازل والاشجار والازهار بالناس وصداح البلابل وزقزقة العصافير بصياح الصغار وهمس الكبار . وأخذت الثمار تتصافح ويحيي بعضها البعض والازهار تحتضن الاطفال مهدهدة او مرصفة .. وأخذت اشعة الشمس طيفها لتؤكد الحقيقة وتزيد المنظر جلاء ووضوحا .. وتنهدت منى .. وادارت ظهرها للنافذة .. انها لا تدري اهي سعيدة لتبدل الصورة ام لا .. وعادت تطل من النافذة .. فشاهدت اما ترفع طفلها بين يديها .. ثم تتركه في الهواء فتعود لتلتقطه وهي في غمرة السعادة والطفل يرسل صياحا رفع منى الى عالم من الاحلام والحب .. اين تلك المناظر القديمة من منظر الحياة .. منظر الحب .. ان الفرحة تغمرها هي الاخرى والنشوة تملا قلبها .. في القريب العاجل سيصبح لها طفل تدللهُ .. وترضعه وترفعه بيديها ، وتتركه في الهواء ثم تعود فتلقطه مزهوة فخورة منشرحة الصدر، وانغام صَياحه تنفذ الى صميم قلبها فيبعث فيه البهجة والامل .. وأخذت تتحسس بطنها .. انها لا تستطيع ان تقذف او تلقف شيئا ولا تستطيع ان تسمع

صياح مخلوق . ولكن ذلك سيحدث قريبا .. قريبا باذن الله .. وعادت تنظر الى تلك المرأة فوجدتها قد جلست واستلقى وليدها الطفل على حجرها والقى رأسه في ناحية صدرها يلتهم ما في ثديها من لبن . والام تترك له كل شيء عن طيبة خاطر .. وشاهدت عمها ابو سامي يقبل متهاديا .. واخذت تتأمله بنظراتها . كانت عصاه في يمناه يتكئ عليها في مسيره .. وابتسمت عندما شاهدته يضع العصا تحت ابطه ويسير متحاملا على قدميه .. لقد اقبل ناحيته احد معارفه .. حياه وسلم عليه واستمر في سيره ثم نظر خلفه فلما رأى ان صاحبه قد اختفى انزل عصاه من تحت ابطه لتعود تساعده على المشي .. ثم ما لبثت ان استقرت تحت ابطه ثانية لقد كان جمع من النسوة يتجهن لاحضار الماء ..

ورد تحيتهن مبتسما . ثم عاد فترك عصاه تساعده بعد ان ابتعدن عنه .. وتركت منى النافذة واتجهت بسرعة لاستقباله .. كان لا يزال يتكئ على عصاه عندما رآها امامه على غير ما توقع .. وهتف :

- منى ..

- صباح الخير يا عمي ..

- صباح النور .. يا اجمل صباح .. لقد استيقظت مبكرا على غير عادتك .. كنت اظن انك لا زلت مخمودة على فراشك .. واحضرت هذه العصا خصيصا لايقاظك بها ..

فارتفع ضحكها وهي تتذكر حركاته .. انه لا يريد ان يعترف بضعفه لاحد .. وقالت :

- لا يا عمي .. لا حاجة لذلك .. ولو جئت ووجدتني نائمة فستنكسر هذه العصا قبل ان افتح عيني .. انها لا تتحمل ان يتكأ عليها طفل ..

وابتسم ابو سامي وقال :

- هل صحا الدكتور ..

- لا ادري .. لقد شاهدتك من النافذة مقبلا فاسرعت للقائك ..

فنظر اليها وقال :

- هل شاهدتني مقبلا ؟.. ثم اخذ ينظر الى عصاه واخذ يهزها في الهواء ثم تركها تستقر تحت ابطه وعاد يقول وهو يبتسم ..

- هيا .. ادخلي .. اريد ان اشرب فنجان قهوة من صنع يديك ولا بأس ان توقظي الدكتور .. ودخل ابو سامي واتجه الى احد المقاعد وجلس عليه بينما اخذت منى طريقها الى المطبخ والتفتت وهي تستمع الى وقع خطوات على السلم المؤدي الى غرفة النوم .. كانت سعاد لا تزال على وجهها آثار النوم .. وابتسمت عندما راته ونزلت بقية السلم مسرعة وهي ترحب به:

- جدي .. صباح الخير ..

- اهلا بالقمر الجميل الحلو ..

فنظرت اليه وقد مالت براسها الى احد كتفيه وقالت :

- صحيح يا جدي .. هل انا حلوة ؟..

فقال وهو يمد يده اليها ويحتضنها تاركا يديه يغطان في شعرها المتهادل ..

- حلوة فقط .. انت اجمل من الجمال نفسه .. هل استيقظ بابو ام لا ..

- اظنه لا يزال نائما .. هل تريدني ان اوقظه ..

- لا باس .. ولكن عمتك ستفعل ذلك ابقي الى جانبي ..

- سأذهب لاغسل وجهي ثم اعود اليك .. اتسمح لي ..

- وهل هذا الوجه في حاجة الى غسيل .. انه انظف من الماء ..

فنظرت الى وجهه باسمة .. كانت تجعدات السنين والهموم بادية عليه . ثم مدت يدها واخذت تعبث بشاربيه فنظر اليها معاتبا فسقطت يدها ولكنه عاد فابتسم فقالت له :

- جدي .. ان عمي يوسف له شوارب ولكنها صغيرة هل ستصبح مثل ..

واشارت بيدها الى شاربه ، فهز رأسه ، فابتعدت عنه وهي تقول ..

- سأغسل وجهي قبل ان يستيقظ ابي .. عن اذنك ..

ومد ابو سامي يده واخذ يعبث بشاربيه وتمنى لو ان يده تمس وجه ابنه يوسف انه في حاجة الى ان يراه لقد اشتاق اليه فهو آخر ما تركت له الدنيا من أمل ..

ونزل الدكتور من على السلم مسرعا وهو يبتسم مرحبا بابي سامي وقال له :

- لماذا لم توقظني .. هل مضى وقت طويل على وجودك هنا ؟..

- ليس كثيرا ..

- سأذهب لايقاظ منى ..

- منى .. انها في المطبخ تصنع القهوة ..

فابتسم الدكتور متعجبا ..

- منى في المطبخ ..

- اجل .. لقد جئت فوجدتها مستيقظة ..

- اذن هي التي فتحت الباب .. كنت اظنها سعاد ..

هذه اول مرة تصحو فيها مبكرة .. لقد كانت وهي صغيرة تزعجني بتأخرها في النوم .. كنت اضطر ان اطير في السيارة حتى تصل المدرسة في الوقت المناسب .. رحم الله حنان لقد كانت آية في النشاط وفي كل شيء . واقبلت منى وهي تحمل في يديها صينية القهوة وقالت :

- صباح الخير يا حسين .. الا يعجبك انني نشيطة اليوم .. ان المرحومة كانت دائما انشط مني .. وانبل مني ايضا ..

فقال حسين :

- لا يا منى .. انك انسانة طيبة ولكنك تحبين احلام الصباح ..

وتذكرت منى الحلم الذي جعلها تستيقظ مبكرة فامتقع وجهها ثم عادت فانسحبت لكي لا تحرج نفسها واقبلت سعاد في تلك اللحظة واتجهت الى والدها وقالت :

- صباح الخير يا بابو ..

وكان الدكتور لا يزال واقفا فطأطأ حتى لامس فمه وجنتها .. ثم قبلها بدوره ونظر الى ابي سامي وقال :

- عن اذنك .. قبل ان اشرب القهوة معك لابد ان اغسل وجهي ..

فضحك ابو سامي وقال :

- يا سلام .. كلكم في هذا البيت تحبون النظافة .. لقد جئت الى هنا دون ان اغسل وجهي ..

ثم ضحك وعاد يقول :

- اياكم ان تصدقوا .. النظافة من الايمان اليس كذلك يا منى ؟..

فضحكت منى وقالت :

- خصوصا في اطباق الاكل ..

وضحك الجميع .. ثم اتجه الدكتور ليغسل وجهه وقالت سعاد :

- جدي .. هل ستأتي معنا الى بيروت ؟..

فنظر اليها ثم اتجه الى منى وكان الجد باديا في نظراته ثم قال :

- لقد جئت لهذا القصد ..

فهتفت منى فرحة :

- حقا يا عمي .. هل ستأتي ..

- اجل .. ولكن سأحضر معي هذه العصا حتى اوقظك بها كل صباح .. فمن سواك سيعد لي القهوة :

- لا بأس يا عمي .. احضر معك مجموعة من العصي حتى لا تضطر مع الايام ان تستعمل يديك .. ولكن هل تظنني لا اكون نشيطة هناك ؟..

فهز راسه وغمز لها بعينه وقال :

- هناك ..

- اجل هناك .. عندما يكون يوسف الى جانبي .

فضحك ثم عاد وقال جادا :

- ارجوا الله ان يديم عليكم الهناء ويجدد في قلوبكم الحب .

ثم سكت لحظة وعاد يقول بصوت مرتفع :

- يا دكتور .. هيا ان القهوة ستبرد .. اذا لم تحضر مسرعا فسأضطر لشرب فنجانك .. سأعد واحد .. اثنين .. هه .. اقول ثلاثة ام تحضر ..

وظهر الدكتور وهو يمسح وجهه بالفوطة ثم نظر الى ابي سامي وقال له ضاحكا :

- لا داعي لان تقولها .. لقد وصلت .. اذا اردت مزيدا من القهوة فسنحضرها لك .. اما فنجاني فدعه لي ..

واسرعت سعاد ناحية ابيها وقالت له :

- بابو .. بابو .. ان جدي سيأتي معنا الى بيروت ..

فرفع الدكتور بصره عن طفلته ونظر الى ابي سامي فهز رأسه فقال الدكتور :

- انه لخبر سعيد .. وصباح سعيد ايضا .. وام سامي .. ارجو ان تحضر معنا .. لا اريد ان اذهب وفي السيارة مكان لراكب ..

- انها مشتاقة جدا لرؤية يوسف ولكنها تعبة واخشى عليها من السفر ..

- سيكون الى جانبها دكتور .. وستستعيد صحتها ..

- لقد قررت ان تسافر الى القدس لزيارة شقيقتها انها لم ترها منذ ثلاث سنوات وقد سمعت انها مريضة ..

فضحك الدكتور وقال :

- مريضة تذهب لتواسي مريضة ..

- لنتركها على راحتها ..

- كما تشاء .. وهل هيأت نفسك للسفر ..

فضحك وقال :

- اني جاهز كما انا ..

ثم اخذ يهز عصاه في الهواء وقال :

- وهذه العصا الموقظة .. اياك ان تخالفيها يا منى

(35)

كانت السيارة تشق طريقها بين الجبال فتنحني يمنة ويسرة في انحناءات لا نهاية لها .. حتى اقبلت على بيروت سأل ابو سامي :

- اهذه اول مرة تزور فيها بيروت يا دكتور ؟..

فنظر الدكتور في المرآة والتقت عيناه بعيني ابي سامي الذي كان يجلس خلفه الى جوار منى وقال :

- هذه ثاني مرة .. لقد زرتها منذ زمن طويل وانا لا ازال طالبا بالكلية .. كنت في طريقي الى انجلترا فاضطررنا للبقاء ليلة واحدة .. ومنذ ذلك الحين وانا اتمنى ان ازورها ثانية وهاهي امنيتي قد تحققت .. واكثر من ذلك ساكون سعيدا جدا بوجودك الى جواري ..

فضحك ابو سامي وقال :

- انك ستملني بعد قليل وتمل سخافاتي ..

فقالت منى :

- وهل مثلك يمل يا عمي ؟.. انك تطغي الحياة على الجماد وتنزع الضحكة من الثكلى ..

فهز ابو سامي رأسه انه يعيش حياته كلها في عذاب وأسى .. ثم ضحك فجأة وهو يقول في سره ..شر البلية ما يضحك .. ثم ارتفع صوته قائلا :

- ولماذا لا نضحك .. لماذا لا نضحك حتى ونحن نبكي .. حتى ونحن ندفن موتانا .. من الذي يضمن لنا ان احدا سيبكي اذا ما متنا .. ولو سئلت في ذلك لطلبت عدم البكاء علي .. ان الذي يترك هذه الحياة التي لا تساوي شيئا ليدخل الى عالم مليء بالحب الخالد والرحمة الغامرة والسعادة التي تبقى .. يجب ان يبتسم له الناس .. ولكننا نحن البشر أنانيون .. نحن لا نبكي لان عزيزا رحل عنا .. اننا نبكي على انفسنا لانه سبقنا الى ذلك العالم الجميل .. ان خيبة املنا وان كنا نحس بها عندما يموت انسان لا تحبه ميتة هادئة تفوق ما تشعر به عندما يموت عزيز علينا نفس الميتة .. بل وقد تزيد حقدنا على الميت وان كنا نطلب له الرحمة ونرثيه ونذكر محاسنه ليقول الناس ان لنا قلوبا فاضلة .

وسكت ابو سامي ثم عاد يقول وهو يعاود الضحك ..

- دعونا من هذا الحديث الفارغ الذي لا ينتهي .. حدثنا يا دكتور عن بيروت اننا نقترب منها الآن .

- ماذا اقول عن بيروت . لا ذكريات لي فيها . سأحدثك عنها في طريق عودتنا الى يافا ..

الحمد لله لقد اقتربنا .. هذه بيروت تضطجع الى جانب البحر كالعروس .. تماما مثل يافا .. ولكن هذه لا تزال بكرا بينما عبثت بتلك انياب الشر فحرمتنا من عريس نزفها اليها وننقذها من سوق العبيد .

كان الاهتمام باديا على وجه ابي سامي اثناء حديثه رغم الضحكات التي كان يطلقها بين الآونة والاخرى ، وشعرت منى انه يصارع نفسه التي تحاول ان ترسم امامه الماضي الرهيب الذي يهرب منه فارادت ان تبتعد بالحديث عن مواضيع الحرب والموت الى أي حديث آخر وتذكرت زوجها فقالت :

- ان يوسف سيكون سعيدا جدا هذه الليلة .. انه سيفاجأ بقدومنا ..

فقال ابو سامي :

- هل كانت صحته جيدة عندما تركته ..

- انه دائما بصحة جيدة والحمد لله ..

- متى ستضعين لنا الطفل ؟.. ان ام سامي قد طارت من الفرحة واوصتني عليك كثيرا. يجب ان لا ترهقي نفسك ابدا ..

وضحكت منى وقالت :

- ولهذا السبب احضرت معك العصا .. اليس كذلك ؟!

فضحك هو الآخر ثم التفت الى حسين وقال له :

- يا دكتور .. اليست لديك طريقة غير عنيفة لايقاظ الكسالى وتنشيطهم ؟..

فقال الدكتور مبتسما :

- لدي ..

- ما هي ؟.. تكلم بسرعة ..

فقالت منى ..

اذا اخبرك هل ستلقي بعصاك من نافذة السيارة ..

فنظر اليها وهز رأسه قائلا :

- لن ارميها .. انها ستساعدني عند تسلق الجبال .. ثم التفت الى الدكتور واستطرد :

- ما هي الطريقة يا دكتور ..

- ان تسكب على وجوههم ماءا باردا ..

فصاح ابو سامي :

- فكرة مدهشة .. واظنها ستأتي بنتيجة مع هذه الكسولة ..

فقالت منى :

- لن ادعك تفعل هذا .. ساستيقظ كل يوم قبلك ..

فضحك وقال :

- انت تستيقظين قبلي .. مستحيل ..

- مستحيل .. لماذا ؟..

- لانني لا انام .. اضع راسي عند المساء فاغفو لحظات ، ثم لا يأتي النوم الى عيني مطلقا ..

- فالتفت اليه الدكتور مستفسرا .. فقال له ابو سامي :

- انظر امامك .. الطرق ملتوية ولا نريد ان يبكي علينا احد ..

فنظر الدكتور امامه وقال:

- احقا تقول .. هل يصيبك الارق الى هذا الحد ؟..

- اجل ..

- ولماذا لم تخبرني من قبل ؟..

- لانك ستبحث لي عن دواء يزيل عني الارق وانا لا اريد ذلك ..

- لا تريد ان تستريح .. ان الارق شيء مزعج ..

- انه لا يزعجني ..

فقالت منى:

- ولكنه يزعجني انا .. انك ستغسل لي وجهي كل يوم .. ولكن ساداويك بنفسي ..

فقال ابو سامي مندهشا ..

- ماذا ... انت تداوينني !؟

- اجل .. سأجعلك تنام حتى الظهر ..

- لا يمكن ذلك ..

- لدي طريقة ..

فضحك ابو سامي وقال:

- طريقة تجعلني انام حتى الظهر .. ما هي ؟..

- ساعطيك دواءا منوما .. فما رايك .. تريحني بذلك .. وتستريح ..

فنظر اليها ابو سامي ثم ارتفع صوته بالضحك قائلا:

- لو وضعت جميع الاقراص المنومة التي في بيروت في معدتي فانها قد تقتلني ولكنها لن تستطيع ان تجعلني انام ..

فهزت منى رأسها باسمة .. وقالت:

- اذن ليس هناك فائدة .. ولا مناص من حمام الصباح البارد .. ومتى سيكون الوقت المحدد لغسل وجهي ..

- كل يوم قبل موعد اليوم السابق له بخمس دقائق ..

- معنى هذا انه سيأتي يوم توقظني فيه قبل ان انام ..

- وهو كذلك ..

- اذن .. لابد من ايجاد طريقة اخرى .. سأقفل باب الغرفة بالمفتاح ..

فضحك ابو سامي وقال:

- هل تظنين انك ذكية ؟.. سيكون معي مفتاحا خصوصيا لبابك .. واذا لم استطع الحصول على المفتاح فسأتلف السكرة حتى لا يصبح من الممكن اقفال الباب ..

- انك مصمم على ان تعاكسني ..

- انني اجد لذة في ذلك ..

- ولكني لا اجد لذة ..

- انت حرة .. ها نحن قد وصلنا .. انظري هذا اول بيت في بيروت .. هل بيتكم بعيد من هنا ..

- انه لا يزال بعيدا جدا .. في رأس بيروت ..

- هل هو في منطقة جميلة ؟..

- جدا ..

- قريب من البحر ..

- يطل عليه ..

- هذا من حسن حظي ..

ثم اخذ يحدق في البيوت التي يمر عنها والتفت الى امامه وقال مخاطبا الدكتور :

- الم تلاحظ يا دكتور الفرق الشاسع بين الحرب والسلام .. بين بيوتنا التي احترقت وهذه التي لا تزال تسبح في النسيم .. انظر الى هذا الكرميد الاحمر الجميل والى هذه الطيور التي تحجب السماء من كثرتها .. انها طيورنا .. كانت في بلادنا وهربت .. تبحث عن الامن والحرية .. جاءت هنا لتنعم بالسلام .. تماما كما عملت انت وانا اخيرا .. قد ننسى آلامنا بعض الوقت ما دمنا بعيدين عن ذكراها .. وبين هذه المروج الجميلة قد ينسى الانسان نفسه . ولكن هناك شيء مهم لا يجدر بي ان انساه .. وهو انني يجب ان اضحك واضحك دائما .. من كل قلبي ..

وارتفع صوت ابي سامي بالضحك ثم ما لبث ان قال لمنى ..

- هيا يا منى .. ارشدي الدكتور الى الطريق .. انه لا يعرف اين سيذهب بنا ..

فقالت :

- وهل تظنني اعرف انا الاخرى .. عندما نصل الى ساحة الشهداء استطيع من هناك ان ادلكم على الطريق . اما الآن فأظن ان علينا ان نستمر في السير في نفس الطريق ..

ولم يشأ الدكتور ان يضل طريقه فاوقف سيارته اما احدى الحوانيت .. واخرج رأسه من الباب وقال :

- هل تسمح يا سيدي ؟..

- اية خدمة ..

واقترب منه صاحب الحانوت فسأله :

- أتؤدي هذه الطريق الى ساحة الشهداء ..؟

- اجل يل سيدي ..

-شكرا ..

- لا شكر على واجب .. مع السلامة ..

وانطلقت السيارة وقال ابو سامي :

- ان دم اهالي هذه البلاد خفيف .. اليس كذلك يا منى ؟..

- خفيف جدا .. ومعاملتهم للغريب حسنة ..

- انهم عرب ..

وبعد ان وصلت السيارة ساحة الشهداء اخذت منى توجه شقيقها اثناء مسيره .. فتارة تقول له .. خذ يمينك .. وتارة تقول استمر في السير الى الامام ..

وفجأة صاحت سعاد ..

- بابو .. بابو .. هذه هي مدرستي ..

ونظر والدها اليها ثم ابتسم ثم استمر في سيره بينما قال ابو سامي :

- اذن لقد وصلنا البيت .. فلا بد ان تكون المدرسة قريبة منه .. من الذي سيدخل اولا .. نريد ان نفاجئ يوسف .. ما رأيكم ان اكون انا اول من يراه

فقالت منى :

- انه يتوقع قدومك .. اما رؤية حسين فستدهشه حقا .. ومن رأيي ان يراكما معا .. بل ويرانا جميعا دفعة واحدة ..

وصاحت سعاد في تلك اللحظة :

- بابا .. هذا هو البيت .. اوقف السيارة ..

فاوقف الدكتور السيارة والتفت الى منى قائلا :

- هل نسيت البيت ؟..

- كدت ان امر عليه ولولا ان نبهتني سعاد .. هيا بنا .. الحمد لله على السلامة ..

واتجه الجميع ناحية عمارة من اربعة ادوار . واخذت منى تنظر الى احدى البلكونات .. ثم اخفضت بصرها وهي تستمع الى ام انطون صاحبة البناية تصيح :

- ست منى .. اهلا وسهلا .. الحمد لله على السلامة .

فمدت منى يدها وصافحتها باسمة وهي تقول لها :

- الله يسلمك ..

والتفتت ام انطون الى سعاد واخذت تقبلها قائلة:

- يا أمورة لقد وحشتني كثيرا .. تعالي معي . ان لدي من الشيكولاتة التي تحبينها الكثير..

ثم لاحظت ام انطون وجود الدكتور وابي سامي فقالت وهي تنظر اليهما :

- اهلا بكم ..

فهزا راسيهما بينما قالت منى مشيرة الى ابي سامي :

- عمي .. والد يوسف .. ثم اشارت الى الدكتور وقالت :

- شقيقي حسين ..

فهتفت ام انطون :

- حسين .. اهو الذي ؟.

فقالت منى :

- اجل .. هو ..

فصاحت ام انطون وهي تصافح حسين :

- الحمد لله على السلامة .. لقد فرحت كثيرا بخروجك سالما .. هل ستبقى في بيروت باستمرار ؟..

فقال حسين :

- لقد حضرنا هنا للزيارة فقط .. ان بيروت بلد جميل يتمنى الانسان ان يعيش فيه الى الابد .

- ولماذا لا تبقون معنا ؟.. بلادنا بلادكم .. وكلنا اخوة .

- نشكرك يا سيدتي على نبلك وكرم اخلاقك ..

وتذكرت ام انطون انها لم تسلم على ابي سامي فمدت اليه يدها وهي باسمة وقالت :

- اهلا .. اهلا .. لقد عمت بيروت الانوار ..

فضحك ابو سامي وصافحها وهو يقول :

- حقا .. اني لم الاحظ ذلك ولكني اصدقك على كل حال ..

فحدقت فيه ام انطون مندهشة ثم علت وجهها بسمة وهزت يده ثانية قائلة :

- انها فرصة سعيدة .. ارجوا ان تطيب لكم الاقامة هنا . ثم اخذت تدور حول نفسها وتقول:

- يا الهي .. اين منى .. اين سعاد .. لقد صعدتا السلم .. ان يوسف سيطير من الفرح .. هيا بنا اليه ..

(36)

اقبل ابو خالد واخذ يضرب الباب ضربات متتالية وهو يردد بصوت خافت :

- ابو عثمان .. ابو عثمان ..

وفتحت له ام عثمان الباب وقالت وقد راعتها ملامح ووجهه :

- ابو خالد .. خيرا ان شاء الله ..

- اين ابو عثمان ؟..

- انه بالداخل .. نائم ..

- نائم .. هيا ايقظيه ودعيه يهرب باسرع وقت . ان الجنود يبحثون عنه ..

فقالت ام عثمان مندهشة :

- ماذا .. الجنود ..

واندفعت الى الداخل تصيح :

- ابو عثمان .. قم .. ابو عثمان ..

رفع ابو عثمان رأسه واخذ يفرك عينيه ثم رفع يده عن عينيه فجأة وحدق في وجه ابي خالد الذي اخذ يستنهضه باشاراته وحركات وجهه ..

مان :

- ماذا حدث ؟..

فقال ابو خالد :

- الجنود يبحثون عنك .. انهم سيعيدون جميع المساجين الذين افرجوا عنهم .. لقد رأيتهم يفتشون على الدكتور وانهم الآن في طريقهم اليك .. هيا انج بنفسك ..

- اين سأذهب .. كل البلاد في ايديهم الآن .. والثورة قد انتهت .. اذن لقد لعبوا لعبتهم وخدعوا الزعماء الذين اقنعوا الثوار بالهدوء .. يا لهم من انذال ..

- ليس هذا وقت حديث .. هيا اخرج من هذا البيت .. وانت يا ام عثمان عندما يحضر الجنود قولي لهم انه سافر الى الشام .. هل فهمت .. الى الشام ..

فقالت ام عثمان :

- وهل سيسافر حقا الى الشام ؟..

ونظر ابو عثمان الى ابي خالد مستفسرا ومنتظرا اجابته ..

- لا .. ولكننا نريد ان ندعهم يتوقفون عن البحث عنه ..

فقال ابو عثمان :

- وهل سيصدقون كلامها ؟..

- ولماذا لا يصدقونه .. بحثوا عن الدكتور فلم يجدوه والناس قالوا لهم انه قد سافر الى بيروت .. واظنهم لن يكلفوا انفسهم مشقة البحث عنك عندما يتوهمون انك سافرت الى الشام .. هيا .. هيا ..

وخرج ابو خالد وابو عثمان .. واخذا يشقان طريقهما بحذر حتى وصلا الى بيت ابي خالد .. وقال ابو عثمان :

- الى اين ..

- الى بيتي ..

- ان في ذلك خطر عليك .. لن ادخل .. سأختبئ في البيارات ..

- لا تفعل هذا .. قد يراك احد وانت في البيارة فتقع المصيبة .. اما هنا فلن يفكر احد بوجودك ..

- لا يا ابو خالد .. لن اضر الناس ثانية .. يكفي ما اصاب الدكتور من تحت رأسي ..

- قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا .. هيا ..

- هل انت مصمم ..

- اجل .. هيا قبل ان يلمحك احد ..

ودخل الاثنان وامتقع وجه ام خالد وهي تشاهد الارتباك الذي علا وجهيهما ونظرت الى زوجها وقالت :

- ماذا حدث ..

- لا شيء .. هل عندك شيء يؤكل ..

وهزت رأسها .. والتقت نظراتها بنظرات زوجها فاتجهت الى المطبخ مسرعة وهي تدعو الله ان يتمم الامر على خير .. انها لا تعرف لماذا انقبض قلبها .. قد يكون ذلك نذير بحدوث ما لا يحمد .. ولكنها عادت تدعو الله ان يدفع المقدر باللطف الخفيف ..

واحضرت الطعام بعد لحظات قضاها ابو عثمان وهو شارد الفكر .. ماذا عليه ان يفعل .. انه لا يستطيع ان يستمر في اختبائه عند ابي خالد .. فهو ايضا لا يريد ان يقبض عليه .. لقد رأى الاهوال والعذاب التي يقدمه السجن لضيوفه وهو لا يود ان يراها ثانية .. وتذكر الدكتور انه في بيروت .. فطمأن .. ثم تسائل : ولكنه لم يذهب للاقامة هناك .. ذهب فقط ليستريح ثم يعود .. ومن يدري قد يكون الآن في طريقه الى هنا .. لا .. انه يجب ان ينجو .. يجب ان يبقى هناك .. سأخبره .. ساذهب بنفسي .. والتفت الى ابي خالد ، ولكنه فوجئ بام خالد تحمل الطعام فانتظر حتى وضعته امامهما وانصرفت فقال :

- ابو خالد .. الدكتور .. يجب ان لا يعود من بيروت .

قال ابو خالد :

- ومن قال انه سيعود ؟..

- انه لم يذهب ليقيم هناك .. لقد قال لي انه سيعود قريبا ..

- لا اظنه سيفعل .. ان بيروت جميلة تنسي الانسان كل شيء ..

- ولكنه لا يستطيع ان ينسى بيته .. وطنه .. ارضه .. عمله . واذا عاد فانت تعلم المصير الذي ينتظره .. يجب ان اخبره .. سأسافر بنفسي ..

- ولكن الطرق الى بيروت صعبة وقد يكتشفون امرك ..

- الا اعتقد .. انهم يتشددون في التفتيش على المسافرين الى سوريا حيث قيادة الثورة ..

- لقد تعقد الامر .. لقد اصبحت السلطات الفرنسية تقبض على الثوار وتسلمهم للسلطات البريطانية .. لقد اصبحا معا يقفان امام عدو واحد .. هو الشعب العربي ..

- ولكن الله لن ينساهما .. لقد ارسل لهما عدوا ثانيا اقوى منهما .. انهما يرتعدان خوفا منه .. منذ ان اعلن عليهما هتلر الحرب وهما يعيشان بدون اعصاب ولكنه سيذلهما باذن الله .. سيخلصنا منهما ومن ظلمهما وسنستعيد حريتنا واستقلالنا .. ولكني قبل كل شيء يجب ان اسافر الى بيروت باي طريقة .. فكر معي ..

- ما رأيك برسالة نبعثها اليه ..

- هذا بالنسبة له .. وانا .. هل سأبقى سجينا هنا والى متى .. لا .. يجب ان اذهب بنفسي ..

فالقى ابو خالد بيده على ظهر ابو عثمان وقال :

- لتناول الطعام وبعد ذلك يخلق الله ما يشاء ونفكر سويا .. هيا تفضل ..

واخذا يتناولان طعامهما دون ان ينطقا بكلمة . وفجأة توقفت يد ابي عثمان التي كانت توشك ان تضع اللقمة في فمه وقال:

- ساسافر عن طريق البحر .. لن يكتشف امري احد .. فما رأيك ؟.

وتوقف ابو خالد بدوره عن الاكل .. وكأنما اعجبته الفكرة فاخذ يهز رأسه ثم قال:

- فعلا .. فكرة رائعة .. ويمكن تنفيذها .. هل تعرف احد البحارة في يافا .. انك لا تستطيع ان تسافر بواسطة باخرة .. ستضطر للذهاب الى حيفا .. وقد يكتشف امرك في الطريق اليها ..

فقال ابو عثمان :

- هل تعني انني ساسافر بزورق مع احد البحارة .. ان في ذلك خطر ..

- خطر .. لا تبالي .. لقد سمعت من ابني خالد ان نابليون سافر بقارب صغير من مصر الى فرنسا ..

- ولكني لست نابليون .. ولكن لماذا لا اكون كذلك .. اجل استطيع ان اعتمد على احد البحارة .. كان صديقا للمرحوم سامي ويمكنه مساعداتنا ..

- ما اسمه ؟..

- مجمود .. وتوقف فجأة ثم قال :

- محمود حمزة على ما اعتقد .. كان يقيم في يافا القديمة قبل ان يهدمها الانجليز يمكنك ان تسأل عنه أي بحار او صياد فيدلك عليه ..

- حسنا .. سفرك الى يافا ليس فيه خطورة ..

- من رأيي ان اسافر الليلة ..

- الليلة ..

- اجل .. وخير البر عاجله .. الطريق الى يافا ليس فيه ما يخيف ..

- كما تشاء .. الا تنتظر حتى تغيب الشمس وتسافر الى يافا ؟.

- لنسافر الآن حتى نتمكن من ايجاد مجمود .. هيا بنا عن طريق البيارات ..

ووقف ابو عثمان واخذ ينظر الى ابي خالد الذي كان لا يزال جالسا .. فنظر الى اطباق الطعام ثم رفع ابو خالد عينيه واتجه بنظراته الى ابي عثمان وسأل :

- هل لديك نقود ؟..

فهز ابي عثمان رأسه وهو يضرب بيمناه على صدره حيث كانت محفظة نقوده .. وقف ابو خالد واتجه الى المطبخ حيث توجد زوجته تعد القهوة .. وقال لها :

- لا ضرورة للقهوة .. نحن خارجان ..

- الى اين ؟.. متى ستعود ؟..

- بعد قليل .. اذا سألك احد عني فلا تقولي ان ابو عثمان كان معي ..

فنظرت مستغربة .. وقالت :

- لماذا ؟.. هل حدث شيء ؟ ..

فقال لها ..

- اجل .. ولا نريد ان يعرف احد انه كان هنا ..

- والى اين ستذهبان ؟..

- لا داعي لتضييع الوقت .. كل شيء سيتم على ما يرام باذن الله ..

وخرج الرجلان وتسللا بهدوء حتى القيا بجسميهما في جوف احدى البيارات واخذا يشقان طريقهما ودون ان يشعرا بخوف . فالبيارات متراصة الى جانب بعضها البعض وتستطيع اشجارها ان تخفيهم عن العيون حتى مدينة يافا ، حيث يضمهما صخب المدينة الصغيرة .

وعلى شاطئ البحر وبدون مشقة كبيرة استطاعا مقابلة محمود حمزة .. وهز الاخير يد ابي عثمان بعد ان ذكره هذا بسامي حيث اجتمعا من قبل اكثر من مرة وقال محمود :

- خيرا ان شاء الله ..

فقال ابو خالد :

- خيرا .. انت تعرف الدكتور حسين شلبي صهر المرحوم سامي ..

- دكتور حسين .. اعرفه .. لقد كان يعالجني وجميع اصدقائي البحارة بالمجان .. انه انسان طيب ..

- اذا كان كذلك فنحن نرجوك ان تقدم له ولنا خدمة ..

- انا على استعداد لان اخدم .

فقال ابو عثمان بصوت خافت :

- لقد قبض الانجليز على الدكتور منذ مدة ثم افرجوا عنه بعد اصدار الكتاب الابيض ، ثم عادو فنكثوا بعهودهم التي وقفت على اساسها الثورة واخذوا يبحثون عن المساجين ليعيدوهم الى السجن .

فقال محمود مستغربا :

- يعيدونهم الى السجن .. يا لهم من مجانين . ليحاولوا ان ينجوا بانفسهم بدل ان يضيعوا وقتهم في مطاردة مساجين . ان هتلر سيزلزل كيانهمن ..

فقال ابو عثمان :

- انهم لايعيدونهم الى السجن ليحرسونهم .. انهم يعدمونهم ..

فثغر محمود فاه وقال :

- يعدمونهم ..!!

- اجل .. وبدون محاكمة ..

- والدكتور ؟..

- الدكتور الآن في بيروت .. ولكنه لا يدري بما يحدث هنا ، واظن ان الصحف في لبنان لا تكتب عنه حيث ان فرنسا حليفة للانجليز وتخوضان معا حربا واحدة .. ويجب ان نتصل بالدكتور ونطلب منه عدم المجيء ..

فقال محمود :

- امر بسيط .. اعطوني عنوانه وسأذهب اليه فورا ..

- هناك امر آخر مهم ..

- ما هو ؟..

- يجب ان يسافر معك ابو عثمان ..

فنظر محمود الى ابي عثمان وطالت نظراته التي انخفضت ثم ارتفعت ثم قال :

- وهل انت ايضا مطلوب ..

فهز ابو عثمان راسه فاستطرد محمود ..

- كنت اود ان اسافر عن طريق البر ولكني سأضطر ان اسافر عن طريق البحر ..

فقال ابو عثمان :

- هذا هو السبب الذي دعانا الى المجيء اليك ..

فقال محمود :

- اذن هيا بنا .. لنسافر الليلة .. سنذهب نحن الثلاثة ..

فقال ابو خالد :

- انا اسافر ..! لا داعي لذلك .. ثم انني مضطر لان ابقى لاتدبر امر عائلتين .. عائلتي وعائلة ابي عثمان ..

فقال محمود :

- اذن سيذهب معنا فوزي

فقال ابي عثمان :

- فوزي من ؟..

- صديقي صياد .. سنذهب على اننا صيادين ..

- هيا معي لتستبدل ملابسك حيث يجب ان تكون صيادا ..

وسار الثلاثة على شاطئ البحر ثم توقف محمود وطلب منهما الانتظار لحظة واتجه الى داخل المقهى القريب وعاد بعد قليل ومعه احد الصيادين فقدمه اليهم وهو يقول :

- فوزي ..

وتصافح الثلاثة ثم استمر الاربعة في السير حتى وصلا الى بيت وهناك قال فوزي :

- سأعود بعد قليل .. لا بد ان اخبرهم في البيت انني سأنزل البحر ..

فقال محمود :

- لا تطل غيابك .. نحن على استعداد ..

وبعد دقائق عاد فوزي وهو يحمل شبكة على كتفه واتجه الجميع الى البحر حيث القارب الذي سيحملهم واخذ ابي عثمان يقبل ابي خالد ويوصيه خيرا بزوجته واولاده . واندفع القارب في داخل البحر الذي كان احمرار الشفق يلقي عليه الوانا زاهية تبعث الامل . ورفع ابو خالد يده واخذ يحركها وهو واجم ثم اختفى الزورق واخذ يتمتم :

- مع السلامة .. مع السلامة ..

(37)

السكون الذي جاء به الليل كأنه قطعة موسيقية تنقل الانسان الى عالم لانهائي .. وصفعات الامواج التي لم تصل الى حد الصخابة كانت تبعث في السكون احيانا روح الحركة ، وترتفع بالزورق ثم تنخفض ، فيشعر ابو عثمان بسمو روحه ثم بانخفاضها .. يشعر بالزهو وهو يعلو ، ثم ينقبض قلبه فجأة انه يهبط .. لماذا لا يظل يسمو ويسمو الى ان يصل الى العالم الآخر .. لماذا لا يدخل الانسان ذلك العالم عن طريق سماوي .. لماذا عبر الارض .. !!!! .. ان هذا الطريق الذي يسير فيه الانسان قد يقوده الى عالم خير من العالم الذي يعيش فيه .. ولكنه لا يدري ، أعن طريق الارض ؟ أعن طريق ذلك القبر الصغير ينتقل الانسان الى عالم الخلود !؟. ام عن طريق السماء التي تفتح لروح الانسان الطريق كي تصل الى بارئها ؟! واخذت انظار ابي عثمان تتساقط حوله . فهي تحدق في النجوم تارة كأنها تراها لاول مرة .. يا لمنظرها وهي تنعكس على صفحة الماء .. وهل لهذا الماء قرار ؟. هل توجد تحته ارض كتلك التي نعيش عليها ؟! ام انها خلقت خصيصا ليعيش عليها الجان .. واغمض عينيه ثم فتحهما . واتجه ببصره الى البعيد ، فرأى اضواءً تنبعث وراعه بعضها .. كان يختفي لحظة ليعود ثم يختفي .. فنظر الى محمود الذي كان يجلس في مقدمة الزورق ، يقبض على محرك الدفة في عزم ، بينما انطلقت ابصاره امامه كأنها تبحث عن خيط سحري يرسم لها الطريق الصحيح .. اما فوزي فكان يمسك في يده مجموعة من الحبال .. تتصل بسارية الشراع الذي كان يرتفع عاليا كانما يهزأ من الريح . وقال ابو عثمان وهو يشير الى تلك الاضواء :

- هل لاحظت تلك الانوار .. ما هي ؟..

فنظر محمود الى الاضواء ثم عاد ينظر امامه وهو يقول :

- هذه باخرة في طريقها الى ميناء حيفا ..

تساءل ابو عثمان :

- وهل اقتربنا من حيفا؟.

ضحك محمود وقال :

- حيفا .. اين نحن منها بعد .. اننا لا زلنا قرب يافا .. انظر خلفك .. الاضواء القريبة صادرة من تل ابيب .

واتجه ابو عثمان ببصره .. كانت فعلا اضواء قريبة تتبعه من على الساحل .. فقال :

- اهذه هي تل ابيب .. متى سنصل اذا ؟!

- باذن الله بعد ثلاثة ايام ..

- نرجو ان لا يعود الدكتور خلال هذه المدة ..

وهتف محمود كأنه تذكر شيئا ..

- على فكرة .. لماذا قبضوا على الدكتور ؟..

- لو عرفت السبب لضحكت .. انه حكم من يظن انه قوي ناسيا ان الله اقوى منه ..

واخذ ابو عثمان يسرد على مسامع محمود الحكاية وعندما انتهى قال محمود :

- واخوك .. ماذا حدث له ؟.. هل اعدموه ؟..

- منذ ان نقلوه من سجن يافا في تلك الليلة لم نعرف له اثر ..

- قد يكون لا يزال في السجن ..

- لقد سالنا .. بعد ان افرج عني ذهبت الى سجن عكا . كان كثير من المساجين قد افرج عنهم ، ولم يكن هو بينهم . ولما حاولت ان اعرف اذا كان لا يزال في السجن اخبروني ان السجن لا يحوي مجانين ..

- وهل جن حقا ؟..

- لقد تعذب نفسيا تلك الليلة واظن ان ضميره صحا ولم يطاوعه عقله فاخذ يهذي ويصيح قالوا انه جن ..

فقال محمود :

- انه يستحق النهاية التي وصل اليها ..

- نرجو الله ان يغفر لنا جميعا . ان النهاية التي تنتظر اعدائنا الذين عذبونا وحرمونا من حقنا في الحياة ستكون قاسية ..

- متى سيتركوننا وشأننا ؟..

- عندما يشتد اوار الحرب سيتجهون لحماية بلدهم ..

- انهم لا يريدون ان ينقلوا المعركة الى بلا دهم .. هم يحاربون وينتصرون على اكتاف الغير .. قريبا سيكونون جيشا من العرب ليحارب الالمان

وصاح فوزي :

- ارجوا ان يضعوني ضابطا .. وبدل ان آمر الجنود بضرب الالمان .. سآمرهم بضرب الانجليز.. لا يمكن .. لو جندونا فسنكون عليهم وليس معهم .. انهم سيجندون اليهود عملاءهم وليس العرب .

فقال ابو عثمان :

- انهم لن يستطيعوا ان يخدعونا ثانية .. تكفي الدروس الذي تعلمناها من الحرب العالمية الاولى .. الم نطهر لهم البلاد من الاتراك ونريحهم من عدو لدود .. وكان جزاؤنا جزاء سنمار

فقال محمود :

- لا تنسى اننا عدنا وخدعنا .. لقد انهينا الاضراب الذي دام ستة شهور حيث كاد الامر ان يفلت من يد الحكومة بقتال وننال رغباتنا . وها قد خدعونا ثانية واعلنوا الكتاب الابيض وافرجوا عن المساجين فشكرناهم .. ثم عادوا ينقضون كل شيء . ولماذا نحن الآن في عرض البحر .. هل نتصيد سمكا .. لا .. بل لانهم نقضوا عهدهم وخدعونا .. ومن يدري لعلهم يعدون الان خدعة جديدة تفوق سابقاتها دهاء ومكرا ..

وتوقف محمود عن الحديث لحظة ثم التفت الى فوزي وقال :

- فوزي .. دع ابو عثمان يحل محلك ونم لنتبادل العمل والنوم نحن الثلاثة حتى لا نرهق انفسنا ..

واتجه ابو عثمان ناحية فوزي وامسك الحبال في يده .. لم يكن عليه ان يفعل شيئا .. الا اذا طلب منه ..

والقى فوزي بنفسه في قاع الزورق واخذ يسرح بافكاره ويعد النجوم في السماء حتى يستطيع ان ينام..

واستمرت الرحلة هادئة طوال الليل. واشرقت الشمس في الصباح باعثة النشاط والحياة.. واخذ ابو عثمان يتفحص الماء ويحدق في هذا البحر. لم يكن يصدق أن له آخرا .. لولا ان الساحل الفلسطيني كان يتراءى له من بعيد ..

لم يكن قد نام طوال الليل فطلب منه محمود ان ينام حتى يستطيع ان يعاود العمل نشيطا.. فاستلقى تحت الشمس ، حيث ان ظل الشراع لم يكن يستلقي على الزورق بعد .. وعندما استيقظ كانت الظلال تخيم عليه والشمس في وسط السماء ..

وعاد الى العمل والحديث عن الثورة وعن مستقبل الوطن وعما يخبئه القدر من متاعب او انتصارات.. وقال محمود :

- لقد اتعبتنا الثورة كثيرا .. اربعة سنوات متتالية. لم يصمد شعب في العالم مثلما صمدنا .. وبماذا كنا نحارب ؟ وبماذا كانوا يحاربوننا ؟. ان التاريخ لن يغفل عن ذكرنا . بل انه سيجعلنا للامم رمزا حتى ولو لم نحصل على ما ثرنا من اجله.

فقال ابو عثمان :

- لقد جاع الشعب وعري واصبح هم الناس تامين لقمة العيش.. لقد افسد الانجليز كل شيء .. البيارات حطموها . والبيوت دمروها .. والحوانيت نهبوها . والناس الآن عازمون على اصلاح ما افسد وعندما تعود الاحوال الى طبيعتها ستندلع الثورة من جديد .. ان للحرية التي نسعى اليها انواراً لا تنطفئ مهما قست عليها الرياح ..

وسكت ابو عثمان ثم عاد فقال :

- هيا ايقظ فوزي لتنام.. ان الشمس توشك ان تغرب ..

نظر محمود الى الشمس.. كان منظرها رائعا حقا .. تسطع استدارة قرصها وقد استلقت في بحر من الدم. واخذ البحر يلتهمها شيئا فشيئا .. ثم ما لبث ان اطبق عليها فاه مخلفا دمائها التي كانت تصبغ الافق ..

وعندما غربت الشمس في اليوم التالي كانوا قد تجاوزوا مدينة عكا . وكان الارتياح باديا على ابي عثمان الذي شعر بأن مهمته سيكللها الله بالنجاح.. وانه سيستطيع ان ينقذ الدكتور ليكفر بذلك عما سببه له فيما مضى من متاعب. واخذ ينظر الى نفسه.. هل سيقابل الدكتور بهذه الثياب التي تخيل انها لا تناسبه.. وهذه العمة التي تعلو رأسه. انه لا يعرف اذا كانت تزيده وقارا ام بلادة.. اما هذا القميص ذو الاكمام الفضفاضة وهذه الصدرية العديمة الاكمام التي تعلوه ، والتي تلاصقت في مقدمتها الازرار الصغيرة في صف منتظم. واخذ يسلي نفسه باللعب في تلك الازرار ، وشعر ان له رغبة في ان يعدها . وبدأ فعلا ، لولا ان جلب انتباهه منظر سرواله ذي الارجل الضيقة بينما كان من الاتساع عند المنتصف بحيث يمكن ان يخفي بين رجليه.. خروفا .. بل عجلا صغيرا .. ووقف ابو عثمان فجأة واخذ يرفع تلك الاقمشة التي يصرون ان يضيعونها سدى لتسدل خلفهم كالية الخروف.. حقا لماذا لا يقتصدون في شراء هذه الاقمشة وتركها تذهب هباء دون ان تبعث في الملبس نفسه أي جمال.. وتذكر منظر البنطلونات التي يلبسها الانجليز وبعض الشباب والمثقفين من العرب ، امثال الدكتور حسين.. انها لا تحتاج لغير نصف القماش الذي يحتاج اليه سروال كالذي يلبسه هو. وتذكر انه لم يتناول طعاما منذ ان صحا من نومه. فاتجه ناحية صندوق وضع في قعر الزورق فاتجه واخذ يحدق في محتوياته كانما يحاول ان يختار ما يأكله.. لم يكن امامه سوى بعض الارغفة التي جفت ويبست تحيط بها حبات من البرتقال واقراص الجبنة

. تناول رغيفا وقطعة جبن وغطى الصندوق ثم عاد وفتحه بسرعة وتناول حبة برتقال اخذ يقذفها في الهواء ثم يلقفها . وعاد فاقفل الصندوق وجلس فوقه . قشر برتقالته حتى اذا فرغ من ذلك شقها ووضع نصفها على حافة الصندوق وتناول الرغيف وقطعة الجبنة ووضعها على ركبته ثم التفت الى فوزي الذي كان يقود الزورق وقال له :

- الا تريد ان تأكل .. تفضل ..

فقال فوزي دون ان يلتفت :

- لقد اكلت قبل لحظات ..

فقال ابو عثمان وقد تغير صوته لأن اللقمة كانت لا تزال في فمه :

- المؤونة اوشكت ان تنتهي .. لابد من نزولك للبر في لبنان لتحصلا على مؤونة العودة ..

ولم يلتفت فوزي ايضا ولكنه قال :

- اظن ان هذا ما سيحدث فعلا .. وانا اود ان ارى لبنان .. يقولون انها جميلة ..

- ولكننا يجب ان نرسو في مكان لا نلفت فيه انظار السلطات اللبنانية .. نحن جميعا لا نحمل جوازات سفر ..

- لا تقلق بالك .. البحر هو بلد الصياد اينما اتجه واينما حل ، فما دام الماء يحمله والسماء تظلله فهو في بيته ..

قال ابو عثمان :

- ولكن عندما تنزل الى البر تصبح في بيوت الغير ويمكن ان يقبضون علينا ..

- وهل نحن من الاهمية بحيث نلفت انظارهم . ثلاثة صيادين وجوهنا تنم عن كوننا عرب تماما كوجوه اهل هذه البلاد ، ولغتنا كلغتهم وان اختلفت اللهجة قليلا ، فمعنى ذلك ان اهال البلد سيبالغون في تكريمنا . اما الفرنسيون فانهم لن يفطنوا الى الفرق . كما وان امور الحرب التي نشبت تشغلهم عما هو اهم منا بكثير ..

وكان ابو عثمان قد انتهى من تناول طعامه خلال هذا الحديث فاتجه ناحية فوزي وقال له:

- متى سنصل بالضبط ..

- لا ادري .. قد نكون غدا في بيروت ..

- ارجوا ذلك .. هيا ايقظ محمود لقد نام كثيرا واظن ان كثرة النوم تورث الكسل ..

وترك فوزي الدفة واخذ الزورق يشق طريقه وحيدا تسيره الرياح التي بدأت تضعف لدرجة جعلت محمود يستعمل المجداف ليزيد من سرعة الزورق ..

عند اصيل اليوم التالي تراءت لهم بيروت وهي تطل على البحر . وخيل لابي عثمان انها تمد يديها لتحتضنهم . واخذ ينقل ابصاره يحاول ان يحدد المكان الذي سيجد فيه الدكتور فالمدينة شاسعة مترامية الاطراف .. واخذ ينظر الى الناحية الاخرى .. كان الماء هو كل ما رآه . ولوحة الشفق الاحمر ترسم على صفحة الماء صورا تختلف عن آثارها التي تركتها على صفحة السماء .. وعاد ينظر الى بيروت . كانت لا تزال تستلقي عليها خيوط من النور الاحمر تنبعث من الشمس التي تصارع قبضة المغيب . وثلاثت تلك

الخيوط فالتفت ليرى الشمس وهي تودع هذا العالم. فاتجه الى محمود الذي كان نائما في بطن الزورق واخذ يهزه وهو يقول:

- محمود .. محمود .. لقد وصلنا ..

وفتح محمود عينه وقال:

- الحمد لله على السلامة .. لقد قمت بواجبي

قال ابو عثمان ..

- ليس بعد يا صديقي .. اني عاجز عن شكرك على كل حال يجب انزل الى البر ..

فقال محمود :

- ونحن كذلك لابد من الحصول على الطعام ..

وترك فوزي الدفة والمجداف واتجه الى مؤخرة الزورق. وما هي الا لحظات حتى كان الزورق بدون شراع .. وجلس ثلاثتهم في وسط الزورق الذي توقف عن السير وبدا على محمود كأنه يفكر ولم يشأ احد منهم ان يزعج الآخر .. كلهم بدا عليهم التفكير ..

ولكن محمود كان اول من رفع رأسه وقال موجها حديثه الى ابي عثمان:

- من رأيي ان اتركك تنزل الى الشاطئ في احدى زوارق الصيادين اللبنانيين ..

وعندما سأله ابو عثمان عن السبب قال:

- نحن اذا قبض علينا سنثبت اننا صيادين .. ابعدتنا الامواج عن شواطئ فلسطين وضللنا الطريق .. وليس عليهم بعد ذلك الا ان يعيدوننا .. اما انت فلا نريد لك ان تعود ..

سكت محمود واخذ ابو عثمان ينظر الى وجهه ثم وجه بصره الى فوزي كأنما يسأله ان يجد حلا .. ولكن هذا اخفض بصره واخذ يعبث بازرار سترته فقال ابو عثمان:

- وكيف سنحصل على زورق لبناني ؟.. انني لا ارى أي اثر للزوارق حولنا ..

واتجهت انظار الثلاثة تتسابق في البحث عن زورق واخذت رؤوسهم تدور وتميل وصاح فوزي ..

- هناك .. انني ارى زورقا ..

والتفت محمود الى الناحية التي اشار اليها فوزي وقال:

- اجل .. يمكننا ان نلحق به قبل ان يصل الى الساحل.

واتجه من فوره الى المجداف بينما اشار على فوزي ان يقبض على المجداف الآخر .. واخذ كلاهما يسارعان في التجديف كانهما في سباق بينما اخذ الزورق يشق طريقه حتى خيل لابي عثمان انه يسير بسرعة تفوق السرعة التي يسيره بها الشراع ..

واخذ العرق يتصبب غزيرا من وجه فوزي وبدا التعب على كليهما. واتجه ابو عثمان ليأخذ مكان فوزي حتى يترك له فترة من الراحة ولكن فوزي اصر ان لا يترك المجداف حتى يصلا الى ذلك الزورق الذي اخذت المسافة بينه وبينهم تلاشى بسرعة عجيبة .. حيث كان ملاحوه فيتجهون نحوهم بسرعة.

ووقف ابو عثمان في وسط الزورق واخذ يلوح بعمامته البيضاء وكان الليل قد اوشك ان يجعل في الرؤية صعوبة . ولكن ابصار الصيادين التقت وتقارب الزورقان بعد لحظات وكف محمود عن التجديف ووقف ثم صاح بصوت جهوري :

- يا اخوان ..

فرد عليه صوت من داخل الزورق الذي اصبح على بعد امتار منهم :

- مساء الخير يا شباب ..

وكاد الزورقان ان يتلاصقا . واخذ كل جماعة يحدقون في الزورق المقابل لهم .. ونظر محمود الى الرجلين الذين كانا داخل الزورق .. وخيل اليه انهما سيقومان بعملهما خير قيام فقال :

- يا اخوان .. نحن من فلسطين ..

فصاح احد الرجلين .

- من فلسطين .. اهلا وسهلا ..

فعاد محمود يقول :

- كل ما نرجوه منكم ان توصلوا هذا الصديق الى بيروت فهو مصر ان يزور اقاربه هناك ..

فعاد الرجل يقول :

- وانتم لماذا تزوروننا بدوركما .. ان بيروت جميلة وستعجبكم ..

فقال محمود :

- في مرة قادمة .. ان شاء الله ..

ومد الرجل يديه مستقبلا ابو عثمان وهو يقول:

- اهلا وسهلا .. تفضل يا اخ

واخرج ابو عثمان حافظة نقوده من جيبه واخرج منها ورقة نقدية بقيمة عشرة جنيهات وناولها ال محمود واصر هذا على الرفض ولكن ابو عثمان تركها تسقط في ارضية الزورق والقى بنفسه في الزورق الآخر واخذ يشير اليهم بيديه مودعا وشاكرا ..

وابتعد الزورقان عن بعضهما . وفطن ابو عثمان للغلطة التي ارتكبها . ما كان يجب ان يجعل هذين الرجلين يشعران بوجود نقود كثيرة معه .. لقد رأيا الاوراق المالية ورأياه يلقي بالعشرة جنيهات وكانها ليست ذات قيمة . قد يطمعان فيه .. قد يقتلانه ليستوليا على نقوده . واخذ ينظر اليهما وخيل اليه ان نهايته قد اقتربت .. كان على استعداد لان يترك لهما كل شيء حتى لا يقتلوه .. هو لا يريد ان يموت .. ان عليه دينا يجب يوفيه لا محالة. يجب ان يتصل بالدكتور وينقذه .. ولم يلاحظ ابو عثمان أي اثر لما فكر فيه . فقد كان سلوك الرجلين عاديا وكانت نظراتهما لا تنبئ الا عن حسن النية وقال احدهما وهو يشير خلفه ..

- انني ارى ان اصحابنا لم يبتعدوا .. انهم يسيرون خلفنا فالتفت ابو عثمان وشاهد الزورق الذي كان فيه وقد اخذ يشق طريقهم بسرعة نحوهم .. ولكنه ما لبث ان رآه يغير اتجاهه ويسير موازيا للاتجاه الذي كانوا يسيرون فيه وتذكر ان محمود قد لفت انتباهه بحيث فطن الى ما كان يفكر فيه فاراد ان يشعر

الرجلين بانه يراقبهما حتى لا يقترفا جريمة.

وقال ابو عثمان الى الرجل الى جواره وقال له :

- لا اظنهما يريدان اللحاق بنا .. انهما سيتجهان الى حيفا ..

ثم سكت لحظة وقال :

- متى سنصل الى الشاطئ ؟..

فقال الرجل :

- بعد ساعة .

وقف ابو عثمان في وسط الزورق واخذ ينظر حواليه . كان الظلام قد امتد واصبح من الصعب ان يشاهد أي اثر للزورق الآخر وان كان يشعر انه لابد وان يكون على مقربة منه ..

وخيب الرجلان سوء ظنه . فما هي الا ساعة حتى كانت قدماه تقبلان الشاطئ اللبناني. وكان الرجلان الى جواره يرحبان به في ارضهما .. وسار معهما حتى وصلا الى مقهى حيث جلس الثلاثة . فيه وبينما كانوا يرتشفان الشاي ترك ابي عثمان كأسه فجأة واخرج من حافظة نقوده ورقة نقود بخمسة جنيهات وقدمها الى احد الرجلين وهو يقول :

- آسف لانني لا احمل نقود لبنانية .. ارجو ان تقبلا مني هذا المبلغ البسيط ..

ونظر اليه الرجل دون ان تتحرك يده ثم ابتسم وهو يهز رأسه قائلا :

- عيب .. يا أخ .. نحن لم نعمل شيئا نستحق عليه الشكر .. انت ضيفنا ..

وقال ابو عثمان والورقة النقدية لا تزال في يده :

- انني عاجز عن شكركما ..

ولما تطاوعه يده في اعادة الخمسة جنيهات ولاحظ الرجل ذلك فمد يده وطوى يد ابي عثمان على الخمسة جنيهات التي فيها وتركها تستقر في الحافظة ثم مد يده ليلتقط كأس الشاي الذي كان قد تركه .

لم يكن امام ابي عثمان غير طريقة واحدة للاتصال بالدكتور . فاتجه من فوره صباح اليوم التالي الى الجامعة الاميركية واخذ يسأل عن الطالب الفلسطيني يوسف عبد المجيد حسن. ولم يجد صعوبة في العثور عليه .. ودهش الدكتور لمنظر ابي عثمان وهو يرتدي هذه الملابس القديمة ، بينما اخذ عبد المجيد حسن يعلق عليه وهو يكاد يستلقي من الضحك على وجهه .. ولما اخبرهم ابو عثمان بالسبب الذي جعله يفعل ما فعل نظر اليه الدكتور نظرة شكر ، بينما بدأ الجد يأخذ طريقه الى وجه ابي سامي الذي وقف ومد يده الى ابي عثمان وصافحه قائلا:

- نحن عاجزون عن شكرك .. وعلى العموم الحمد لله على سلامتك ايضا ..

ثم ضحك ابو سامي وهو يتم حديثه قائلا :

- كانوا يريدون ان يجعلوا منك شهيدا .. يا لهم من مغفلين .. ان ملك الصيادين يجب ان لا يموت شهيدا اليس كذلك يا سندباد ..

وضحك ابو عثمان .. وضحك الدكتور والتفتت منى الى ابي عثمان وقالت :

- وكيف حال ام عثمان .. والاولاد .. وجميع اهالي القرية ؟..

فقال ابو عثمان :

- والله لا ادري ماذا اقول .. لقد عمت البلاد فوضى الحرب واخذ الناس يهربون الاحلام العريضة ليعيشوا في الواقع المر .. اصبح الطعام هو الهدف الاول للناس ..

التفت ابو سامي الى ابي عثمان وقال له :

- والآن .. الا تريد ان نبحث لك عن ملابس غير هذه ؟.. ان رائحة السمك تنبعث منك ..

وضحك ابو عثمان وقال :

- لقد تركت ملابسي في يافا .. واظن انه علي ان اشتري ملابسا جديدة .. سافعل ذلك غدا...

كانت سعاد تجلس الى جوار عمتها وهي متجهة بنظراتها الى ابي عثمان ، والذي كان منظره يثير فيها غريزة التأمل والفضول .. واخذت تهمس في آذان عمتها دون ان تشعر الآخرين . ولاحظ ابو سامي حركة سعاد فنظر اليها وقال :

- سعاد .. ماذا كنت تقولين ؟..

فقالت وقد بدا عليها الارتباك ..

- لا شيء يا جدي ..

فعاد يقول لها وقد تصنع الجد في لهجته ..

- اذا لم تقولي الحقيقة .. فان عمتك ستخبرني بما قلته لها ..

فنظرت سعاد الى عمتها التي كانت البسمة تعلو وجهها وشعرت سعاد بان عمتها تطمئنها بانها لن تقول شيئا مما سمعته .. فالتفتت الى ابي سامي وقالت له :

- لم اقل شيئا مهما ..

فقال ابو سامي محتدا :

- ولكني اريد ان اعرف هذا الشيء غير المهم .. انني مغرم بمعرفة التوافه .. اليس كذلك يا ابو عثمان ..

فضحك هذا وقال :

- ان الطيور ..

فهز ابو سامي راسه بحركة بهلوانية وهو يقول :

- ان الاسماك ..

وانتزعت حركته ولهجته الضحك من الجميع ..

ووقفت سعاد بعد ان مسحت دموعا طفرت من عينها لشدة ضحكها ، فتناولها ابو سامي قائلا :

- اين ستذهبين ايتها العفريتة .. ماذا كنت تقولين ؟..

فنظرت اليه وحاولت ان تقلده في حركته الاخيرة وهي تتمتم :

- كنت اقول.. ان الاسماك..

وعاد الضحك يدوي في الصالة من جديد ...

(38)

دخلت منى المطبخ لتعد طعام العشاء. واخذت يداها تعملان بنشاط. ورات ان تساعدها سعاد فنادتها. ولكن سعاد لم تات ولم ترد وعادت تصيح:

- سعاد .. سعاد ..

فرد عليها الدكتور قائلا:

- لقد نزلت لتحضر شيكولاتة من عند ام انطون..

فعادت منى الى عملها وهي تتمتم:

- انها تموت في الشيكولاتة.

ثم تركت العمل واتجهت ناحية النافذة المطلة على ام انطون واخذت تجيل بنظرها باحثة عن سعاد وتجمد بصرها فجاة.. وتولتها الدهشة واخذت تتمتم:

ماذا .. فؤاد ؟!!..

واخفت وجهها بين يديها بشدة وادارت رأسها عن النافذة. ولكنها ما لبثت ان عادت تحملق من جديد بينما كاد فؤاد ان يجتاز بقالة ام انطون.. ودارت في رأس منى دوامات من الذكرى ولم تدر ما ذلك الشيء البارد الذي انسكب على رأسها فجعلها لا تشعر بعده.. ونسيت نفسها فغادرت المطبخ بسرعة ، واخترقت الصالون. ونزلت الدرج مثنى وثلاث الى ان وجدت نفسها في الشارع امام البقالة.. ورأت بعينها اين ذهب.. انه كان يسير في هذا الاتجاه.. وركضت خلفه ، بينما كانت عينان ام انطون من اسفل وعيون الجميع من اعلى تتابع حركاتها. واسرعت تبحث عن الرجل فشاهدته يسير في منعطف فلحقت به واخذت تصيح:

- فؤاد .. فؤاد ..

ولم يلتفت الرجل فارتفع صوتها ثانية:

- فؤاد .. انا منى..

والتفت الرجل.. كان قريبا منها ونظر اليها ثم ابتسم وادار ظهره وانصرف تاركا اياها في غمرة من الحيرة..

وعادت تجر ساقيها ببطء وهي تتحسس الخيبة الذي اعقبت حركاتها. واخذت تؤنب نفسها فتمتمت:

- يا لي من مجنونة.. ماذا فعلت.. الهذه الدرجة بلغ بي الجنون.. وان كان فؤاد فهل كان يجب ان افعل ما فعلت ؟. كلا.. والف كلا.. لو كان فؤاد لازداد الامر سوءا.. ماذا دهاك يا منى.. ماذا.. انسيت زوجك ؟. انسيت طفلك الذي تنتظرينه ؟. انسيت اخاك وعمك والذين ينتظرونك لتعدي لهم طعام العشاء؟ نسيت كل شيء لتلحقي بفؤاد.. بحبال فؤاد.. ليس هذا فؤاد..

ووجدت نفسها وجها لوجه امام اخيها الدكتور . ونظر اليها وقد راعته حركاتها واندفاعتها فمد يده اليها وتركها تسير الى جانبه دون ان يكلمها .. واقبلت ناحيتها ام انطون .. وهي تزمجر بصوتها الجهوري قائلة :

- خير ان شاء الله يا ست منى ..

فنظر اليها الدكتور راجيا اياها ان تسكت وهو يقول :

- خير .. لا شيء ..

وصعد السلم تاركا شقيقته تتكيء عليه .. كانت ضعيفة الى حد جعل قوتها تكاد ان تخور. وقد لاحظ الدكتور العرق المتصبب من جسمها بغزارة ، فتناول منديله من جيبه ومسح وجهها ودخل بها الى غرفتها وتركها تستلقي على السرير ثم نادى على ابنته سعاد وطلب منها ان تبقى الى جانبها . واتجه الى ابي سامي ويوسف وقال لهما .. دعوها الآن انها متعبة ..

كان ابي عثمان لا يزال جالسا في الصالون يرتدي ثياب الصيادين فوقف عندما شاهد الدكتور وساله :

- خيرا ان شاء الله ..

- لا شيء .. لقد سقطت الملعقة من يدها وهي تنظر من النافذة فاختطفها احد الاولاد وحاولت اللحاق به ولكنه اختفى ..

فنظر يوسف الى والده بينما قال ابو عثمان ..

- كان عليها الا تنزل وترهق نفسها ..

فتمتم يوسف :

- حصل خيرا .. والآن هيا بنا لنعد العشاء بانفسنا ما دامت هي قد تركتنا ..

فصاح والده ضاحكا :

- اذا غابت الزوجة .. حضر الزوج .. انت الذي ستقوم مقامها .. اما نحن فجميعنا ضيوفك .. هل تريدنا ان نقشر لك البصل يا بطل ..

قال الدكتور :

- ولم لا .. انني ذاهب لمساعدته .. استمر في حديثك الذي لا ينتهي وسيستمع لك ابو عثمان .. كان الله في عونه .

امتلأت عينا منى بالدموع ، حتى ان الصور التي كانت تتملكها اخذت تبدو واضحة تتراقص امام عينها .. لقد كان شعورها بالخطأ الذي ارتكبته يعذبها أيما عذاب . ولم تستطع ان تجد سببا تبرر به نزولها تلك النزلة .. ماذا لو قالت لهم السبب الحقيقي .. ماذا لو شرحت لهم علاقتها بفؤاد .. وبينت كيف كانت علاقتها بسامي قل ان يموت .. ماذا لو مزقت كل الصحف السوداء التي كتبت في حياتها بخط الكذب .. يظل الانسان صادقا حتى يكذب مرة واحدة .. وبعدها يصبح كذابو .. فهو ليظهر للناس انه صادق عليه ان يعيد الكذب ويعيد حتى لا تنكشف كذبته الاولى وهكذا يتحول الى كذاب .

واخذت سعاد تمسح رأس عمتها وتترك لاصابعها العنان لتلهو في ذلك الشعر الطويل .. ورفعت منى وجهها من على الوسادة واخذت تحدق في وجه سعاد الذي كانت الدموع بادية على صفحته وان حاولت الصغيرة ان تبتسم لتبعث السرور في قلب عمتها .. القت منى يديها حول سعاد واخذت تشدها الى

خصرها وهي تتمتم باكية :

- سعاد .. حبيبتي .. لا تتركيني .. ابقي الى جانبي ..

وردت سعاد بصوت مكتوم فقد انهمرت دموعها هي الاخرى رغما عنها :

- عمتي .. لا تبكي .. انك تبكيني معك .. اريد ان اضحك .. الم تسمعي قول جدي .. انه ينصحنا بان نضحك دائما .. هيا اضحكي .. ارجوك ..

وتمنت منى لو ان باستطاعتها الضحك .. تمنت لو ان الله خلق لها قلبا طيبا كقلب عمها .. لقد ضحك وهو يشيع جثمان سامي وضحك يوم ان اخبره سامي ان الانجليز حطموا متجره .. انه لابد سيضحك عندما يقترب منه ملك الموت .. ولماذا لا يضحك .. حقا .. مادام الضحك لا يكلف اكثر مما سيكلفه البكاء ..

وتركت منى يديها تسترخيان حول سعاد التي رفعت جسمها واخذت تمسح دموع عينيها. فلما انتهت مدت عينيها الى عمتها راجية اياها ان تنهض. وتململت منى في السرير ورفعت جسمها وجلست على حافته ، واخذت تنظر الى سعاد .. كانت عيناها تركزان على وجه الصغيرة ، بينما كان عقلها يبحث عن حل تنقذ به نفسها .. انها لابد ان تعيد لعبتها .. لعبة الكذب .. انها لن تكذب هذه المرة على يوسف .. انها ستكذب على اخيها .. وهذه هي اول مرة تكذب فيها على اخيها .. ولكنها مضطرة ومع ذلك فهي لا تدري ماذا ستقول .. بماذا تفسر سلوكها ..

واقتربت منها سعاد ومدت يديها واحاطت بهما رأس عمتها وانتفض رأس منى واخذت تنظر الى وجه سعاد الذي راعته انتفاضتها ثم امسكت بيديها الصغيرتين واخذت تقبلهما وهي تبكي وتتمتم :

- انني .. انني لاشيء سواك .. انت التي احبها وانسى كل شيء من اجلها .. لقد خفت عليك كثيرا ..

ونظرت سعاد الى عمتها مستغربة وقالت :

- خفت علي .. لماذا؟.

ووقفت منى دون ان ترد على سؤال سعاد وامسكت بيديها واتجهت الى باب الغرفة وفتحته واتجهت الى صالة الاكل حيث كان الاربعة يتناولون الطعام .. وكفوا عن الاكل عندما رأوها ، ووقف يوسف واتجه الى ناحيتها وامسك يدها واجلسها على الكرسي الذي كان تجلس عليه ونظرت الى اخيها .. حز في نفسها انها ستكذب عليه ولكن ما بيدها حيلة .. كان عليها ان تتقن تمثيل دورها حتى تقنع الجميع بصحة اقوالها .. فتركت الدموع تنساب من عينيها ثم تكلمت بحشرجة الباكي :

- لا تدعوا سعاد تنزل وحيدة .. كدت ان افقدها منذ لحظات بسبب ذلك ..

فنظر اليها الجميع مستفهمين .. بينما دفعت سعاد رأسها حتى جعلت عينيها تتقارب من عيني عمتها واستطردت منى تقول :

- بعد ان ناديت عليها واخبرني حسين انها نزلت لتشتري شيكولاتة نظرت من النافذة وناديت عليها فل ترد . وبلغ اسماعي صياح .. كان صياحها ورأيتها وقد امسك بيدها رجل يجرها بقسوة وغلظة .. نسيت نفسي ساعتها .. نسيت كل شيء .. نزلت الدرج وانا لا ادري ماذا افعل ولما لحقت بالرجل وجدت ان الفتاة لم تكن سعاد ..

وساعتها احسست بالتعب .. الشديد .. احسست بان روحي تريد ان تفارقني ولكن الحمد لله..

ونظر ابو سامي اليها .. الى وجهها المبتل بالدموع ثم التقت نظراته بنظرات الدكتور فطأطأ الاخير بصره ..

فقال ابو سامي :

- هذا سبب معقول يدفعها الى النزول .. ولكن كيف حال ملعقتك يا دكتور ؟..

فنظر الدكتور الى الملعقة التي كانت في يده .. واخذ يتفحصها ببصره بينما ارتفع صياح ابي سامي بالضحك ، واخذ الكرسي يهتز من تحته ، وفطن الدكتور الى سبب ضحكه فشاركه الضحك بدوره بينما كان ابو عثمان ومنى وسعاد ويوسف لا يدركان السبب الذي يدفعهما الى الضحك .

وسقطت من يد الدكتور ملعقته وهو في غمرة الضحك فاتجهت سعاد لتستعيدها فصاح بها ابي سامي ..

- سعاد .. لا تحضريها انت .. دعي عمتك تنزل لتحضرها قبل ان يختطفها احد الاولاد ..

وعاد ابو سامي يملأ الصالة بصوته الضاحك وازداد الضحك حدة حيث ان ابا عثمان ويوسف فطنا الى السبب واضطرت منى ان تشاركهم الضحك وكذلك فعلت سعاد .

عادت صورة فؤاد تطارد منى بعد غيبة طويلة . فقد كان للخطأ الذي ارتكبته اثره الفظيع في سلوكها ورغم اعترافها بحبها الشديد ليوسف ولهذا الجنين الذي سيولد لها قريبا . فهي لا تدري لماذا تصرفت ذلك التصرف الخاطئ .. اهي تخادع نفسها اذ تعترف بحبها ليوسف .. هل حبها له مجرد ارضاء لطبيعتها وتسليم للامر الواقع .. لقد ظهر فؤاد لحظة فكاد ان يحطم حياتها .. ظهر خياله .. طيفه .. فكيف بالله ان كان هو ؟. ماذا كانت ستفعل ؟. لو ان الرجل الذي استدار وابتسم كان فؤاد حقا .. هل كانت ستلقي بنفسها بين احضانه .. ولم لا وان لم تفعل .. الم يكن من الواجب ان تسلم عليه وفي الاثناء سوف يصل شقيقها الذي كان قد تبعها .. وماذا سيحصل بعد ذلك .. هل ستنجيها كذبتها .. هل ستقول انها فرت لتنقذ سعاد من ايدي الجلاد فاذا بها تشاهد فؤاد .. انها تدرك وتعترف انها اخطأت ولكن الذي لا تدركه والذي لا تستطيع ان تعترف به هو حبها لفؤاد .. هل هي تحبه .. بل هل احبته فيما مضى .. ولماذا ؟ مع ان علاقتها به لم تكن وطيدة .. وان كانت احبته فيما مضى فهل من حقها ان تحبه الآن وهي على وشك ان تصبح اما .. انه يعرف سرا فظيعا يهدد حياتها .. هل الخوف من اكتشاف امرها هو الذي دفعها الى هذا التصرف ام هو الحب .. سواء اكانت تحبه ام لا تحبه فانها تخشاه .. تخافه .. فهو وحده الذي يملك نسخه من كتاب حياتها السوداء التي بنيت على اساس من الكذب والتفاهة .. واخذت تعض شاهد يسراها بغيظ حتى كادت ان تدميه .. كان الالم يريحها من العذاب النفسي وحاولت جاهدة ان تخون خيالها . فصورة فؤاد وهي تستلقي قرب قدميه ترجوه . ثم وهي في غرفتها تلك الليلة وقد كادت ان تعود اليه في غرفته لتحرقه وتحترق معه .. واغمضت عينيها بكفيها واخذت تهز رأسها ولكن الصور كانت تنطبع داخل قلبها ..

انزلت كفيها من على وجهها وتركتهما يستلقيان فوق صدرها يضغطان بشدة ، ولكنهما نزلتا الى اسفل واستقرتا فوق بطنها المنتفخ واخذتا تتحسسان بحنان ذلك اللحم الاملس وطارت الصور من مخيلتها .. لم تعد تفكر في شيء .. غير هذا الصغير الذي ستحمله غدا بيديها .. ستترك له ثدييها عن طيب خاطر .. وستحمله وترفعه في الهواء فتتركه ثم تعود فتلقفه . وتنتشي لصراخه وضحكه انه الامل الجميل الذي سيجعل من صفحات كتاب حياتها السوداء صفحات ناصعة البياض تكتب فيها بدماء قلب الام ..

(39)

لم يكن يفصل بين بيارة ابي عثمان وبين البيارة اليهودية المجاورة سوى سياج صنع من الاسلاك المتوازية المثبتة على حوامل رأسية. وكثيرا ما كان ابو عثمان يتبادل اطراف الحديث مع العمال اليهود الذين يقومون بسقي اشجار البرتقال..

وفي اصيل ذلك اليوم وكان الجهد قد اخذ منه مأخذه بعد ان قام بسقي عدد كبير من الشجر جلس ينتظر ان تمتلئ احدى الجور المحيطة بساق شجرة بالماء.. واخذت عيناه تحلقان في الماء المرتفع رويدا رويدا يحمل على صفحتة اوراق الشجر الناشفة تتخللها الفقاعات التي لا تلبث ان تنفجر.. وسرح فكره واخذ ينظر الى اعلى الشجرة وفي نيته ان يعد الازهار التي ستتحول الى ثمار في الشتاء المقبل..

وانتفض ابو عثمان وهو يستمع الى صوت ابنه عثمان:

- ابت.. هل انت نائم.. انظر الى الماء حولك.. لقد طفح الماء..

وفرك ابو عثمان عينيه اللتين لم تكونا مغلقتان..

- ياه.. لقد نسيت نفسي.. وسرحت بافكاري..

وتناول عثمان الفأس من يد والده.. واتجه بسرعة يحول اتجاه الماء الى شجرة اخرى.. ثم التفت الى والده وهو يقول له:

- فيما كنت تفكر يا ابي ؟..

فلم يعر ابو عثمان سؤال ابنه اية اهمية ، وكانما عاوده الشرود. ثم التفت الى ابنه يقول له:

- عثمان اذهب واقفل الموتور فهذه آخر شجرة.

ويعود عثمان بعد قليل وقد قرر ان يعيد سؤاله على ابيه:

- ابي.. فيما كنت تفكر ؟..

- لا شيء يا بني.. لقد اعجبني منظر زهر البرتقال واستنشاق رائحته العبقة فاخذت احدق فيه..

- لقد خيل الي اول ما رأيتك انك نائم.. ولكني وجدت ان عينيك منفرجة وانظارك متجهة نحو ازهار الشجرة.. اتدري ما خطر ببالي..

- ماذا ؟.

- لقد خيل الي انك لابد ان تقوم بعد حبات البرتقال التي ستقدمها لك هذه الشجرة مقابل تعبك عليها ورعايتك لها..

- لقد خطر لي ان اعدها.. ولكني وجدت ان الخير الذي تقدمه لنا هذه الشجرة.. وهذه الارض لا يمكن ان يحصى.. فنحن بدونها لا نساوي شيئا.. ومهما قدمنا لها من تعب وعرق فان جزاءها لنا اضعاف اضعاف ما نقدمه.. انها تنبع بالخير يا بني..

- انك يا ابي تلمح لي بشيء .. هل عدلت عن رأيك ..

- دعني اكمل يا بني .. انني بين نارين .. ولكن نارك يا بني آمن لي من نار ضميري التي تؤرقني .

- ابني .. لقد شرحت لك الموضوع مرارا وتكرارا ولم نجد سوى حل واحد هو ان نبيع البيارة .. اني اقدر مدى حبك لها وتعلقك بكل شبر فيها ولكن مستقبلي ومستقبل العائلة منوط بكلمة منك .. لقد ذقت الكثير من الآلام وصرفت من عرق جبينك الكثير حتى جعلتني احصل على شهادة (التركونيشن) ولئن توقفت انا من تحصيل العلم فكأنك ما تعبت وما شقيت .. ستعينني الحكومة مدرسا في احدى القرى .. هل هذا ما رسمته لي من مستقبل . كنت اسمعك دائما تريدني ان اكون طبيبا .. ولقد كنت بالامس عند وعدك في ان تعمل المستحيل .. فما بالي ارك تعدل عن رأيك ؟..

- بني .. الا ترى انك تتعجل الامور..

- لا اظن يا ابي .. فان خالد كما تعلم سافر الى مصر ليلتحق بكلية الهندسة .. ولقد ارسل لي اليوم رسالة يطلب مني القدوم الى هناك لاقوم بتقديم اوراقي .. ولو تاخرت عن الذهاب لضاع الامل الذي عشت من اجله ..

- بني .. لا تضطرني لان احتقر نفسي وان اخفض جبيني بين اهالي قريتي .. انهم لن يحترموني حتى لو بعت ارضي في سبيل تعليمك وجعلك طبيبا تخدمهم .. ومن تظنه سيشتري بيارتنا .. من تظن غير اليهود اعدائنا .. نبيعهم البيارة .. ليقتربوا ويقترب غدرهم وخطرهم على قريتنا .. عثمان .. الا تحب (سلمة) يا عثمان .. الا تريد ان تقف ببيارتنا حائلا بين اليهود وبين الاقتاب من سلمة .. اظن انك لن ترضى ان تكون سببا في امر يعود على بلدتك بالخطر ..

- يا ابي .. اليهود .. انا لن ارضى ان تبيع ارضنا لليهود . وكم مرة قلت لك هذا .. واذا وضعت كف تعليمي في جهة وعدم بيع بيارتنا لليهود في جهة فاني عازف عن التعليم . ليذهب الطب الى الجحيم . اما ارضنا فانها لن تعود لنا يوما اذا بيعت لليهود .. ان ما اقصده يا ابي ان نبيع ارضنا لاحد العرب .. ان العرب جميعا يمتنعون عن بيع اراضيهم مهما كانت وسائل الاغراء شديدة .. وذلك بدافع الوطنية الصادقة والايمان بمستقبل الوطن .. فهل يعقل ان لا نجد من يساعدنا ويشتري هذه البيارة لهذا الدافع .. ولن اتوانى من شراء هذه البيارة ثانية يا ابي بعد ان اعود واعمل ..

- ساكلم الليلة عمك ابو خالد عله يجد حلا لهذه المشكلة هيا بنا ..

وفوجئ الاثنان بصوت مختنق يندفع من خلف شجرة الخروب الكبيرة التي تقع قرب سياج البيارة ..

- الى اين ايها المغفلان .. انتظرا ..

واتجها ناحية الصوت فاذا بهما يفاجئان باحد العمال اليهود فقال له ابو عثمان :

- هذا انت يا شلومو .. ماذا تريد ؟..

- ماذا كنتما تقولان ؟.

- وما دخلك انت بهذا ؟.

- اما كنتما تتكلمان عنا نحن اليهود .. انا يهودي . الا تعلم ..

- اعلم ذلك .. واعلم انه ليس من حقك ان تطأ بيارتي ايضا .. هيا اغرب عن وجهي واياك ان تعبر السياج ثانية والا قصفت رقبتك ..

- هه .. هه .. هه .. ها .. يا لك من بطل .. تقصف رقبتي .. تقدم .. تقدم ..

قال كلمته الاخيرة وهو يخرج من جيبه يده وقد اتجهت بقوة مسدس صغير نحو صدر ابي عثمان واستطرد اليهودي يقول:

- هل جبنت يا بطل .. تعال اقصف رقبتي .. انني اعلن لك انني لن اتزحزح من هنا .. فهل انت قادر على عمل شيء . انك امرأة الا تعلم هذا ..

وانقض ابو عثمان ناسيا انه يلقي بنفسه الى الموت وهو يستمع الى صوت الرصاص مكتوما يخترق صدره .. وجمد الدم في عروق عثمان وهو يشاهد هذا المنظر البشع .. وانقض على اليهودي غير مبال بالموت .. فعالجه اليهودي بلكمة اسقطته على الارض . ولكن اليهودي زلت قدمه ففقد توازنه ووقع في الحفرة الملأى بالماء .. وانقض عليه عثمان من جديد .. فحاول هذا استعمال مسدسه ولكن المسدس لم ينطلق . فتشجع عثمان واصفر وجه اليهودي وهو يشاهد الموت بين اصابع عثمان الذي يصغره عمرا وجثة . فاخذ يرشق الماء على وجه عثمان الذي اندفع غير هياب . دخل الماء في عيني عثمان فانكب على وجهه في الحفرة وهو يتحسس جسم اليهودي . وفتح عينيه فوجد غريمه يتجه بسرعة نحو السياج ثم يتسلق شجرة الخروب الكبيرة ويتسلق احد فروعها .. فاصبح داخل بيارة اليهود ، واطلق ساقيه للريح .. واندفع عثمان خلفه ولكن حشرجة والده شدته الى الوراء . فاستلقى بجوار والده واخذ يهزه برفق والدموع جامدة في عينيه ..

- ابي .. ابي ..

- .....

- ابي .. لا يا ابي .. لن تموت ..

- .....

- آه .. المجرم ....

- .. عث ..... عث

- ابي .. انت بخير يا ابي

- عثمان .. عثمان ..

- نعم يا ابي .. انا الى جوارك ..

- اني اموت .. اني اموت ..

- بعد الشر يا ابي .. لا تفعل هذا .. انها اصابة طفيفة ..

- اني احس بانفاسي .. آه .. آه

- ابي .. ابي ..

- عثمان .. دكتور.. دكتور

- ابي ساحضر لك الطبيب حالا .. يا ابي

- لا .. عثمان .. لا

- انك بحاجة يا ابي ..

- هل ستصبح طبيبا .. يا .. عث .. ما .. ن

- طبيبا ..

واستدارت عينا عثمان وقد عادت صورة الجريمة ترقص امام عينيه كيف قتل ابوه وهو الى جواره عاجز عن دفع الموت عنه . وتخيل نفسه طبيبا يشفي المرضى ولكنه عاجز ان ينقذ اعز انسان لديه في الوجود .. والده .. ما هو الطب .. ولماذا يصبح الانسان طبيبا .. ودارت برأسه افكار فاذا به يهتف :

- ابي .. ابي

- عثمان

- ابي .. لن اصبح طبيبا ..

- عثمان..

- ابي لقد قررت ان اتعلم شيئا أهم من مهنة الطب .. اريد ان اتعلم كيف .. وسكت عثمان .. فاستحثه والده بحشرجة :

- كيف .. كيف ماذا ؟..

- ساتعلم كيف انتقم .. كيف اثأر لك وللشهداء .. ابي ساتعلم كيف استعمل الاسلحة .. وكيف اصنع الالغام وكيف وكيف حتى استطيع قتل هؤلاء الخونة .. لن تموت يا ابي „ لن تموت .. وسترى بعينك الجزاء الذي اعده لهؤلاء الاوغاد .. لقد كنت مغفلا اذ قررت ان اترك بلادي لاتعلم .. ولماذا العلم وبلادنا في حاجة الى القوة .. الى السلاح الى الجنود المؤمنة .. انني لن اترك هذا الدم يذهب هدرا .. سانتقم .. سانتقم ..

ونظر عثمان الى وجه والده فرأى الابتسامة مرتسمة على وجهه وكأنه مات وهو يستمع الى نكتة طريفة .. فاخذ يهزه بقوة ..

- ابي .. ابي ..

لقد مات ابي .. لقد مات فوق الارض التي ما فرط يوما فيها . الارض التي شربت كده وعرقه وهاهي تغطي وجهها بدمه الطاهر الزكي .

(40)

كان لمقتل ابي عثمان اثره الكبير في اثارة ليس اهل القرية فحسب، بل وجميع سكان القرى المجاورة .. ولقد اجتمعت الجبهات والجمعيات الوطنية في يافا وفي جميع انحاء فلسطين. وعقد في يافا اجتماع كبير اخذ الخطباء يظهرون الاسف والاستياء للحادث. واستمع عثمان الى كلامهم على مضض. فهو لم يستمع بعد الى كلمة تروي غليله. وتأكدت في نفسه ضرورة الاقدام على ما ازمع عليه .. واخيرا ارتقى منصة الخطابة احد الشباب وهتف يقول:

- اخواني .. انني لست خطيبا لاقف هذا الموقف، ولكني احب ان اقول لكم اننا اذا تساهلنا في هذا الامر وانتظرنا لتنال لنا الحكومة حقنا فسنكون اغبى خلق الله .. ان العدالة والحق ودم الشهيد تطالبنا بقتل ضابط بريطاني. فالانجليز هم الاعداء الحقيقيون وهم الذين مكنوا اعدائنا الصغار من رقابنا ..

اهتز قلب عثمان طربا وهو يستمع الى هذا الشاب واخذ يتابعه بنظراته حتى انتهى من خطبته فاتجه اليه وقال:

- سيدي .. انني ابن الشهيد الذي تجتمعون من اجله .. واقول لك الحق ان ما قالوه جميعا لا يساوي كلمة قلتها .. يجب ان ننتقم للشهيد .. هل لي ان انال شرف التعرف الى حضرتك ..

- يسعدني ان يكون لي صديقا ليس همه فقط الانتقام لاستشهاد والده .. ولكني المح في عينيه ايمانا بقضية الوطن وبالانتقام لدماء ركب الشهداء الخالد .. انني علي جبر من يافا ..

- لقد قررت ان اقوم بالعمل الذي اشرت اليه في كلمتك واظنك ستشد ازري ..

فالتفت حوله ثم وضع يده على كتف عثمان .. ثم جره الى ناحية هادئة وناوله ورقة صغيرة وهو يقول:

- هل لك ان تتصل بي على هذا العنوان .. الساعة السادسة مساء اليوم ..

- بكل سرور .. انني طوع امرك ..

وعند المساء كان عثمان يتجه ناحية المنشية، وقف عندما رأى احد الشوارع .. ثم اتجه يمينا وسار حتى وجد نفسه امام شجرة كبيرة، فنظر حوله ثم دخل بسرعة وطرق الباب

- من هناك ..

- عثمان ..

وفتح الباب شاب فقال:

- انني يحيى .. شقيق علي .. وهو آت بعد قليل .. تفضل ..

فشكره عثمان وهو يدخل ..

وتابع حديثه قائلا:

- لقد افزعنا الخبر واننا نشاركك الحزن على فقيدك الغالي ..

- لقد علمني موته اشياء كثيرة يا يحيى ..

- ان استشهاد والدك بهذه الصورة الوحشية التي تنبع من الجبن اثارت في نفوسنا الحمية والاستماتة في العمل على تخليص وطننا من شرور اعدائه ..

وفتح الباب ودخل علي وهو يتمتم بنشيد :

- نحن جند الله شبان البلاد

نكره الذل ونأبى الاضطهاد

فارفعوا الاعلام .. وامشوا الجهاد

اهلا عثمان ..

- اهلا بك سيد علي ..

- دعك من سيد هذه .. ولنتكلم كاصدقاء ..

- كما تشاء يا .. يا علي

- هل لديك دراية باستعمال الاسلحة ؟..

- لا ..

فهز علي رأسه وهو يقول :

- نحن نريد ان ننتقم ولكن لا نريد ان نخسر شيئا .. ليس استطاعتي ان ادفعك لقتل احد لتموت انت معه .. المهم ان تنجو انت ..

- انجو ام لا انجو .. سيان عندي .. المهم انني سأنتقم ..

- ان البلاد في حاجة الى الكثيرين .. لا تكن متسرعا ..

- ماذا ترى اذن ؟..

- يجب ان تتمرن فترة على استعمال مختلف انواع الاسلحة ..

- وكيف يتسنى لي ذلك ؟..

- ولماذا تظنني طلبت احضارك الى هنا .. تعال معي ..

واخذ علي ينتقل من ممر الى اخر وعثمان يتبعه حتى وصلا الى جدار سميك اخذ علي يتحسس جدرانه وفوجئ عثمان بالجدار يتحرك ويطل من وراءه رأس اشعث ووجه احمر اللون .. ماذا يرى .. اهو سجن ام .. ماذا ..

ودخل الاثنان وعاد الجدار الى ما كان عليه .. ثم تكلم علي مع الرجل ذو الوجه الاحمر بلغة لم يفهمها عثمان واخيرا قال بالعربية :

- عثمان .. من سلمة .. واستطرد :

- المهندس .. مايكل بيرد من المانيا ..

وهز الاثنان ايديهما المترابطتين وهما يتبادلان التحية .. واستطرد علي يقول :

- عثمان هو ابن الرجل الذي قتله اليهودي ..

فنظر الالماني الى عثمان وهز رأسه وهو يقول :

- هاه .. كويس .. شد حيلك ..

وترك عثمان الحرية لعينيه كي تعبث في هذا المكان الشاسع .. لم يستطع ان يجد اسما يطلقه عليه اهو غرفة كبيرة .. لا .. فليس فيه أي شباك او منفذ .. اهو .. ماذا .. انه مجرد مكان .. لا يعلو سقفه عن ارضه اكثر من مترين ..

وحدق عثمان على الطاولة الواسعة القابعة في منتصف هذا المكان ثم اخذ يتفحص بعينيه الاشياء الكثيرة التي استلقت عليها دون يفهم شيئا .. ولاحظ علي ان عثمان تائه في هذا المكان فبادر يقول له :

- هذه غرفة عمليات ..

- عمليات .. اية عمليات ؟..

- من هنا ستخرج الثورة .. ومن هنا ستنطلق اول رصاصة ثائرة ..

- ولكني لا افهم شيئا عن هذه الاشياء القابعة امامي .. هلا شرحت لي ..

- المهندس مايكل سيشرح لك كل شيء .. انت هنا لتخرج وقد امتلأ رأسك بالمعلومات التي نتمنى ان يحملها كل شاب في فلسطين .. تفضل يا حضرة المهندس .. ارجوك ان تعلمه كيف يستعمل المسدس .. والقنبلة و.. و.. حاول ان تفهمه كل شيء فهو اكثر من ثائر ..

والتفت المهندس ناحية عثمان الذي اخذ ينظر اليه والى انفراجة شفتيه .. وابتسم مايكل وهو يقول:

- اقترب يا بني .. خذ ..

وناوله مسدسا صغيرا اخرجه من احد الادراج .. وقلب عثمان المسدس في يديه وتذكر المنظر الذي شاهده والمسدس في يد اليهودي شلومو .. ووالده ينقض عليه .. ودارت برأسه صور وصور .. رأى نفسه وهو يقتل ذلك المغادر شلومو .. واخذ يضغط على زناد المسدس وتنطلق في اذن مخيلته اصوات الرصاصات. وترتسم في عينه صورة الدم ويرتاح خيال ضميره ..

وينتفض من حلمه على صوت المهندس يقول له :

- فيم تفكر يا عثمان ؟..

- اشياء كثيرة يا حضرة المهندس .. اشياء كثيرة .. لقد تخيلت نفسي انتقم لابي .. وآخذ بثأره ..

- مهلا يا عثمان .. لا تستعجل الامور .. ليس امامك دم والدك لتنتقم منه فحسب .. ان دماء الضحايا التي سفكت منذ ان وضع الانجليز ارجلهم في هذه الارض كثيرة .. وان عليك ان تكون ثوريا تحقد بقدر وتفكر بقدر ..

فقاطعه عثمان وهو يقول :

- هذا شأني انا .. ولكن انت .. انت ما الذي يدفعك ان تعمل في سبيل دمائنا ..

- الحق يا بني .. الحق .. هل يترك الانسان الباطل يقضي على الحق فيطمسه وهو قادر ان يعكس الآية ..

هل تريدني ان ارى الانسانية مهددة كرامتها امام عيني فلا يتحرك ضميري .

- يا مايكل .. اغفر لي اني ناديتك هكذا .. انني لا ادري كيف اعبر لك عن شكري وتقديري ..

- عفوا .. ما دام الانسان يقوم بواجبه فهو لا يستحق الشكر .. والآن تعال اشرح لك كل شيء يتعلق بحرب العصابات .. تعال .. اجلس .. هنا ..

وجلس عثمان على كرسي في مواجهة المهندس، واخذ هذا يشرح له ويقلب السلاح تارة ثم يعيد تركيبه حتى اوشك الصباح ان يطل ..

(41)

اجتمع اهالي القرية في امسية ذلك اليوم في بيت الدكتور حسين شلبي، واخذوا يسالونه عما دار في المؤتمر وعما قرر المجتمعون عمله كرد فعل لما حدث لابي عثمان .. فاخذ الدكتور يندد بالمجتمعين بانهم لا هم لهم الا الكلام .

وقال له ابو خالد :

- وهل يعني ذلك ان تذهب دماء ابي عثمان هدرا ..

- من قال هذا .. ان دمائه دين في أعناقنا وضمائرنا لانها تحمل شرفنا .. لن نسكت .. لقد فعل اليهود ذلك يوما .. ابي .. وامي .. وجميع افراد عائلتي حتى الصغير .. الصغير الرضيع لم يعتقوه .. هل انتظرت حتى يجتمع الساسة ليرجعوا لي ابي واهلي .. لقد اخذت ثأري بيدي .. وكلكم تعلمون ذلك ..

وارتفع صوت ابي خالد ثانية :

- يا دكتور .. هل تسمح وتقول لنا ما الذي قررته المؤسسة الوطنية بهذا الصدد ..

- قالوا يا ابا خالد انهم سيرفعون شكوى الى المندوب السامي ..

- شكوى .. حبر على ورق .. بدل دم على ارض زكية .. شكوى .. يا لها من مهزلة .. ومن الذي قتل ابا عثمان غير الانجليز الذين سنشكوا اليهم ..

- هذه هي الحقيقة ايها الاخوان .. ان ابا خالد على حق فيما يقول .. ان الذي قتل ابي واهلي وقتل ابا عثمان .. والذي يعمل ليقتلنا جميعا هم الانجليز ..

واخذ الدكتور ينظر اليهم .. واحدا .. واحدا .. ثم استطرد :

- ولكن .. اين عثمان .. هل رآه احد ؟..

فاجابه ابو خالد :

- لقد ذهب الى يافا ..

- متى ذهب ؟..

- بعد أذان العصر ..

واخذ الدكتور يهز رأسه ثم قال :

- ايها لاخوة ان بلدنا محاطة بالاعداء من كل جانب ..

واخذ الدكتور يشير بيديه وهو يقول :

- تل ابيب .. رامات جان .. بتاح كفا .. كفر عزار .. نعتر .. كفر عفرحام .. الكفر يحيط بنا من كل جانب . ولذا علينا ان نعد العدة .. ماذا لو هجم علينا الاعداء ذات ليلة .. ليس لدينا أي سلاح نقاومهم فيه .. الايمان .. ان

الايمان وحده لا يكفي .. الرصاص لا يؤمن بشيء .. والحق لا يحميه غير القوة وكل ما ادعوكم اليه هو ان ان تسارعوا في تقديم طاقتكم من المال حتى نستطيع شراء الاسلحة الضرورية لحماية بلدنا واعراضنا ..

وصفق الحاضرون واخذوا يهتفون بحياة الدكتور .. وتقدم ابو خالد وهو يقول:

- ايها الاخوان انني افتح الباب .. هذه مائة جنيه ..

وهز الدكتور يد ابي خالد شاكرا .. ثم قال:

- لتعلموا ايها الاخوة ان الغذاء الضروري لكم منذ اليوم هو الرصاص وبدونه لن تستطيعوا ان تحصلوا على الحياة الكريمة ..

وتقدم ابي حسام وقال:

- وهذه مائة اخرى ..

وتقدم آخرون وآخرون وانفض الاجتماع وقد ترك الجميع ما يفوق عن الالف جنيه ..

مرت ساعات طويلة من الليل وام عثمان جامدة الحركة وقد حدقت عيناها نحو الباب .. ثم هتفت تصيح في ابنتها التي كانت غارقة في النوم ..

- حسنية .. حسنية .. ان عثمان لم يعد بعد ..

- فاجابتها البنت وهي تحاول ان تخفف من اللوعة التي تقاسيها امها :

- ليس الوقت متأخرا يا اماه ..

- انه لم يتعود على السهر يا حسنية .. اني احس ان شيئا جرى له ..

- لا تقولي هذا الكلام يا اماه ..

- لا سمح الله .. لا سمح الله .. اني لن اتحمل أي خبر سيئ عنه .. انه آخر ما تبقى لي في هذه الدنيا .. حسنية انني ذاهبة الى الدكتور حسين عله يرشدني الى مكانه ..

- تذهبين الآن الى الدكتور حسين .. ان بيته بعيدا .. ولابد ان عثمان سياتي بعد قليل .. فلننتظر ..

- لقد نفذ صبري .. اني ذاهبة ..

ووقفت ام عثمان ووقفت معها حسنية واخذت تنظر الى امها التي فتحت الباب وخرجت ثم عادت بعد لحظة وهي تقول:

- حسنية .. ابنتي .. اقفلي الباب على نفسك كوني حريصة ..

- لا تخشي يا اماه .. صاحبتك السلامة ..

لم يكن بالامر الجديد ان يطرق باب الدكتور طارق بعد منتصف الليل .. ولكنه فوجئ بام عثمان تخبره بان عثمان لم يعد بعد .. فاخذ يهدئ من روعها .. فقالت له:

- يا دكتور .. انني خائفة من مصيبة ثانية ..

- لا تخشي يا ام عثمان .. ان ابنك رجل يعرف اين يضع قدمه ..

- انه لا يزال صغيرا يا دكتور .

- لا .. لا يا ام عثمان .. ان ابنك قد اكتملت رجولته .. ولقد رأيته صباح اليوم في المؤتمر والرجولة تشع من وجهه، وان كان الحزن لا يزال قابضا بين عينيه .. انني اهنئك عليه .. كان دائما يقول لي انه سيتعلم مهنتي .. ولكن الظروف ..

- يا دكتور .. اني قلقة .. اين يمكن ان اجده ؟..

- تعالي نعي ..

ونزل الدكتور بثياب نومه .. وركبا السيارة واتجها ناحية بيتها فقالت له :

- الى اين .. انه ليس في البيت ..

- انا اعلم ذلك .. ولكنك في البيت .. نامي .. واطردي عنك هذه الهواجس .

- وهل تنام عين ام في مثل حالتي ؟..

- انني مقدر ظروفك .. ولكن حاولي ..

وتركها ووجد نفسه يقف بسيارته عند باب ابي خالد .. فطرق الباب .. فرد عليه ابو خالد بعد قليل :

- من هناك ؟..

- انا الدكتور حسين ..

- اهلا .. اهلا دكتور ..

- اسمع يا ابا خالد .. ان عثمان لم يعد بعد .. وامه شديدة القلق عليه ..

- لم يعد بعد .. اين تظنه ذهب ؟..

- لا ادري .. قد يكون .. لا .. لا اظن ومن اين له ان يحصل على سلاح ..

- هل خطر لك انه يحاول الانتقام .

- كذا خيل الي .. ولا اظنني مصيب ..

- اذن اين يكون هذا الفتى ؟..

- ليس هذا هو المهم .. اريد ان اهدئ من حالة امه .. فهلا ذهبت اليها واخبرتها ان حسين اخبرك انه مسافر الى القدس لاحضار شهادته .

- وهل هذه حجة كافية لاقناعها .. يا دكتور ..

- ماذا ترى .. ماذا تقول .. لقد قلبت الامور .. فلم اجد سوى هذه الطريقة فهو ليس له اقارب خارج سلمة يذهب اليهم ..

- كما ترى ..

واتجه ابو خالد واخذ يدق باب بيت ابي عثمان وفتحت الام الباب وهي تهتف :

- عثمان .. عثمان ..

وفوجئت بابي خالد

- ابا خالد .. اهلا وسهلا ..

- مساء الخير يا ام عثمان .. لقد نسيت .. لعن الله الشيطان .. لقد نسيت ان اخبرك ان عثمان مسافر الى القدس اليوم لاحضار شهاداته .. تصوري انني لم اتذكر ذلك الا الآن مع انه اخبرني بذلك العصر وهو في يافا .. لعنة الله على الشيطان .. جل من لا يسهو ..

- حقا .. تقول .. ولماذا ذهب الى القدس ؟..

- قال انه يريد احضار شهادته من الكلية العربية ..

- وهل هذا وقت شهادات يا عثمان .. هكذا تتركني اتلوع .

- لا يا ام عثمان .. اطمئني ..

- طمئن الله قلبك يا ابا خالد .. انك بشرتني وقد استطيع ان انام الآن .. ان قلب الام شقي..

وتركها ابا خالد متمنيا لها ليلة سعيدة .

(42)

عاد الدكتور حسين الى بيته فوجد ابنته سعاد في انتظاره واللهفة في عينيها تصيح ..

- ابي .. اين انت .. لقد اقلقني عدم وجودك .

- الم يخبرك مسعود باننى ذهبت مع ام عثمان الى بيتها .

- لقد اخبرني ولكني كنت قلقة .

- سعاد .. عيب .. اتقلقين علي انا ..

- الحقيقة يا ابي انك لا يقلق عليك. فانت تخيف الخوف .. لقد كنت اليوم شديد الحماس وانت تتكلم مع ضيوفنا ..

- لقد اعددنا العدة للدفاع عن قريتنا يا سعاد .. ان اليهود يستعدون منذ القديم .. شبابهم ونسائهم الفتيات امثالك يا سعاد يحملن المسدسات ويتدربن على استعمال جميع انواع الاسلحة .

- ولماذا نقف نحن مكتوفي الايدي ازاء هذا التحدي .. اليس من الجدير بنا ان نعد انفسنا ليوم لابد آت .

- يا سلام .. يا سلام .. ما هذا الكلام .. من اين اتيت به يا اجمل فتاة في العالم ..

- ابي .. انا لا اسمح لك ان تتغزل بي ..

- لماذا .. هل تطمعين في حبيب خيرا مني ؟..

فالقت سعاد نفسها في حضن والدها وهي ترمي خدها على فمه :

- وهل هناك في الوجود من هو خير من ابي ..

وقبلها والدها بحنان ثم اخذ يعبث بشعرها وقال وكأنما تذكر شيئا نسيه :

- اين مسعود ؟..

- انه نائم .

- اريده في امر مهم ..

فارتفع صوت سعاد تنادي :

- مسعود .. مسعود ..

واقبل مسعود يفرك عينيه ..

- سيدتي ..

ولاحظ وجود الدكتور فاردف :

- سيدي :

- اسمع يا مسعود .. اريدك ان تذهب من الصباح الباكر وتنتظر على اول الطريق فاذا لمحت عثمان فاياك ان تجعله يذهب الى بيتهم دون ان يمر علي .. هل فهمت ..

- اجل يا سيدي .. هل من خدمة اخرى ..

- لا يا مسعود .. اذهب ونم .. لا تنسى ضع المنبه قرب رأسك .. لانني سأنام حتى العاشرة ..

واخذ يصعد السلم المؤدي الى الطابق العلوي ويده تستلقي على كتف سعاد .. ورقصت في عينيه صور .. لقد صعد قبل سنين هذا السلم يوم انجبت له زوجته ولدها .. وكانت سعاد في الرابعة من عمرها .. وهاهي اليوم تقارب طوله بعد ان بلغت السابعة عشرة. وارتجفت اوصاله وهو يتذكر منظر زوجته وطفله الذي ذبحوه على حجرها واغمدوا في صدرها خناجرهم .. واحست سعاد كأن تيارا كهربائيا سرى في جسمها فهزها هزة عنيفة فصاحت :

- ابي .. ما بالك يا ابي ..

- لا شيء يا ابنتي .. انها ذكرى ..

- ماذا تذكرت يا ابي ..

- هيا بنا لننام .. مالنا وما فات .. نحن ابناء اليوم ..

- ابي .. انني خائفة هذه الليلة .. سأنام معك في غرفتك ..

- اهلا وسهلا ..

وابتسم الدكتور وهو يتصور ان ام عثمان قد لفها الظلام ونامت بعد ان كذب عليها. واخذت عيناه تحدقان في الظلام .. ثم اغمضها ليرى النوم ولكنه عاد ليفتحها .. ويتقلب على السرير .. وشعر بالارق في جميع اوصاله .. ووجد نفسه يقف في وسط الغرفة ..

واذا بصوت ابنته يشق الظلام :

- ابي .. ما بالك ؟..

- لا شيء .. سوى ان النوم لا يريد ان يقترب مني

- فلتأخذ لك حبة منومة .. انا ذاهبة لاحضارها لك ..

- يا لك من طبيبة ماهرة .. تصوري انني نسيت ان هناك حبوبا لمن داهمه الارق .. ولو ان احد الناس قال لي انه ارق لتذكرت حالا .. اما لنفسي فكما ترين .

- الطبيب يتعلم ليخدم الناس .. اما نفسه فهي آخر ما يخدم .

واحضرت له سعاد حبة منومة وكوب ماء ارتشفها الدكتور بعد ان ابتلع الحبة وقال لأبنته في حنان :

- تصبحين على خير .

اقبل في صباح ذلك اليوم مسعود والى جواره عثمان وهو مكفهر الوجه لما عاناه من سهر تلك الليلة .. واتجها الى غرفة الضيوف في بيت الدكتور .. وصعد مسعود السلم ليخبر الدكتور بانه قد احضر عثمان ..

نزل الدكتور والنعاس بادي على وجهه فاتجه الى المغسلة فازال اثر النعاس من عينيه ثم اتجه الى حيث كان عثمان وبادره قائلا :

- عثمان .. صباح الخير ..

- صباح الخير يا دكتور .. خيرا ان شاء الله ..

- خيرا .. كيف قضيت ليلتك ؟..

- ساهرا .. انني لم انم طوال الليل ..

- ماذا .. اين كنت ؟..

- الحقيقة اني لا ادري اهو من حقي ان اخبرك واطلعك على المكان الذي كنت فيه ام لا .. انا دائما كلي ثقة بانك اب للوطنيين كلهم فلا اجد بدا من اخبارك وانا جد مطمئن ..

وهز الدكتور رأسه وهو يبتسم :

- تكلم يا عثمان .. لا تخشى شيئا ..

- ساتكلم .. اظنك تذكر ذلك الشاب الذي تكلم البارحة في المؤتمر وطالب بقتل ضابط انجليزي ثأرا لابي ..

- اذكره .. اسمه علي على ما اذكر ..

- علي جبر .. من يافا .. لقد كنت عنده البارحة ..

- تكلم .. تكلم ..

- بعد ان انتهى من حديثه في المؤتمر سارعت الى التعرف به ووجدت فيه مثالا للشاب الثائر المؤمن .. دعاني الى بيته في المساء .. ذهبت .. اتدري ماذا وجدت هناك .. وجدت الثورة الكامنة .. وجدت اسلحة تكفي لمائة رجل .. وجدت متفجرات تكفي لتحطيم اكبر شارع في تل ابيب .. وفوق كل هذا .. هناك مصنع للالغام يقوم عليه مهندس الماني .. ولقد قضيت طوال الليل وانا اتدرب على جميع انواع الاسلحة وطرق تفجير الالغام .. بل وصناعتها ..

وفرح الدكتور للخبر وقال :

- عثمان .. يجب ان نكتم الخبر .. اياك ان تبوح لاحد من الناس ايا كان .. ان في ذلك خطر على من تمنحه سرك .. فالانجليز لا يرحمون .. اسمع .. لقد كانت والدتك قلقة جدا عليك البارحة فاضطررت ان اكذب عليها، على لسان ابي خالد الذي اخبرها انك اخبرته بانك ستسافر الى القدس لاحضار شهادات .. هلا ذهبت الى هناك وجعلت الامور تسير على ما يرام ..

- سافعل ما ترى ..

- لا تنسى ان تعود الي .. بعد الظهر .. اريدك في امر هام ..

وخرج عثمان بينما توجه الدكتور الى الطابق العلوي لينام .. وفي رأسه افكار كثيرة عن الالغام .. صناعتها .. تفجيرها ..

واخذ الدكتور حسين يعيد الكلمات التي انطلقت عن لسان عثمان .. اسلحة تكفي لمائة رجل .. متفجرات تكفي لتفجر اكبر شارع في تل ابيب .. مصنع الالغام .. يا الله يا عثمان .. لله درّك .. لقد انتقمت واخذت ثأر

والدك .. اسلحة تكفي لمائة رجل .. جميل .. جميل جدا ..

ولفظ اخر كلمة بصوت ضحوك عالي سمعته سعاد فرفعت رأسها عن الوسادة وهي تقول :

- صباح الخير يا ابي .. ما هو هذا الشيء الجميل جدا ..

- انت يا حبيبتي .. صباح النور ..

- انك تخفي عني شيئا .. هل قابلت عثمان ..

- اجل ..

- وهل قصدته بقولك جميل جدا ..

وابتسم بخبث قائلا :

- سعاد .. اياك .. اياك ان تكوني ..

- ابعد الافكار عن رأسك .. انا ليس لي سوى حبيب واحد .. اتدري من هو ..

- انا طبعا ..

- هل تصدق ان هناك شخص اخر افكر فيه غيرك ..

- لا .. طبعا

- وهل يعجبك ان افكر في غيرك .. ام انك تغار ..

- اذا كان من تفكرين به اهل لهذا فلا بأس، اما اذا كنت انا خير منه فدعي تفكيرك ينحصر بي ..

فضحكت وهي تقول :

- تقصد ان لا افكر في احد مطلقا .. فمن هو هذا الذي سيكون خيرا منك ..

- الدنيا مليئة .. وما عليك الا الانتظار حتى تكبرين ..

- ابي .. اسحب كلمتك الاخيرة .. انني لست صغيرة .. ثمانية عشرة عاما .. وتقول عني صغيرة ..

- عفوا ا كبيرة .. ولكن اياك والحب .. فنحن مقدمون على حرب ..

- اتذكر يا ابي ذاك الفيلم الذي شاهدناه اخيرا .. انه فكرني بشخص احترمه ..

- شخص تحترمينه .. ومن هو ؟..

- اظنك تذكره .. كنت طفلة ايام كان يتردد الى بيتنا .. كان ذلك قبل ان ..

واطرقت راسها وكأن دموعا كانت تحاول ان تنطلق من مقلتيها .. ورفعت رأسها وهي تحدق في وجه ابيها الذي فهم ما ترمي اليه .. فسارع يقول :

- سعاد .. لا بأس .. دعيك من الذكريات ..

ثم تصنع الفرح وهو يخفي جرحا في قلبه ..

- هيه .. اتمي .. من هو هذا الشخص ؟..

- كان اسمه فؤاد على ما اعتقد ..

- اه .. هل تقصدين ذلك الضابط الثائر الذي كان يقيم مع جنوده بين الاشجار ..

- اجل هو ..

- وما الذي يعجبك فيه ؟..

- انه يا ابي مثلك رجل شهم .. وكثيرا ما كان يحضر لي الهدايا والحلوى وانا صغيرة .. اتدري من اين كان يحضر لي اللعب ..

- من اين ؟..

- من اليهود .. انني اذكره وهو يحملني على ركبتيه ويده تعبث في شعري ولسانه يحدثني بأخر مغامرة قام بها ..

وتأوهت وهي تنظر الى والدها الذي قال :

- فؤاد .. اين هو الآن .. لم اسمع عنه شيئا منذ ان انتهت الثورة .. لابد انه اشترك في الحرب العالمية ..

- ماذا تقصد يا ابي ..

- لا شيء يا بنيتي .. انني احترمه كما تحترمينه .. كم كان يضحي في سبيل قضيتنا ..

- دعنا منه الآن وهيا بنا لتناول الفطور ؟؟

(43)

اقبل عثمان بعد ظهر ذلك اليوم وركب مع الدكتور في سيارته وانطلقا في الطريق الى يافا .. وفي الطريق قال الدكتور :

- عثمان .. اود الاعتماد عليك في امر مهم جدا ..

- اني في خدمتك يا دكتور ..

- هل تعلم ان اهل القرية قرروا شراء اسلحة للدفاع عن انفسهم وحماية اراضيهم ..

- هذا اقل ما يجب ان يفعلوه ..

- لقد اجتمعوا البارحة وتبرعوا بمبلغ الفي جنيه .. والمهم ان نحصل على الاسلحة ..

- وماذا تريدني ان افعل ..

- لقد اخبرتني الباحة ان صديقك علي جبر لديه من الاسلحة الكثير فلابد انه يستطيع ان يزودك ببعضها مقابل الثمن الذي سندفعه ..

- لا ادري اذا كان يرضى ان يبيع .. وكيف سأفاتحه بالامر ..

- نذهب اليه الآن وانا سأنتظرك في المقهى المجاور .. ثم تخبره بان اهالي القرية اجمعوا امرهم على شراء اسلحة وجمعوا الاموال فعلا ولكنهم لا يزالون يفتقدون الى الطريقة التي يمكن الحصول بها على الاسلحة .. ودار في خلدي انه لابد في استطاعتك تقديم المساعدة .. فجئت اليك دون ان اخبر احدا ..

- الا اخبره انك هنا في انتظاري

- لا .. اياك

- واذا وافق ..

- حدد موعدا للقائه غدا .. وتعال

- كما ترى ..

وجلس الدكتور في المقهى المجاور .. ينتظر .. كانت عيناه تفحصان الجالسين كانما تبحث عن مواطن القوة في هؤلاء الشباب والشيوخ العرب الذين على اكتافهم ستقوم الثورة وتوقف بصره على رجل قابع في احدى زوايا المقهى .. كان وحيدا يتسلى بصنع اشكال هندسية من احجار الدومينو فنهض من مكانه واتجه نحوه وهو يقول :

- من .. فؤاد ..

فالتفت اليه الرجل وقد علت وجهه امارات الدهشة والاضطراب ..

- من انت .. دكتور حسين .. اهلا .. اهلا ..

- اهلا بك .. اين انت واين اخبارك .. لا ادري لماذا ذهبت عن ذهني كل هذه المدة حتى جاء ذكرك اليوم ..

- جاء ذكري اليوم .. اين ؟- في البيت .. اتدري من الذي تذكرك وذكرني بك ..

- لابد وانه والدك الشيخ .. كيف هو الآن ..

واعتلى وجه الدكتور الدهشة ..

- والدي .. انت لم تسمع بما جرى ..

- ماذا .. اني اراك تغيرت كثيرا وانا اذكرك بوالدك هل حدث له شيء ..

- لقد ذهب والدي .. ذهب للقاء ربه ..

فسأله فؤاد بلهفة :

- والمزرعة .. هل حدث لها شيء .. هل استولى عليها اليهود ؟..

وهز الدكتور راسه وهو يبتسم :

- لابد انك كنت في عالم آخر .. لم يبق هناك مزرعة ..

- ماذا تقول ؟..

- لا شيء يخيف ..

- كيف لا يخيف .. ان المزرعة هي المكان الوحيد الذي يستطيع عشرة مسلحين فيه ان يقضوا مضاجع اليهود .. كيف ولماذا اضطررت الى بيعها ؟..

- الضريبة ..

- ما كنت اصدق ان حسين الذي عرفته يفعل مثل هذا .. تبيع المزرعة .. ياللخسارة ..ان سلمة ستضيع بعد اول طلقة ..

- فؤاد .. لا تخشى شيئا .. ان في المزرعة رجالا يأكلون الصخر ويشربون الدماء .. همهم ان يرفعوا شأن الوطن .. اما سمعت بالخبر .. لقد قتل اليهود رجلا من قريتنا منذ ايام ..

- سمعت الخبر .. ولم يزعجني كما ازعجني قولك بانك بعت المزرعة ..

- ولمن تظنني بعتها .. قلت لك لم تعد هناك مزرعة .. لقد بعتها للعرب وتحولت الى مباني وبيوت .. لقد تضاعف بها عدد سكان سلمة ..

- دكتور .. ماذا تقول .. هل تحولت الى قرية جديدة ؟..

- اجل والتقت مع قرية سلمة وكونا قرية كبيرة ..

- الحمد لله .. لقد طمئنتني .. لنعود الى حديثنا من الذي ذكرك بي اليوم ؟..

- الانسانة الوحيدة التي بقيت لي في هذه الدنيا ..

- دكتور .. يظهر انك تحملت الكثير .. وانا لا ادي ..

- لا بأس يا فؤاد ..

- هل لي ان اسألك بالضبط ما الذي جرى ..

واحمرت عينا فؤاد وهو يستمع الى القصة التي رواها له الدكتور والتي انتهت بذبح جميع اهله حتى الطفل الصغير .. ولم تنج معه غير سعاد .. وشد فؤاد على يد الدكتور مواسيا احزان الذكرى .. ثم قال :

- اذن .. لابد ان سعاد هي التي ذكرتك بي ..

- اجل هي ..

- ماذا كانت تقول عني ؟..

- لقد تذكرت الالعاب والحلوى التي كنت تحضرها لها من عند اليهود .. وقالت انك رجلا بطلا مثلي ..

وضحك فؤاد وهو يلقي بيده على ظهر الدكتور .. وقال :

- ليست البطولة تنحصر في الهجوم والمغامرات وقتل الاعداء .. ان ما قمت به من تضحيات لهي بطولة خارقة ..

وتذكر الدكتور كيف كان شعوره ساعة وجد نفسه امام جثث اهله .. وتذكر كيف انتقم لهم .. وقاطعه فؤاد وهو يقول :

- لقد كبرت سعاد .. واصبحت عروسة .. اليس كذلك ؟..

فاجابه الدكتور :

- لقد كبرت .. هذا صحيح ..

ثم التفت الدكتور باهتمام الى محدثه واستطرد :

- اننا في حاجة الى اسلحة .. ان البلدة يجب ان تتسلح فالخطر يحيط بنا من كل جانب ..

- معك حق ..

- لقد جمعنا البارحة الفي جنيه لنشتري بها اسلحة ..

- ساحضر لك ما تشاء من الاسلحة .. ومن الآن انس ان اسمي فؤاد .. ادعوني مصطفى .. مصطفى الحلبي ..

- ولماذا .. صحيح انك لم تخبرني اين كنت طوال هذه المدة ..

- انها قصة طويلة .. سأرويها لك يوما ..

- الآن ..

وفي تلك اللحظة شاهد الدكتور عثمان وهو يبحث عنه .. فناداه .. وقدمه لفؤاد ..

- الاستاذ عثمان .. ثم استطرد :

- الاستاذ .. فؤ .. مصطفى .. مصطفى الحلبي ..

وقال فؤاد للدكتور :

- ساخبرك بالقصة في اللقاء القادم ..

وشعر فؤاد ان عثمان امتعض لكلامه فاستطرد :

- لا باس ان يكون الاستاذ عثمان معك .. هذا هو العنوان ..

وناوله ورقة صغيرة كتب عليها اسمه وعنوانه .. ثم استطرد :

- غدا .. الساعة السابعة مساءا ..

ووقف مصطفى مستأذنا .. بينما اتجه الدكتور الى عثمان يسأله عما دار بينه وبين علي .. فاجابه عثمان :

- اخبرني ان الاسلحة التي في حوزته سيضطر الى توزيعها على منظمة الشباب التي يقوم هو على تدريبها والتي ستعمل على القاء الرعب في قلوب الاعداء .. وليس في استطاعته الاستغناء عنها .. ولكنه اخبرني انه على استعداد لتزويدنا بأي مقدار نشاء من الذخيرة والالغام والمتفجرات فهي لديه كثيرة علاوة على انه يقوم بصنعها بنفسه .

وقام الدكتور وعثمان وركبا السيارة واتجها الى سلمة .. كان الدكتور يفكر في الظروف التي جمعته مع فؤاد .. وفي استعداد الاخير على احضار اسلحة لهم .. وقطع عليه تفكيره صوت عثمان :

- ماذا ستفعل يا دكتور .. من اين ستحصل على الاسلحة ..

- غدا ستعرف كل شيء ..

(44)

عندما وصل الدكتور الى بيته وجده مكتظا بالضيوف .. جاءوا ليسألوه عما حدث بامر الاسلحة .. كان الجميع تواقين للدفاع عن بلدتهم والاستبسال في سبيل حمايتها. واخبرهم الدكتور بان الغد سيقرر كل شيء .. ووقف ابو خالد يقول:

- الا ترى يا دكتور .. ان علينا ان نفعل شيئا آخر غير شراء الاسلحة ..

- ماذا تعني يا ابا خالد :

- اعني يجب ان تقوم بتحصين القرية وبناء الاستحكامات ..

واعجب الدكتور بالفكرة التي لم تخطر على باله مع كونها اساسية فاجابه:

- الحقيقة يا ابا خالد انك صاح .. ونشكرك جميعا على فكرتك .. ومن الغد سنبدأ بتنفيذها .. ما قولكم ايها الرجال ؟

وهتف ابو محمد :

- رائع .. كلنا للعمل غدا .. يجب ان نجعل من القرية قلعة ..

وتفرق الحاضرون على ان يبدأوا العمل في الصباح ..

* * *

استيقظت القرية مبكرة في ذلك اليوم. كل فرد تواق الى العمل. واتجه الجميع الى بيت الدكتور حيث كان الاخير قد صحا مبكرا وارتدى ثيابا قديمة ووضع على رأسه قبعة تحميه من حر الشمس .. وكانت سعاد الى جواره على اتم الاستعداد للعمل هي الاخرى ..

وراى الدكتور ان يبدا الجميع في منطقة واحدة، فاتجهوا الى الحدود التي تواجه رامات جان ..

خرج الرجال وفؤوسهم ومجارفهم بايديهم والنشاط يكاد يقفز من اجسامهم .. وخلفهم كانت النساء والفتيات يحملن على رؤوسهن (القفف) وكان المنظر يبعث في النفس شعورا بالارتياح والطمأنينة .. حتى الصغار وحتى العجائز .. اقبل الجميع على العمل بهمة .. وامام الجميع كان الدكتور يسير بخطى ثابتة .. والرجال ينشدون ..

بادرو للعمل يا حماة البلاد

ان طيف الامل طالبا للجهاد

يا فلسطيننا قد سمعنا النداء

قد اتينا هنا كلنا والنساء

وتجيب النسوة من ورائهم:

هللي يا ربى واهتفي يا سهول
قد دعانا الابى فضربنا الطبول
يا فلسطيننا يا نشيد الجمال
قد اتى جيشنا النساء والرجال

وهتف الجميع معا :

كالقضاء جيشنا سوف يطوي الزمن
كلنا والمنى في سبيل الوطن

وابتدأ الرجال والنساء العمل، فلا تسمع الا اصوات النشيد تتعالى. وكان الدنيا في فرح وعيد .. وسعاد في يديها تحمل (قفتها) كاي فتاة اخرى .. واقبلت ام عثمان وصاحت بابنتها ..

- حسنية .. خذي (القفة) من يد سعاد ..

فاجابتها سعاد :

- لا يام عثمان .. هذه قفتي .. فلتبحث لها عن واحدة غيرها ..

- سعاد .. انك يا بنيتي لم تخلقي لهذا العمل .. انك لا تتحملين ..

- لا يا ام عثمان .. يجب ان اعمل كما تعملون .. لا وقت للترف الآن .. ان اليهود لا يفرقون بين سعاد وحسنية عندما يريدون شرا ..

- سعاد لك عندنا عمل آخر ..

- ما هو .. ارجوا ان لا يكون مريحا ..

- لا .. انه اهم مما تقومين به .. لتحملي هذه الصفيحة الممتلئة بالماء وتوزعي الماء على العطاش فايديك ستدفع النشاط الى قلوبهم .. هلمي يا ابنتي .. هلمي ..

واخذت سعاد الصفيحة واتجهت ناحية الشباب .. وهي تهتف ..

- ماء .. من يريد ان يشرب ؟..

وعلا صياح الشباب الذي ما طمعوا يوما بنظرة منها ..

- سعاد .. انني عطشان ..

ارتفع صوت بعضهم فاقبلت نحوه .. في حين ارتفع نفس الصوت من جميع الانحاء ..

- انا عطشان .. ماء يا سعاد ..

واخذت سعاد توزع الماء .. وتتحمل المعاكسات البريئة النابعة من قلوب شباب القرية .. واتجهت ناحية عثمان الذي كان منهمكا في عمله غير ملتفت لما يدور حوله .. وقالت :

- عثمان .. الا تريد الماء ..

- اشكرك ..

- لقد شرب الجميع الاك .. الا تحب الماء من يدي ..

ونظر اليها نظرة جعلتها تستشف خبايا قلبه .. ولم يستطيع الكلام وطأطأ رأسه في خجل ثم همس :

- يا سلام .. الماء من يديك .. انها امنية ..

ولم تشأ ان تحرجه فهتفت ضاحكة :

- ساحققها لك ..

وناولته كوبا من الماء وهي تقول :

- تفضل ..

واخذ عثمان يرتشف الماء ببطء .. ولم تشأ سعاد ان يلحظ الآخرون استبطائها فقالت :

- هلم يا عثمان .. هلم الى العمل .. ليس في الوقت متسع ..

وسمعت سعاد اسمها يخرج من بين شفاه والدها فاقبلت نحوه مسرعة :

- ابي .. كيف انت ؟..

- ما هذا يا سعاد .. لقد اخترت العمل الهين .. يا لك من مترفة ..

- لقد اجبرتني ام عثمان على ذلك يا ابي .. ولا تنسى انني قمت باطفاء ضمأ جميع الشباب فهبوا الى العمل بنشاط ..

وهز والدها رأسه وهو يقول باسما :

- سعاد .. لقد استمعت الى عبارات الغزل .. اليس كذلك ..

- غزل بريء يا ابي .. ان قلوب شباب قريتنا كالمرايا لا تضمر شرا .. ولا تعرف سوءا ..

- وقلبي انا ..

- يا له من قلب كبير .. انه السماء الصافية التي تهبنا الامل والحياة ..

- ايتها الشاعرة .. كفاك .. اسقنيها بابي انت وامي ..

واكفهر وجهه وقد تذكر الصورة البشعة التي رأى والده ووالدته عليها آخر مرة .. لم يستطع ان ينسى تلك الصورة .. رغم السنين الطويلة .. ورغم الثأر الذي حققه ..

وارادت سعاد ان تسري عنه :

- ابي .. ليس هذا وقت ذكرى .. نحن اليوم للعمل .. هلم .. تفضل .. لا لتجلو الهم عني .. انت همي فضحك والدها وهو يتناول الكاس من يدها ..

عاد الجميع في مساء ذلك اليوم ورغم التعب الشديد فقد شعروا بارتياح عظيم .. حتى انهم قضوا ليلتهم يتسامرون ..

(45)

قبل ان تعلن الساعة السابعة كان الدكتور والى جواره عثمان يطرقان بابا في حي النزهة .. وفتحت الباب امرأة في الثلاثين من عمرها فسالها الدكتور :

- الاستاذ مصطفى الحلبي موجود ..

- اجل يا سيدي .. تفضلا بالدخول ..

ودخل الاثنان واشارت الى غرفة الضيوف .. حيث استقر كل منهما على مقعد ..

دخل فؤاد .. والابتسامة ترقص على وجهه ..

- اهلا وسهلا .. شرفتمونا ..

- زادك الله شرفا ..

- كيف حال (سلمة) اليوم .. وكيف حال سعاد ؟..

وفغر عثمان فاه .. واخذ يسأل نفسه .. ما دخل هذا الرجل بسلمة .. وبسعاد .. سعاد بالذات .. لماذا لم يذكر أي اسم آخر ..

فاجابه الدكتور :

- لقد كانت سلمة طول اليوم واقفة على قدميها .. لقد خرج الصغير والكبير. وعملت النساء والرجال والاطفال جنبا الى جنب .. لقد حصنت القرية تحصينا منيعا ..

- هذا بديع .. بديع جدا ..

وسعاد .. هل كانت تعمل اليوم ؟..

- لقد كانت جد نشيطة وان كان العمل الذي تقوم به سهلا جدا ..

- ماذا ..

- اجل .. كانت تحمل صفيحة الماء.. لتسقي الشباب ..

- يا لها من فتاة طيبة .. يا ليتني كنت هناك لاشرب من يديها كاس ماء .. انها لن تعرفني لو رأتني ..

وكان وجه عثمان قد احمر غضبا خلال هذا الحديث، وتصبب العرق من جسمه غزيرا .. الا يوجد في الكون غير سعاد ليتكلم عنها هذا الرجل .. ورأى ان انسب شيء هو ان يغير الموضوع فقال :

- اظن اننا جئنا هنا لنستمع الى قصة .. اليس كذلك يا دكتور ..

- انتظر يا عثمان .. لا تتعجل ..

ثم اتجه بحديثه الى فؤاد قائلا :

- تصور يا فؤاد انني لم اخبرها بمقابلتي لك البارحة فهتف عثمان :

- فؤاد .. انت تكلم من ..

- آه .. لقد نسيت .. مصطفى .. والآن يا فؤاد لنستمع الى القصة التي انتهت بك الى مصطفى ..

قال فؤاد :

- بداية القصة تعرفها انت .. كان ذلك منذ عشرة سنوات او يزيد عندما جئت الى سلمة مع بعض الجنود ..

ناول فؤاد سيجارة للدكتور ووضع اخرى في فمه، ثم سارع باشعال الولاعة وادناها من الدكتور فاشعل هذا سيجارته وهز رأسه شاكرا .. اخذ فؤاد يتراجع حتى استند على ظهره واخذت الولاعة تقترب من سيجارته .. ثم ارتفعت خيوط الدخان لترسم في الغرفة جوا من الهدوء والسكون قال الدكتور :

- والآن .. تفضل .. انني مشتاق الى حديثك العذب ..

وهز فؤاد رأسه باسما يشكر الدكتور فجامله ثم قال :

- انك تذكر آخر مرة تقابلنا فيها .. آخر مرة رأيتك فيها كان ذلك يوم ان ركبت معك السيارة الى يافا ..

وهز الدكتور رأسه دون ان يتكلم بينما خطرت صورة منى على مخيلة فؤاد كاد ان يلفظ اسمها ولكنه آثر عدم ذكرها ليترك قصته تنتهي دون ان يذكر اسمها فليس لذلك ما يدعو ..

واستطرد فؤاد قائلا :

- نزلت من السيارة .. كان علي ان احضر الى هذا البيت لتوديع اخي ولآخذ حاجيتي التي كنت قد تركتها في اليوم السابق. ولما وصلت البيت اعلمتني زوجة اخي انه في مكتبه. ودعتها واتجهت الى المكتب الذي يعمل فيه اخي .. وهناك قيل لي انه ذهب يعقد احدى الصفقات التجارية. لم اشأ ان انتظره فقد كنت مشوقا الى السفر تركت له بطاقة ودعته فيها ثم ركبت العربة التي حملتني الى حيفا . وقد كنت في طريقي احاول ان اقنع نفسي بمتابعة السفر الى بيروت دون التريث في حيفا ولكن اواصر الصداقة التي ترطني مع الكثيرين هناك وجدتها تشدني وتشعرني ان السفر بدون ان اودعهم غلط فاحش . واخذت اقنع نفسي .. من يدري .. قد تكون هذه اخر مرة ارى فيها هذه الوجوه العزيزة علي. وفعلا نزلت في حيفا .. تركت اغراضي عند احد الاصدقاء واخذت اطوف في ارجاء المدينة مودعا كل من كانت لي به صلة. ولما انتهيت من طوافي وجدتني اعود الى صديقي الذي تركت عنده حقيبتي ومعي اكثر من عشرون صديقا اصروا ان يشاهدونني وانا اركب السيارة .. كنت احس انني لن اراهم بعد هذه المرة .. وفي الحقيقة كنت قد سئمت البقاء في فلسطين .. خيل الي انه لا فائدة من بقائي ويجب علي ان ابحث عن مستقبلي وحياتي في لبنان. حيث التي اخترتها لتكون زوجتي. ولا ادري لماذا تأخرت السيارة عن السفر كانت تنتظر راكبا ليكتمل عدد ركابها فالسائق لا يريد ان يسافر دون ان يكتمل العدد .. واخذ احد الاصدقاء يتمنى ان لا يحضر هذا الراكب حتى ابقى معهم اكثر مدة ممكنة .. لا ادري لماذا نزلت دموعي غزيرة ساعة ارتفعت ضحكات الزملاء .. كنت اشعر بفرحة لا تعادلها فرحة .. ان الانسان عندما يجد نفسه محبوبا ممن يحيطون به ليس عليه الا ان يشكر الله .. فهو الذي يغرس في الناس المحبة لمن يحب .. تأخر انطلاق السيارة وتأخر سفري الى بيروت وحتى الآن فاني لم اطأها . لقد انطلقت من جديد رياح الثورة وهبت ووجدت اصدقائي الذين يحيطون بي وقد اخذتهم الحمية واخذوا يهتفون بعزة الوطن وباستقلاله .. كنت لا ازال انتظر السيارة لتقوم رغم ما سمعته ولم يؤثر فيّ كثيرا ذلك النداء المدوي . ولكن نظرات اصحابي الذين لا يزالون يحيطون بي بدات تخالطها الريبة في امري .. اخذوا لا يصدقون اني سأسافر رغم ما سمعته من اخبار. واخذ همسهم يزداد ويرتفع. كانوا يحدثون بعضهم ولكني كنت استمع الى كل

كلمة تقال، وافهم كل همسة تهمس، حتى عيونهم عندما كانت تنظر الي كانت تتكلم. وكنت افهم ما تريد ان تقوله. وتخيلت نفسي في بيروت .. ماذا افعل هناك ؟.. هل استطيع ان استقر . هل استطيع ان ان اقبع الى جانب زوجة وانتظر مولودا يخرج الى العالم بدون وطن. ووقفت فجأة واشرأبت اعناق من حولي. وتفحصت عيوني .. وارتفع ساعتها صوت صاحب السيارة يدعوني الى الركوب .. لقد اكتمل العدد .. واتجهت اليه ابصار زملائي. وعلا الوجوم وجهه وهو يراني لا ازال واقفا .. خيل اليه انني من فرط انفعالي لتوديع زملائي لم اجد ما اقوله .. ولم اجد فعلا أي كلمة اقولها له .. كنت قد قرت عدم السفر. ان مكاني هنا في بلادي .. سابقى الى جانبها .. ولن افارقها .. وان فعلت ذلك يوما فسيكون بعد ان ارى علمها وحيدا يقبله النسيم في سمائها .. واخذت تتردد في سمعي اصوات الثورة .. الثورة .. ثم سمعت صوت السائق يقول لي :

- يا استاذ .. تفضل .. العدد كامل ..

ونظرت اليه .. ونظر الي زملائي .. اصدقائي الابطال الذين طالما رقدنا معهم تحت الا شجار، وبين الصخور، وطالما جمعتنا وحدة الالم لاصابة احدنا .. وطالما كنا نكتم انفاسنا كانا رجل واحد ساعة اقتراب اعدائنا من الكمين الذي كنا اعددناه .. ووجدت نفسي في وسط دائرة من العيون .. وشعر السائق بحرج شديد خيل اليه انه سينتزع رضيعا من صدر تشبث به فقال :

- يا استاذ .. اذا كنت قد عدلت فلا مانع سابحث عن مسافر آخر .

ووجدت نفسي اقول له :

- لا تبحث عن مسافر .. لا يجب ان تؤخر الركاب هيا انطلق ..

وفي اللحظة التي كانت فيها عيون الزملاء ترقبني كنت افتح حافظتي واقدم للرجل اجرة الطريق .. وانا اقول ..

- لن اسافر .. ولكن خذ انت الاجرة ولا تتعطل ..

ورفض الرجل ان يأخذها .. قال :

- لا يمكن ان اخذ نقودا ثمن لا شيء .. انها ليست من حقي ..

ولم استطع ان اكلم الرجل .. بل انني لم اره لاقدم له التحية. لقد انقض علي زملائي واخذوا يحضنونني ويهتفون وحملوني وادخلوني الى بيت احدهم .. وهكذا وجدت نفسي لن استطيع ان ابرح هذه الارض قبل تطهيرها .. وهكذا بقيت في حيفا ..

واعتدل فؤاد في جلسته ونظر الى يده. لقد كانت السيجارة لا تزال فيها ولكنها كانت قد اختفت .. كانت النار تحرقها دون ان يكون قد استمتع بها .. لقد احترقت وحيدة وهو لاه عنها والقى فؤاد بعقب السيجارة وتناول اخرى ولكن الدكتور قال له :

- لا فائدة .. انها ستحترق دون ان تذوق طعمها .. اشعلها وهيا عد الى حديثك .. الم اقل لك ان حديثك عذب .. لقد نسيت انت نفسك وكذلك انا وان كانت سيجارتي لم تمت كما ماتت سيجارتك .

وترك فؤاد السيجارة تستقر في فمه دون ان يشعلها. واخذ ينظر الى سقف الغرفة ثم عاد والقى بالسيجارة على المنضدة .. وقال :

- وابتدئنا العمل من جديد .. كنت اخشى ان نحتاج الى اسلحة ولكني فوجئت بزملائي وكلهم على اهبة الاستعداد .. هذا يملك بندقية وذاك مسدسا .. وذاك مدفعا رشاشا .. والذي استضافني في بيته كان يصنع

الالغام .. وبذلك كونت اول سرية منظمة من خمسة وعشرين رجلا اختاروني قائدا لهم. واقول صراحة .. لم ادر لماذا اختاروني .. لقد كان فيهم من هو اشجع مني .. ومن هو اقوى مني واذكى مني. ولكنهم اختاروني فكان علي ان لا اضيع ثقتهم بي، وحاولت جهدي ان اكون عند حسن ظنهم ..

وكان علينا ان ننظم اعمالنا حتى نضمن السلامة لانفسنا والنتائج الطيبة لمحاولاتنا .. فقسمت السرية الى ثلاث فصائل يتكون كل فصيل من ثمانية اشخاص لهم رئيس ينتخب من بينهم .. وبهذا تكون القيادة مني ومن ثلاثة آخرين من الزملاء. وجعلت لكل فصيل اختصاصا رئيسيا واطلقت على كل فصيل اسما فكان اختصاص فصيل الاسد ان يهتم بالانجليز، بقتل كبار الضباط وصغارهم .. اما فصيل النسر فكان والحق يقال هو انشط فصيل .. لقد كلف باليهود ولم يكن ينام ليلة دون ان يبث فزعا ورعبا في عقر دور الاعداء .. اما الفصيل الثالث فكان اول الامر يعمل على تطهير الوطن من العملاء وسماسرة الاراضي .. فقد اجتاحت البلاد موجة من البيع في الفترة التي تلت الاضراب. ولم يراعوا السماسرة عن الاستمرار في خياناتهم حتى بعد ان نشبت الثورة من جديد. ولكن فصيل الثعلب .. طهر حيفا باسرع مما كنا نتصور .. وسكت فؤاد لحظة ثم استطرد وهو يبتسم :

- الثعلب .. اسم لطيف اضحك كلما تذكرته .. بعد ان كونا الفصائل .. اشار احد الزملاء باطلاق اسم على كل فصيل .. واخذنا ننتقي الاسماء اللائقة .. الاسد .. النسر النمر - الفهد واطلقنا اسم الاسد على فصيل والنسر على آخر واخذنا نختار للفصيل الثالث اسم الفهد او النمر .. وكان رئيس الفصيل هو صانع الالغام يدعى فيما بيننا بالثعلب .. فقد كان ماكرا ذكيا فاختار اسم النمر ليطلقه على فصيله، ولكن احد افراد الفصيل اشار باطلاق اسم الثعلب عليه .. انه خير اسم. واعترض الثعلب واصر ان لا يطلق على فصيله هذا الاسم .. انه لا يريد ان يسمى الفصيل باسمه فهو ليس خير من زملائه السبعة ولقد راقت لي فكرة وكذلك راقت للجميع واقتنع الثعلب .

وبعد ان انتهينا من السماسرة اخذ فصيل الثعلب ينظر حواليه انه بحاجة الى عمل جديد .. كان يؤازر الفصيلين الآخرين في اعمالهما .. واخيرا قررنا له عملا مستقلا وهو تدمير خطوط السكك الحديدية والقطارات .. وكانت للفصيل جولات موفقة خصوصا في جنوب فلسطين .. كنت على رأس هذا الفصيل .. وكانت الثورة قد اخذت شكلا تنظيميا في جبال نابلس. واتصل بي احد القادة هناك وطلب مني ان اعمل على تعطيل سير القوات الانجليزية القادمة من مصر . واتجهت فعلا مع فصيل الثعلب .. كنت احب لعبة القطارات .. وكم كنت اشعر بالسعادة وانا ارى القطار يخرج عن خط سيره ويتحطم . او وانا اسمع اللغم يتفجر من تحت القاطرة فيلتهمها الى جانب الخط .. وفي الجنوب بين غزة والمجدل .. لم يكن باستطاعتنا ان ننتظر قدوم القطارات وتدميرها .. بل اخذنا نحرض الاهالي على العمل من اجل الوطن .. ولم تكن غير ساعات حتى كانت كيلومترات من القضبان انتزعت واصبح من المتعذر مرور أي قطار في تلك المنطقة. وبعد ان قمنا بواجبنا اتجهت مع زملائي الى يافا .. كانت مخاطرة فقد كنا جيشا مسلحا وكان قانون الاعدام قد صدر بحق كل من يحمل ولو طلقة واحدة . وكنت على مقربة من سلمة .. وكنت مشتاقا لرؤيتكم ولكني لم استطع ان ازوركم لاسباب .. وفي تلك الليلة كنت مع افراد الفصيل نسير على مقربة من رامات جان .. حيث فوجئنا باقتراب قافلة لليهود .. كانت صيدا ثمينا فقررنا اقتناصه .. وكانت مسدساتنا على اهبة الاستعداد. علاوة على لغم كان يحمله الثعلب في سلته غطاه ببعض الارغفة وعناقيد العنب . واستحثني التعب على العمل .. ولم اجد بدا من ذلك .. كان الكمين موفقا ارتفع اللغم بالعربة الاولى فعطل سير ثلاث عربات خلفها. وانطلقت الرصاصات من فوهات المسدسات وانقض الثعلب على السيارات التي كان اصحابها الاحياء قد هربوا منها فاشعل فيها النيران .. وكان علينا ان نسارع بالابتعاد. حيث كانت رامات جان على مقربة منا. وكان وصول اية نجدة معناه هلاكا محققا .. واستطاعت اشجار البرتقال ان تؤدي لنا خدمة جليلة . وفي صباح اليوم التالي كنا قد بدأنا السير فوق الجبال وهناك قابلت سامي .. المرحوم سامي ..

واعتدل الدكتور في جلسته وتناول السيجارة التي كانت امامه على المنضدة .. واشعلها واخذ بنظراته يستحث فؤاد على المضي بكلامه ..

نظر فؤاد الى الدكتور واخذ يرمق الدخان المتصاعد .. كان يراه كثيفا متجمعا له لونه وكيانه ولكنه ما ان يتفرق حتى يصير لا شيء .. ثم قال:

- لاحظت تغيرا قد طرأ عليه كان يبدو اكبر من عمره تنطلق من عينيه اشعة حزن عميقة وكانت الهموم قد سلبت نضارته التي عهدته بها وشبابه المتورد كان قد تردى .. وكان بيننا حديثا طويلا انتهى نتيجته الى زيارته لاهله. ولقد رجاني ان انتظره حتى يعود كانما يريد ان يثبت لي انه لا شيء سيجعله ينسى واجبه الاهم. واجبه تجاه هذه الجبال التي تحميه. ووعدته ان انتظره .. ولم يخطر على بالي انه ذهب لكي لا يعود .. ذهب الى الابد ..

وسكت فؤاد .. لم يجد ما يقوله، وكان الدخان المنبعث من فم الدكتور دافعا له ان يشعل له سيجارة .. ولم يبد الدكتور أي ملاحظة بل تركه يستمر في حركاته .. وانتشر الدخان حول وجه فؤاد واخذ يتنفس بعمق كانما يريد ان يسترجع الدخان الذي خرج من صدره ..

ثم اخذ يسعل بقوة كأنه يدخن لاول. مرة ثم القى بسيجارته في المنفضة وقال:

- كان علي ان احضر الى سلمة وان ارى سامي وحاولت ذلك بعد اسبوع من سفره .. اصر اصدقائي على الحضور معي ولكني اقنعتهم بانها مسألة شخصية تخصني وليس لنا او لاعمالنا فيها أي كسب. ثم امرتهم كقائد ان يسارعوا بالسفر الى حيفا ليكونوا الى جانب اخوانهم. وبدأت افكر في الوسيلة التي اصل فيها الى سلمة .. كان باستطاعتي ان القي باسلحتي وبذلك استطيع الوصول بسرعة، وفي أي سيارة، ولن يستطيع أي جندي بريطاني ان يعترضني ما دمت لا احمل سلاحا. ولكني لا استطيع ان القي سلاحي .. لا استطيع .. ولم اجد بدا من السير وحيدا، وقطعت مسافة طويلة في ذلك اليوم .. اصبحت اسير تحت اشجار البرتقال وقد خيل الي انني وصلت الى هدفي. وسمعت صراخا فارهفت اذني .. كان صوت امرأة .. واخذت عيناي تبحث عن أي اثر لانسان. واقترب الصوت شيئا فشيئا .. ثم رايتها .. كانت تسير مسرعة وقد امسك بيدها رجل ضخم الجثة . خلت انها تصرخ لانها تريد ان تنجوا منه. ولكني لمحت رجلين يتبعانهما. كانا يرتديان قبعات ويحمل احدهما مسدسا في يده، بينما كان الآخر يحمل بندقية . وعرفت من ذلك بانهم يهود .. اصبحا على مقربة من الرجل والمرأة الذين توقفا بعد ان تعبا من الهرب . وكانت المرأة تحتمي بذلك الجسم الضخم. لم يبد على الرجل الخوف. لقد لاحظت ذلك حيث انني كنت على مقربة منه. بينما اخذ الرجلان يقتربان والخوف باد عليهما رغم ما باييديهما من اسلحة. كان احدهما يكلم الآخر، ولم استطع ان افهم شيئا . ان مسدسي يستطيع ان يتكلم الآن. واقترب الرجلان. وقف احدهما مواجها الرجل بينما التفت الثاني حوله واخذ يشد المرأة بعيد عنه، والرجل واقف كالطود لا يتحرك ولا يأبه بما يدور حوله. وصاح به الرجل الذي كان خلفه يامره بالسير امامه فلم يتحرك . ضربه هذا بعقب بندقيته بينما كان مسدس صديقه مصوبا الى صدره والتف الرجل الى خلفه واخذ يهز رأسه، ثم بصق على الارض وعاد ينظر امامه. وعاد اليهودي يستحثه على السير فنظر اليه ساخرا .. وجلس على الارض وهو يقول:

- اذا اراد قائدكم ان يحاكمني .. فليحضر الى هنا .. اما انا فلن اذهب اليه حيا ..

وعجبت من جراة الرجل واخذت اقترب شيئا فشيئا لاستطلع الحقيقة فان منظر الرجل يوحي بالثقة بينما اخذت المرأة تحدق فيه وهي واقفة على مقربة منه .. لم تكن تبكي .. بل خيل الي ان الخوف لم يكن باديا على وجنتها .. وصاح بها صاحبها :

- خولة .. تعالي هنا ..

وتقدمت المرأة نحوه ولكن اليهودي حامل المسدس اسرع يمنعها من التقدم .. فاغتاظ صاحبها وهب واقفا يصيح :

- لا تلمسها ايها الوغد ..

ولم ادر لماذا اخذته الحمية حتى انه انقض فعلا على اليهودي ناسيا صاحبه الذي كاد ان يطلق عليه النار لولا ان تدخل مسدسي في الوقت المناسب ..

التفت اليهودي ذو المسدس نحو مصدر الرصاص فلمحني .. ولم يكن باستطاعتي ان اطلق عليه فقد كانت المرأة تقف حاجزا بيني وبينه. واستغل هو تلك الفرصة فاطلق علي رصاص مسدسه .. حاولت ان ارد عليه ولكني وجدت مسدسي يسقط من يدي .. ثم انكفأت على الارض وانا لا ادري ماذا يحدث حولي ..

ومر من الوقت ما لا استطيع ان اقدره عندما فتحت عيني .. كان الالم شديدا في كتفي .. حاولت ان ارفع رأسي فوجدته اثقل من ان استطيع .. وضعت يدي اليسرى فوق الالم .. احسست بثيابي مبتلة .. راعني منظر الدم الذي صبغ كف يدي، وعدت اضغط على موضع الجرح، وشعرت بدوار، ولكني تمالكت نفسي واخذت انظر حولي .. لم يتغير المنظر .. الشجرة التي كنت تحتها ساعة ان اطلقت النار على اليهودي وساعة ان اطلق علي النار صاحبه .. ولم ار أي اثرا للمرأة او الرجل. ولكني شاهدت الجثة التي اردتيها وكانت على مقربة منها جثة ثانية .. لم يكن حجمها كبيرا .. فعرفت انها جثة اليهودي الآخر .. ولكني تعجبت .. لماذا يذهب الرجل ويتركني .. لماذا وقد حاولت انقاذه .. واستطعت ان اقف على قدمي بجهد جهيد. واخذت اجر ساقي بمشقة زائدة حتى وصلت الى موضع الجثتين .. كانت اسلحتهما قد اختفت وكذلك كان مسدسي . واخذت ادور بعقلي. لم استطع ان احدد الاتجاه الذي علي ان اسير فيه. ولم يكن باستطاعتي ان اصل الى سلمة وانا على هذه الحالة .. اخذت اسير دون وعي اقف تارة على قدمي اخطو بجهد ثم ما البث ان اجثو على الارض فاسير على ركبتي معتمدا على يدي اليسرى التي اضطر ان انتزعها عن الجرح. فيعود الدم الى النزيف. فاضطر للوقوف ثانية .. وخيل الي ان هذه هي النهاية وفي الواقع لم تعجبني .. كنت اتمنى نهاية اكثر جاذبية. وكادت الشمس ان تغيب وانا لا ازال اصارع الطريق. وفجأة سمعت صراخا .. كان نفس الصراخ الذي سمعته من قبل فلابد ان تكون نفس المرأة ونفس الرجل .. ولكن لماذا اذهب اليهما .. اذا كانا لا يريدان مساعدتي. ولكن كنت اريد ان اعيش .. يجب ان اعيش. ان علي ان اصل الى تلك المرأة والى ذلك الرجل لعلهما يستطيعان مساعدتي. .. واخذت اسرع في حركاتي واسرع في سقطاتي ويزداد آلامي حتى وجدت نفسي على مقربة من الرجل والمرأة. كانت لا تزال تصيح وكان الرجل يركلها بقدمه تارة وهو يقهقه ثم لا يلبث ان يصفعها فتختلط ضحكته مع صرختها. والتفت الاثنان نحوي عندما صرخت ووقعت على الارض .. اقترب الرجل مني وكذلك المرأة .. اخذا ينظران الى بعضهما كأنما يستنكران وجودي هنا .. وسمعت المرأة تقول :

- خذ حذرك .. قد يكون لا يزال مصمما على اصطيادك. ولم اكن افهم ماذا كانت تعني بكلامها .. كنت اشعر بحاجة الى الشرب فاخذت اتمتم :

- ماء .. ماء ..

ونظر اليها الرجل وقال :

- انه عربي .. هيا احضري له الماء ..

ولقد فرحت في الحقيقة لهذا الاكتشاف .. انه اطمئن لاني عربي اذن فهو لابد سيساعدني .. وقلت له :

- اجل انا عربي .. لقد رأيته يحاول ان يقتلك من الخلف فقتلته .. فهز الرجل راسه مبتسما ثم دنا على مقربة مني وهو يقول :

- خيرا فعلت ..

فقلت له :

- هل انت الذي اخذ مسدسي ؟..

فهز رأسه ووقف ثم اتجه ناحية المرأة التي كانت تقترب منه واشار لها ان تسرع ثم عاد فاقترب مني وقال :

- اجل انا الذي اخذت مسدسك .. وتستطيع ان تستعيده ..

فقلت له :

- ولماذا اخذته ؟..

- لم اكن اعلم انك عربي ..

فقلت مستغربا ..

- وماذا كنت تظنني .. يهوديا ..

- اجل ..

- يهوديا واقتل يهوديا لاجل انقاذك ..

فهز الرجل رأسه وتناول الماء من يد المرأة التي اقتربت منا واخذ يدنيه من فمي وهو يقول :

- اشرب انك لا تعرف شيئا ..

وشعرت بانتعاش بعد ان شربت الماء ولكن آلاما حادة كانت تخترق كتفي فقلت للرجل :

- ان كتفي تؤلمني .. ان الرصاصة لا تزال بداخله ..

فمد يده تحت رأسي، واخذ يرفعه قليلا قليلا حتى اصبحت بين يديه، ضمني وسار بي وسارت المرأة خلفه حتى وصلنا الى شجرة ضخمة اظنها كانت شجرة خروب . القاني تحتها ثم قال للمرأة ..

- هيا .. احضري المزيد من الماء ..

ثم اخذ الرجل يمزق ملابسي التي حول كتفي وبدات اشعر بدوار .. كنت اتمنى ان اروح في غيبوبة حتى لا يؤلمني اخراجه للرصاصة من كتفي . ولكني لم اغب عن وعيي. وكان قد كتب علي ان اتألم واخذت افكر .. ان اليهودي الذي قتلت الآن لم يعاني الالم الذي اشعر به وأعانيه الآن . كل هذا لانني اريد ان اعيش. وهو قد استراح. وانا اريد مزيدا من التعب .. ولست ادري هل في الحياة لذة .. ولم لا .. انني شعرت بلذة وانا اقتل ذلك اليهودي. وكل يهودي او انجليزي اقتله يجعلني اشعر باللذة .. يااللانسان انني اشعر باللذة وهو يشعر بالالم .. واليهودي الذي اصابتني رصاصة مسدسه لو قدر له ان يعيش لكانت لذته لا تعادل بينما آلامي لا تطاق. وصرخت .. ليس لان ضميري انبني. بل لان غصن شجرة كان يدخل جسمي فيعبث بتلك الكتلة الحديدية التي استقرت فيه . وغبت عن وعيي لحظة .. لست اظنها كانت لحظة بل اكثر من ذلك بكثير . لانني عندما عدت الى رشدي لم اشعر بالالم الحاد الذي كنت اشعر به من قبل .. وكانت الى

جواري تقبع المرأة وقد ضمدت جرحي بقطع من القماش الاسود. واما الرجل فبحثت عنه بعيني فلم اجده. واخذت شفتاي تحاول الكلام فوضعت المرأة اصبعها على شفتها كأنما تأمرني بالسكوت. غير ان عيناي كانتا تتكلمان. وعاد الرجل بعد قليل فسمعته يقول لها :

- من الخير ان نبقى هنا الليلة .. هيا بنا لنصعد وننام ..

كان الليل قد ارخى سدوله غير ان ضوء القمر كان كافيا ليجعلني ارى ما يدور حولي ..

واقترب مني الرجل واضعا تحت رأسي معطفا قديما والقى علي بطانية انبعث منها رائحة عفنة. ولكني كنت من الضعف بحيث لا استطيع رفعها عن جسمي. وكان البرد الذي يتسرب الى عظامي يأمرني بان ادعها. ومد الرجل يده الى المرأة فاقتربت منه ثم اخذ يصعد الشجرة التي كنت تحتها. واخذت المرأة تصعد خلفه. واخذت اتابعهما بنظرات .. غابا بين الاغصان الكثيفة ولم يستطيع ضوء القمر ان يجعلني اراهما. غير اني عجبت من هذا السلوك الغريب .. ينامان فوق الاشجار تماما كما يفعل المتوحشون في غابات افريقيا . كان على مقربة من تلك الشجرة بناءا متواضعا عرفت فيما بعد انه يحتضن الموتور الذي يروي هذه الارض بالماء . وادهشني عدم نومهما هنالك قرب الموتور. ولكن آلامي الشديدة تركتني انسى ما يحيط بي ونمت . بل استطيع ان اقول انني غبت عن رشدي لانني لم احلم طيلة تلك الليلة كما كانت عادتي دائما عندما انام .

(46)

عندما استيقظت كانت اشعة الشمس ساطعة ولاحظت ان ظلال الاشجار تستلقي تحتها، مما جعلني اعرف ان الشمس في منتصف السماء. وحاولت ان انظر حولي.. كان الالم الذي يصاحب حركاتي شديدا، ومع ذلك كان لابد ان اتألم. حاولت الجلوس. واستطعت المشي. واخذت انظر الى اعلى.. وانا اسأل نفسي كيف قضيا تلك الليلة بين الاغصان.. كيف استطاعا ان يناما.. الم يخافا من الوقوع.. لم يترك لي تشابك الاغصان وكثافة الاوراق فرصة اكتشاف ما تحويه هذه الشجرة الضخمة في جوفها. واقبلت المرأة بعد قليل من ناحية المبنى وفي يدها صحنا. ثم ظهر الرجل واخذ يتهادى في مشيته. وكان حجمه ضعف حجمها ويكاد ذراعه ان يكون اثخن من خصرها. اما وجهه فرغم القسوة التي تشع منه، الا ان بريقا طفوليا كان لا يزال يلمع من عينيه..

انحنت المرأة امامي وهي تقول:

- انت استيقظت.. هيا تفضل..

ولم يكن باستطاعتي ان آكل.. وكان عليها ان تساعدني في ذلك. فاخذت تملأ الملعقة من محتويات الصحن وتضعها في فمي. ولم ادر ماذا كنت آكل. كان طعمه لذيذا ورائحته مقبولة. اما ماذا كان فلا ادري. ولم ادر لماذا لم اسأل عن ذلك. وجلس الرجل الى جواري يشاهدني وانا ابتلع الطعام. حاولت ان ابتسم له، ولكن منظره المرعب جعلني اعدل عن ذلك. خفت ان يظن بي سوءا. خشيت ان يظن ان البسمة موجهة اليها وليس له. ولكني هززت رأسي وانا انظر اليه بعين الشكر فقال لي:

- كيف حال جرحك الآن.. هل يؤلك ؟..

- قليلا..

- انك بخير..

- اشكرك..

والتفتت اليه المرأة وقالت له:

- دع الكلام يا صالح بعد ان يتناول طعامه..

واذعن الرجل لارادتها.. جلس الى جانبي دون ان يهمس بكلمة.. كنت افضل ان اسمع كلامه على الطعام.. كلما ازداد حديثه معي.. كلما ازداد اطمئناني له.. وانا اريد ان اطمئن كثيرا على نفسي.. واخرج الرجل من جيبه غليونا اخذ يحشوه بالتبغ، ثم اشعله واخذ دخانه ينبعث الى خياشيمي فيجعلني اتشوق الى سيجارة.. واخذت بيدي اليسرى اتحسس جيوبي فقال لي..

- عم تبحث ؟..

- اريد سيجارة..

- هل نبهك غليوني الى ضرورة سيجارتك..

- قد يكون ذلك .. ولكني اعتدت ان اتناول السيجارة بعد الطعام مباشرة ..

فالتفت الرجل الى المرأة وقال لها :

- هل انتهى من طعامه ؟..

- اجل .. يمكنك ان تعطيه سيجارة ..

اخذ يتحسس جيوبه فلم يجد سيجارة. واخذ يتحسس جيوبي فلم يجد ايضا. فوقف وقال :

- سأذهب لاحضر لك سيجارة ..

تهادى في مشيته معطيا ظهره لنا .. كنت اراقبه في حركته، بينما لمحت انعيني المرأة كانت تراقبني انا .. ابتسمت الي، فابتسمت لها . كان الرجل قد دخل المبنى وامتدت يداها الي يدي فاخذت تربت عليها ثم وقفت فجأة. واخذت تنظر الى الرجل الذي اقبل يتهادى من جديد، ودخان غليونه يتناثر حول وجهه. وناولني السيجارة ووضعها بيده في فمي، ثم اشعل ولاعة يتدلى منها حبل طويل، وجعلها تقترب من فمي فاشعل سيجارتي واخذت استنشق الدخان وانا اشعر براحة ونشاط يدبان في جسدي. وقال لي الرجل بعد ان طلب من المرأة ان تذهب لتعد لنا الشاي ..

- اين كنت ذاهبا .. ومن اين كنت قادما ..

- كنت ذاهبا الى يافا ..

- ولماذا اتبعت هذا الطريق ؟..

- لانني لا استطيع ان اسير بدون سلاح وبالتالي لن استطيع ان اسير الا في هذه الطريق ..

فهز الرجل رأسه وقال وهو يبتسم :

- الم تستطع ان تخفي سلاحك بحيث لا يستطيعون العثور عليه ؟..

- كيف استطيع ذلك .. ان تفتيشهم دقيق .. انهم يعدمون من يحمل سلاحا ..

- اعرف ذلك .. ولكن هل تصدق انني جئت من تل ابيب حتى هنا وانا احمل مدفعا رشاشا دون ان يقتلني أي انجليزي ..

فقلت مندهشا :

- ماذا .. وكيف فعلت ذلك ؟..

- اوهمتهم انني يهودي .. واليهودي له الحق بحمل السلاح ..

- وهل اقتنعوا ؟..

- لم لا .. ما دمت احمل بطاقة ..

واخرج الرجل من جيبه بطاقة كانت صورته تحتل نصفها بينما امتلا النصف الآخر بالبيانات .. الاسم ... شلومو ناحيم .. تاريخ الميلاد ... 1894 .. مكان الولادة ... بغداد .. تاريخ التسجيل ... 1924 .. واعدت البطاقة الى الرجل وقد ساورني الشك .. اهو حقا كان يمثل على الانجليز كونه يهوديا، ام انه يهودي ويحاول ان يمثل علي كونه عربيا .. اخذت اتفرس وجهه .. وجدت ملامحه تشير الى كونه عربي .. لكني تذكرت انه ولد في بغداد ومعنى ذلك انه يهودي عراقي .. أي من اصل عربي ونظرت اليه ثم قلت :

- ولكن اسمك الحقيقي صالح .. اليس كذلك ؟..

فابتسم وقال :

- اجل .. اسمي صالح عبد الجواد .. ويطلق علي اليهود اسم (الموت) .. ان العرب اهل بلدي رأس العين فيطلقون علي اسم (اللص) .. الا ترى كيف استطيع ان اجمع بين اكثر من اسم ..

- وهل لكل هذه الاسماء معاني في حياتك ؟.. هل انت حقا تمثل الموت بالنسبة لليهود ؟..

فهز رأسه بينما استطردت اسال :

- ولكن العرب .. لماذا يعتبرونك لصا .. هل انت حقا كذلك ؟..

فقال وهو يبتسم :

- ولم لا .. ان تسرق خير من ان يسرقك الغير اليس كذلك ؟..

- ولكني لا افهم ما تعنيه .. هل قمت فعلا بسرقة اخوانك العرب حتى جعلتهم يطلقوا عليك هذا اللقب ؟..

فقال وقد اعتلت وجهه ضحكة اكبر:

- لقد سرقت .. لقد سرقت ما كانوا يريدون هم ان يسرقوه. اترى هذه البيارة الكبيرة التي انت عليها .. انها ملكي .. ملكي انا. ولم اكن قبل سنين غير حارس لها .. وعامل فيها .. لقد اصبحت ملكي .. سرقتها ..

نظرت اليه .. كانت البسمة قد عادت فاخذ طريقا الى وجهه. ثم ما لبث ان ارتفع صوته بالضحك. واخذ يشير الى المرأة التي اقبلت وهي تحمل اكواب الشاي وقال :

- انظر الى عصفورتي الصغيرة .. لقد اعدت الشاي بلمح البصر ..

فقلت له :

- لقد قلت لي انك سرقت هذه البيارة .. كيف حصل ذلك ؟..

نظر الي .. كانت المرأة قد بدأت تقترب منا فقال لي :

- انس ما قلته لك .. لا تفكر فيه ..

واخذت ارتشف الشاي وانا لا استطيع الا ان افكر في الطريقة التي استطاع فيها هذا الرجل ان يستولي على هذه البيارة بكاملها . انه استطاع ان يجعل من نفسه يهوديا لينقذ نفسه. واستطاع ان يبث الرعب في نفوس اليهود فلقبوه بالموت. اما كيف حصل ذلك فلا ادري .. وشعرت انه لو لم تحضر المرأة لما تأخر عن تفسير ذلك. ولكنها قطعت علي تلك الفرصة وقررت ان استغلها في اقرب فرصة اكون فيها معه وحيدا ..

وبعد ان انتهينا من شرب الشاي قال لها :

- ارى ان نجعله ينام معنا .. فوق ..

فنظرت اليه المرأة مستنكرة .. ولكنه ابتسم وقال :

- لا تخشي شيئا .. انه سينام فوق هادئا .. لن يزعجنا ..

فقالت له :

- كما تشاء ..

وتعجبت حقا .. كيف يمكنني ان انام بين الاغصان وانا في تلك الحال .. وامتدت يد صالح ترفعني بينما اخذت هي ترمقه بنظراتها . كنت بين يديه كطفل صغير خيل الي انه لم يشعر بوزني. فقد اخذ يصعد الشجرة وكانه صاعد على درج او كأنه يسير في طريق ممهد ..

وفي جوف الشجرة وجدت نفسي ادخل ما استطيع ان اسميه غرفة .. كوخا او أي شيء .. لقد كان هناك سريرا عريضا احكم رباطه في الاغصان، بينما كانت تحيط به مجموعة من الاكياس الصغيرة وقد امتلات بالرمل. وتحت الفرشة التي تغطي السرير، لاحظت ان اكياسا من الرمل قد اصطفت. والقى الرجل بي على السرير، ثم اتجه ناحية قريبة، كان يتحرك فوق الاغصان بكل رشاقة. واخذ يحكم رباط سرير صغير لم تكن تحيط به اكياس الرمل، غير انه كان مريحا وشعرت بذلك عندما نقلني عليه، وتركني انام نوما هادئا . وطلب مني ان لا اتحرك. لاحظت اشياء غريبة في بطن تلك الشجرة. لقد كان ما يفوق عن عشرة قطع اسلحة ما بين مسدس ومدفع رشاش، وثلاثة قد ربطت في الاغصان. ورأيت مجموعة من الخيوط والحبال تتصل بتلك البنادق وتنتهي عند السرير الذي ينام عليه، الى جانب تلك المرأة. خولة .. وفهمت .. انه يعيش وحيدا . ولكي يثبت لاعدائه انه ليس كذلك اذا حاولوا الهجوم عليه، فانه يطلق دفعة واحدة وليس عليه الا ان يشد حبالها .. يا له من ذكي .. انه فعلا يستحق ان يطلق عليه لقب الموت. كما يستحق اذا كان فعلا قد لطش هذه البيارة ان يطلق عليه لقب اللص بجدارة. ونزل الرجل. لي يدع له فرصة سؤاله عن الطريقة التي سرق فيها تلك البيارة. لا ادري لماذا شغلني امرها . لم اكن في الحقيقة انوي ان اقلده .. ولكني كنت محبا للاستطلاع ..

وعند المساء اقبلت خولة وحيدة وجلست الى جواري، واخذت تفك الرباط الذي يحيط بجرح كتفي، ثم قامت بدهن الجرح بمرهم كان يبعث في جسدي برودة شديدة. وشعرتها مهتمة بحالتي. وبعد ذلك .. شكرتها على هذا الجميل. فابتسمت .. كانت ابتسامتها تزيدها جمالا وفتنة. اخذت احدق في وجهها وقد اسرتني تلك البساطة النابعة منها ..

كانت كما قدرت في العشرين من عمرها، واسعة العينين غجرية الملامح ترتدي فستانا ضيقا لا يتلائم مامع ترتديه النساء في القرى او في المدن. ولكنها كانت على ما اعتقد كانت تعتبر ان لها عالمها الخاص. تعيش فيه كما تشاء. وتلبس كما تشاء. ولم استطع ان اخفي انفعالي عندما اخذت تتحسس وجهي بيديها الناعمتين. ارتفعت يدي اليسرى واخذت تضغط على يدها التي كانت لا تزال فوق وجنتي. ابتسمت في خبث وقالت :

- لو رآك تفعل هكذا فانه سيقتلك ..

فرفعت يدي في الحال لدى سماعي كلامها ..

فضحكت وقالت :

- هل خفت حقا .. انه لن يراك ..

وكالعفريتة قفزت من جواري، واخذت تنتقل من غصن الى غصن. وقبل ان افوق الى نفسي كانت قد وصلت الارض واختفت عن ناظري ..

واخذت افكر فيها .. وتذكرت سامي وبدات اتسائل .. لماذا تأخر .. انني يجب ان اراه. ولكن الافكار اختلطت مع الالم المنبعث من كتفي فألقيا بي في نوم عميق.

وعندما استيقظت لم يكن هناك ضوء شمس .. حتى القمر كانت اشعته لا تتمكن من الوصول الي. كان

همسا يدور على مقربة مني .. سمعت خولة تقول لصالح :

- الى متى سنظل على هذه الحال ؟..

ارهفت اذني لدى سماع هذه الجملة . ماذا تقصد بها وانتظرت ان اسمع جوابا منه ولكنها استطردت تقول :

- منذ ان حضر الى هنا لم اعرف طعم اللذة ..

فقال لها صالح مقاطعا :

- ماذا تريدينني ان افعل بك ؟..

كان صوته خافتا ولكنه يعتبر صياحا بالنسبة لصوتها وبالنسبة الى ذلك السكون الذي كان يخيم عل العالم ..

وردت عليه خولة بصوتها الرقيق :

- يا حبيبي .. اريدك ان تشعرني بانك لم تتغير .. لماذا لا تضربني .. لا تعذبني كما كنت تفعل بي من قبل .. انك تعلم ان لذتي هي ايلامك لي .. هيا .. حطمني .. ذوبني اريد أن اشعر انني امرأة ..

فقال صالح :

- وماذا كنت تشعرين قبل قليل ؟..

- هذا لا يكفي ..

- دعي هذا الآن وعند الصباح سآخذك الى مكان بعيد واقدم لك علقة لذيذة . اهذا ما تريدينه .. ولكن اياك ان تصيحي .. ان صياحك يجلب علينا اليهود والعرب ..

فقالت له مبتسمة :

- لن اصيح يا حبيبي . لن اصيح ساتحمل العذاب في سبيل اللذة . في سبيل ان اشعر انني امرأة ذليلة لرجل عظيم . لا تنسى غدا صباحا . تصبح على خير ..

وعاد السكون يخيم من جديد وعادت الافكار تتزاحم في رأسي .. يا لهذه الدنيا .. هذه المرأة ترجوه ان يضربها .. ان يذلها .. ابهذا تشعر انها امرأة .. حقا .. ان في الدنيا اشياء عجيبة، يصعب على امثالي تفسيرها . ووجدت من الخير لي ان انسى ما سمعته. ان النوم يعود الي من جديد .. فلماذا لا انام .. ونمت .

(47)

استيقظت على صوت رصاص ينطلق .. حاولت الحركة ولكني خفت ان لا استطيع التشبث بمكاني. ولو وقعت من على الشجرة فمعنى ذلك هلاكي. خفت ان يقترب مني احد فلا استطيع الدفاع عن نفسي فنظرت من ناحية السرير الضخم .. كان خاليا .. تمنيت لو استطيع الاستلقاء عليه .. ان امساكي بهذه الخيوط الكثيرة يجعلني اشعر بقوة. ولكنها بعيدة ولن استطيع ان اصل اليها . وشعرت بزلزلة حقيقية واهتزازات في اغصان الشجرة .. وسمعت خولة تصيح :

- لقد قتلوه .. لقد قتلوه ..

كانت تلهث وتختلط آهاتها مع اصوات اهتزازات الاغصان، وقلت لها وقد اصبحت على مقربة مني :

- ماذا تقولين .. من الذي قتلوه ؟..

- صالح .. لقد قتله اليهود ..

شعرت بنهايتي .. كان الرجل يحميني اما الآن فليس على الا ان انتظر نهايتي .. وقلت لها وانا اشعر بخوف :

- انهم ولا شك قادمون ..

فاخذت تنظر من خلال فتحات بين الاكياس ثم هتفت :

- اجل .. انهم قادمون .. ولكنني ساقضي عليهم ..

فقلت لها :

- اهم كثيرون ؟..

- ثلاثة ..

- ماذا ستفعلين بهم ؟..

ولم ترد علي وانما امسكت مجموعة من الحبال وشدتها بقوة وشعرت بان الدنيا تهتز بي . الشجرة خلتها ستقتلع من الارض . اما الاصوات التي انطلقت فقد كانت كافية لايقاظ مدينة بكاملها . وضممت آذاني فلم استطع ان اسمع ما قالته من كلمات ولكنها عادت تحدق وقالت :

- يا لهم من جبناء .. لقد هربوا ..

ثم ما لبث ان اعتلى وجهها القلق فقالت لي :

- يجب ان تهرب من هنا ..

- كيف استطيع النزول وانا في هذه الحالة ؟..

- ساساعدك ..

- اخشى ان نقع كلينا .. ولكن الى اين سنذهب ؟..

- الى أي مكان غير هذا المكان

فقلت لها وانا اشير الى تلك الحبال:

- يخيل الي ان هذا السرير بحباله وخيوطه آمن من أي مكان آخر ..

فنظرت الي ثم تأوهت وقالت:

- ما دام صالح سقط فانهم لن يخافوا شيئا ..

- ولكننا سنطلق عليهم النيران .. لقد هربوا منذ لحظة ..

- لقد انتهى الامر .. هذه الاسلحة لا تستطيع حمايتنا واني اشعر بخوف شديد .. هلا اتكأت على لننزل ..

ووجدت نفسي اطيعها . وانتابني شعور غريب، حيث اني كشفت شيئا ولكني عدت فتذكرت انني على مقربة من ان اخسر حياتي . يجب علي ان اكون حريصا في كل حركة حتى لا اسقط عن الشجرة ..

ووضعت خولة ذراعي حول رقبتها، وامسكتها بيدها اليسرى بينما احاطت يدها اليمنى بخاصرتي . ثم تركت يدي اليسرى وحيدة حول رقبتها، واخذت يدها اليسرى تتمسك بالاغصان بينما تشدني بيدها اليمنى اليها، ولم اشعر بتعب شديد اثناء النزول رغم ان خوفي كان شديدا . ولما وصلت الى الارض كانت قواي قد استنفذت وكذلك اعصابي، فاستلقيت على الارض. وطلبت منها ان تحضر لي شربة ماء . كانت تنظر حولها خائفة ترتجف لاقل حركة لا ادري ماذا انتابها .. اسرعت ناحية المبنى واحضرت كوبا من الماء فقلت لها :

- هل تريدينني ان اذهب الى هناك ؟.. واشرت الى المبنى ..

- لا ..

- الى اين اذن ؟.

- اشرب الماء .. وهيا بنا قبل ان يفلت الامر ..

شربت الماء وناولتها الكأس فالقته على الارض، واخذت تساعدني على الوقوف واستطعت ذلك واخت اجر ساقي متكئا عليها . كنت في غاية التعب. ورغم ذلك كنت احس انني ساعيش وان هذه المرأة ساكون مدينا لها لانقاذها حياتي . وقبل ان اجد نفسي غير قادر على السير بلحظات سمعتها تقول:

- لقد وصلنا ..

اعادت لي كلماتها بعض الثقة، وبعثت في جسمي بعض النشاط، فاخذت احدق في ذلك المكان الذي وصلنا اليه ..

كانت عيناي قد غابتا فل استطيع ان انتبه بوضوح ماذا يحيط بي . غير اني لم ار الا شجرة كبيرة يمكن ان تسترنا اغصانها الكثيرة عن العيون. واخذت يدي اليمنى ترتفع الى وجهي وتفرك عيني . واستطعت ان اميز المكان. كانت نهاية البيارة. فقد لاحظت سياجا يرتفع وقد تسلقت شجرة يقطينة كانت ثمارها تتدلى كالقرب. واغصانها تنسدل على الارض فتكسو قطعة كبيرة .. وقالت لي خولة .. وقد اقتربنا من تلك الشجرة السابحة:

- هيا ازحف تحت هذه الشجرة سارفع الاغصان ..

واخذت تشد اطراف الشجرة الى اعلى بينما اخذت ازحف على ركبتي وبمساعدة يدي اليسرى وتبعتني هي وقلت لها وقد اصبحنا رقودا تحت الشجرة :

- ان أي انسان يستطيع ان يرانا لو مر بجوارنا ..

فقالت لي وقد استمرت في زحفها :

- هيا .. اتبعني ..

وزحفت ورائها . كنت ابذل مشقة كبيرة واعاني آلاما شديدة. وكانت اوراق اليقطينة وفروعاتها تحمل اشواكا صغيرة لا تؤلم بل تغيظ. وبعد امتار قليلة وجدت نفسي امام حفرة مستطيلة وخولة تقول لي :

- هيا .. بلطف ..

وامسكت بيدي اليسرى من تحت ابطي واخذت قدماي تنزلان رويدا رويدا حتى لامستا قرار الحفرة. كانت حافتها العليا تكاد ان تصل الى كتفي. ونزلت خولة وتركتني استلقي وجلست الى جانبي واخذت تتفحص وجهي ثم اخذت تبكي ..

كان صوت نحيبها مسموعا فقلت لها :

- خولة .. ما هذا؟ هل تريدينهم ان يكتشفوا موضعنا ..

فخف صوتها قليلا ثم عاد يرتفع من جديد، فمددت يدس اليسرى وكانت عيناي تتوسلان لها ان تسكت. وامسكت بيدي ثم القت رأسها فوق صدري. كانت لا تزال باكية واحسست بدموعها تبلل صدري وتختلط بالدم الذي كان يلطخ قميصي. وامتدت يدي اليسرى تطوق راسها في حنان. واخذت اعبث بشعرها. فكفت عن البكاء لحظة، ثم عادت تبكي من جديد .. كنت احاول ان اواسيها لم اجد ما استطيع ان اقوله لها . كل ما استطعته هو ان اترك يدي تعبث بشعرها وتنتقل الى رقبتها وظهرها ثم تعود ال شعرها الفاحم لتنغرس فيه من جديد. ورفعت أسها عن صدري ونظرت الي. حاولت ان ابتسم كي اخفف عنها فلم استطع. كانت نظراتي كانما تعاتبها. ولكنها لم تأبه لنظراتي فمدت راسها نحو صدري وعاد نحيبها يشتد وصوتها. يرتفع واخذ راسها يهتز فوق صدري فيبعث بي احساسا لا ادري كنهه . اكان رثاء لحالتها ام رغبة في مواساتها ام خليطا من الرغبات. وخلال صوتها المنتحب تخللت اسماعي اصوات فاخذت اهزها كي تسكت. ولكن صوتا ارتفع فقلت لها هامسا :

- اسكتي .. انهم قادمون ..

وانقطعت عن النحيب فجأة .. وارتفع رأسها عن صدري واخذت تنظر الي بينما كانت اصوات تقترب من مخبئنا واستطعت ان اميز بعضها وافهم ما تقصده .. كان القادمون يبحثون عنا وخيل الي انها فهمت ما كانوا يقولونه فهمست :

- انهم يريدونني ..

ثم القت بجسدها فوق جسدي المتهدم واخذت تحضنني بذراعيها ورغم الالم الذي اعانيه عند ملامستها لجرحي فلم استطع ان اتنفس. كنت خائفا ان فطن القادمون الى وجودنا واخذت شفتيها النهمتين تتحسسان لحم صدري ثم تنزلقان الى اعلى .. الى رقبتي فوجهي فثغري ونمنا معا في قبلة طويلة . طويلة جدا . لم تكن تريدها قبلة لم احس لها بطعم .. واظنها كذلك لم تعرف طعمها. كنا نريد ان نسد مصدر الاصوات في اجسامنا فلم نجد خيرا من تلك الطريقة. ورغم الاصوات التي اصبحت قريبة منا والتي اصبحنا نميزها بوضوح .. استمرت قبلتنا .. وكان احد الرجال يقول لزملائه :

- يخيل الي انها تختبئ هنا .

- هيا اتبعها ..

- انا اتبعها .. لا يا سيدي ..

- لماذا .. هل انت خائف ؟..

- ولماذا لا اخاف ؟..

- اتخاف من امرأة .. اذن ماذا ستفعل ؟..

- ساطلب منها ان تخرج والا فساطلق النار في جميع الجهات ..

- ولكنها لا تفهم لغتك ..

- انا افهم لغتها ..

واخذ اليهودي يصيح :

- اخرجي والا اطلقت النار .. اخرجي .. ولم نكن نستمع الى أي صوت فقد كانت شفتانا لا تزال ملتصقة وانفاسنا لا تزال مكتومة . شعرت بخوف شديد . اول مرة يصادفني هذا الخوف . كم مرة تعرضت فيها للموت . بل سعيت اليه، ولكني كنت دائما احمل معي سلاحي. اما الآن فانني اعزل وجريح ومعنى ذلك انه لا فائدة مني . لا استطيع ان احمي نفسي .. وانطلقت عشرات الرصاصات في كل جانب وشكرت الله ان الحفرة عميقة تحول دون وصول الرصاصات الينا .. وعاد صوت اليهودي يقول لزملائه :

- هيا بنا الى منطقة ثانية .. انها ليست هنا ..

فقل له احدهم :

- لا اظنها في هذه المنطقة .. لابد انها ذهبت الى القرية ..

- اذن هيا بنا ..

وانفصلت شفتانا .. وتنفسنا الصعداء وارادت ان تعود الى البكاء فتوسد رأسها صدري ولكني رفعته بشدة وقلت لها :

- ارجوك .. لا تبكي .

وحملقت في .. واخذ وجهها يقترب ويدا رويدا من وجهي .. وتلاصقت شفتانا .. فشعرت بقشعريرة لذيذة تسري في أوصالي تشفي الآلام جميعها ..

وغبنا في قبلة .. وكانت الاولى .. حيث ان التي سبقتها لم تكن قبلة .. بل كان كتم انفاس ..

(48)

قلت لها وقد افترقت شفاهنا :

- هل انت غجرية ؟..

فنظرت الي باستغراب يخالطه عتاب ثم همست :

- امي ..

- اهي على قيد الحياة ؟..

فهزت رأسها نافية

- ووالدك ..

- مات ايضا ..

وشعرت باسف من اجلها ومن اجل نفسي .. ان الدنيا لا تبتسم للانسان يوما الا لتمتص دموعه في الغد .. فقلت لها :

- والرجل .. صالح .. اهو زوجك حقا ؟..

ونظرت الي .. لم افهم ما كانت تقصده .. ووجدت نفسي اقول لها :

- البقية في حياتك ..

- رحمه الله .. لقد كان بطلا ..

- ولماذا قتلوه ..

فنظرت الي مستغربة .. ثم قالت :

- لماذا قتلوه .. الا تدري .. اننا نعيش في ثورة .. في حرب معهم وقد ادى صالح واجبه تجاه وطنه .. لقد بث الرعب في المستعمرة بكاملها .. انه جيش باسره ..

وارتسمت امام عيني صورته . عملاق تشع القسوة من وجهه تخالطها بعض ومضات طفولية باسمة . الموت . هكذا لقبه اليهود . واللص . فتذكرت البيارة وسرقته لها فقلت :

- وهل هذه البيارة ملكه هو ؟..

- اجل .. كانت ملكي .. فاصبحت له .. وهاهي تعود لي ..

- كيف اصبحت له ؟..

وحدقت فيّ . ثم حولت انظارها الى اعلى . كانت اوراق اليقطينة تنسدل فوقنا وبعضها يجتاز فوهة الحفرة التي تضمنا . وكانت ثمرة يقطينة كبيرة تتدلى عند حافة الحفرة وقد علاها اصفرار كئيب .. وعادت خولة

تنظر الي ثم قالت :

- هذه الارض .. كانت لابي .. ثم اصبحت لامي .. ثم لي ثم اصبحت لصالح وها هي تعود لي .. لقد كانت منذ سنين طويلة .. ايام الحرب الكبيرة بدون اشجار. كان ابي يزرعها قمحا وشعيرا . وذرة في بعض الاحيان. وكان صالح صديق ابي .. صديقه الحميم . وقد ترك له والدي ادارة الارض . لم اكن قد خلقت . بل ان ابي لم يكن قد عرف امي بعد . كان بعض الغجر اجدادي لامي يقضون بعض اوقات الصيف في هذه الارض، يجمعون السنابل ويساعدون في اعمال الحصاد، وعملت امي مع صالح . كانت جميلة فافتتن صالح بها واستطاع ان يوقعها في حبائله، وبعد ان وصل الى ما ابتغاه منها قدمها لابي . لصديقه. ولم تكن لابي موفقة مع النساء. فهو وان كان غنيا فقد كان خجولا الى درجة الخوف. واستطاع صالح ان يقنع والدي بالوصول الى تلك الفتاة الغجرية التي هي امي. واستطاعت امي ان تشبع رغبة ابي . ان تشعره برجولته. واحبها ولكنه لم يستطع ان يفعل اكثر من ان يقدم لها ما تشاء من نقود وملابس . وانتهى الصيف . وكان على امي ان ترحل . فقد قرر اهلها الرحيل . واقبلت الى صالح منتحبة . ان امرها سينكشف . وصدمها صالح . اخبرها انه ليس باستطاعته ان يفعل شيئا من اجلها ثم طمئنها بان الغجر اهلها لن يفعلوا بها شيئا اذا ما اكتشفوا امرها .. فالامر هين لديهم . ان الرجل منهم لا يهمه ان يجلب الى زوجته رجلا اخر .. وخرجت امي غاضبة وحاقدة ولم يكن باستطاعتها ان تفعل شيئا . ذهبت الى ابي وبكت وتوسلت واستطاعت ان تجعله يبكي هو الآخر معها . ولكنه هو الاخر اخبرها انه ليس باستطاعته عمل شيء من اجلها واضطرت الى الرحيل . ذهبت عن هذه الارض وهي تحملني في احشائها . ومرت اشهر كان بطن والدتي يرتفع، وكم حاولت التخلص من هذا الحمل الكئيب الذي هو انا . ولكن الحياة كانت قد كتبت لي .. لاعيش مأساتي .. ووقع والدي من على حصانه ذات يوم .. وانكسر عموده الفقري . واحس باقتراب نهايته فامر صالح بالبحث عن تلك الغجرية التي سلمت له نفسها يوما . الانسانة الوحيدة التي اشعرته انه رجل .. واذعن صالح . ولم يكن من الصعب ان يعثر عليها . عاد بها وبي. لم اكن بعد قد رأيت النور .. ولكن شهرا واحدا كان ينتظرني لكي اخرج الى هذه الحياة . وفوجئ ابي المريض بمنظر امي . واول ما لفت نظره بطنها المنتفخ فسألها :

- هل تزوجت ؟..

وهزت رأسها ناحية . واشار الى بطنها فجثت تحت اقدامه وهي تقول :

- لم يلمسني انسان بعدك ..

واخذت والدتي تبكي وتقبل اطراف يد والدي .. وحاول هو ان يرفع رأسه ولكن عظامه لم تكن تحت ارادته .. خانته قوته فاخذ يشير لصالح ويدعوه الى الاقتراب منه . ولما اقترب هذا قال له والدي :

- صالح .. انني ساتزوجها ..

فنظر اليه صالح مبهوتا . لم يكن يصدق ان الامر سيصل الى هذا الحد . كان باستطاعة والدي ان يعطيها بعض المال . اما ان يتزوجها فهذا اكثر من اللازم . وكرر والدي قوله لصالح ثم استطرد قائلا :

- هيا .. احضر المأذون .. هيا ..

وخرج صالح .. بينما ارتفع بكاء والدتي فقال لها ابي :

- هل تعتقدين ان ما في احشائك من صلبي ؟..

فهزت رأسها تؤكد له ذلك . ومد يده الى وجهها . استطاع ان يصل الى شعرها بصعوبة واخذ يعبث به ثم قال لها ..

ارجول ان تسامحيني. لقد اسأت اليك. ان الشيطان هو الذي جعلني انسى الله وانسى العقاب الذي اعده لمن يفعلون ما فعلت. ولكني سأكفر عن سيئاتي. ساطلب العفو منه ومنك انت ايضا. انك ولا شك تقبلينني زوجا لك ..

وبدأ صوته يضعف شيئا فشيئا. واخذ الاصفرار يعلو وجهه وحاول ان يتابع حديثه ولكن امي سارعت بوضع كفها على فمه تطلب منه ان يكف عن الحديث حتى لا يرهق نفسه .. واذعن لارادتها. ولكن عيناه كانت تطلب المغفرة منها ومن الله ..

واقبل صالح. وكان المأذون الى جواره وبعد دقائق اصبحت والدتي زوجة لابي. واصبح من حقي ان انزل الى هذه الارض كابنة شرعية لرجل غني يملك كل هذه الارض ..

وتوفي والدي بعد فترة قصيرة من زواجه. واصبحت والدتي صاحبة هذه الارض واصبح صالح اجيرا يعمل عندها ..

واشار عليها صالح بان يحول هذه الارض الى بيارة. واستطاع ان يقنعها. ووجد الحفارون الماء بسهولة. وبسهولة ايضا استطاع صالح ان يغزو قلب والدتي من جديد. لقد كان اول رجل في حياتها. وهاهو يعود بعد ان خلا له الجو. وتزوجته .. ومرت اعوام كثيرة كبرت خلالها واخذت الاحظ ما يحيط بي .. كان قاسيا في معاملته لامي. كان لا يتعب من ضربها والاساءة اليها. وكانت تحب فيه ذلك. كان يضربها فتخر تحت اقدامه تقبلها. لا ليكف عن ضربها بل ليفعل ذلك. كانت تجد لذة كبيرة في ذلك. وعندما بلغت الثالثة عشرة من عمري شعرت بتلك اللذة تجري في اوصالي عندما اشبعني زوج امي ضربا. لا ادري الاني شعرت باكتمال انوثتي، ام لانه وضعني الى صف واحد في المعاملة مع امي، زوجته.

وماتت امي .. قتلها اليهود. تركت لي البيارة وتركت في قلب صالح الحقد على اليهود. لم يستطع ان ينسى اختطاف زوجته وذبحها. لقد قتل العرب الكثيرون من اليهود في تلك السنة ولكن صالح اصر على الانتقام لزوجته. ولم يكن انتقاما فقط. لقد كان اعظم من ذلك بكثير. عشر سنوات قضاها في محاربتهم لا يهمه اكان السلم مخيما ام الحرب. كل ما يهمه ان ينقص عدد اليهود. وكم من مرة انتحل شخصيات يهودية .. كان يقتلها .. وكم من مرة حكم عليه بالاعدام. ولكن اين هو. لم تستطع السلطات معرفة مكانه. وعشت فترة طويلة من عمري وحيدة. كنت انتقد صالح فاتذكر والدتي. لقد ذهبت لتتركني وحيدة واصبح شباب قريتي يطمعون في الزواج مني. لست ادري اكان جمالي هو الباعث على اقبالهم. ام هي البيارة التي ورثتها. ووقف صالح في طريق الجميع. لا احد يستطيع ان يتزوج مني. كانوا يخافونه. ولكني كنت راغبة في الزواج. وحملني صالح الى البيارة. كنت قد كبرت وكان الاضراب قد بدأ. وعمت الثورة البلاد. وفي البيارة عشت مع صالح سنتين كاملتين. كنت اشعر وانا الى جواره بسعادة فائقة. وكنت ارجوه ان يعاملني كما كان يعامل والدتي من قبل. بقسوة ، التي تعتبرها لذة وفعل ما طلبته منه .. بل واكثر .. اصبحت له في كل شيء كان يقول في بعض الاحيان وهو يضحك من نفسه :

- خولة .. انني لا ادري من انت حقا .. قد تكونين ابنتي. لقد وصلت الى امك قبل ان يصل اليها صديقي ..

كلما تذكرت علاقتي به كنت اخاف من الله ، من نفسي، من الناس. ولكن ما ان اراه الى جواي حتى اسارع بالارتماء تحت اقدامه ، هو حياتي. لاخوف وهو الى جواري. لم يعد يهمني كونه زوج امي .. بل ولو كان ابي حقا. لقد سبق السيف العدل. ولا استطيع كبح جماح نفسي. ومنذ ثلاثة اشهر اختطف ثلاثة من اعيان مستعمرة ملبس ثلاثة معا. وثارة ثائرة رئيس المستعمرة. لقد كان يخشى ان يصيبه ما اصاب زملائه. فاعلن عن مبلغ ضخم كجائزة كبيرة لمن يحضر له صالح حيا. لقد كانوا يلقبونه الموت لانهم كانوا يعتبرونه وسيلة عزرائيل للوصول اليهم. ومنذ تلك الفترة والمطاردات بين اليهود وصالح على اشدها. اضطر ان يستوطن تلك الشجرة التي كان قد هيئها منذ سنين. وكذلك هذا الخندق. كان دائما يزرع

اشجار اليقطين حوله . وفي ايام الشتاء كنا نلجأ الى البئر نختفي فيه. وكم من مرة وقعنا معا في ايدي اليهود . يكونوا اثنين في معظم الاحيان . ورغم مسدساتهم وبنادقهم فلم يكن باستطاعتهم ان يجبروا صالح على السير . كان يعلم ان شرط الحصول على الجائزة هو ان يسلموه حيا . ولذلك كان لا يتزحزح من مكانه . والتفت فؤاد الى الدكتور ثم هز رأسه وقال :

- واستطردت خولة في كلامها فقالت لي :

- ثم كان يوم قدومك . يوم ان هجم صالح على احدهم وقمت انت بقتل الاخر . لم يكن هذا ينوي قتل صالح فهم لا يهمهم موته بقدر ما تهمهم الجائزة . واطلق الاخر عليك النار فاصابك واستغل صالح تلك الفترة فانقض عليه وخلص من مسدسه وكتم انفاسه . اما انت فقد تركناك .. اتدري لماذا؟ كنا نحسبك يهوديا . جئت لتحصل على الجائزة بقبضك على صالح .. واليوم فقط تنازل بعض اليهود عن الجائزة .

طلبوا منه ان يسير معهم فرفض .. رأيت الشر يتطاير من عيونهم . هربت ولم يعرني احد انتباها .. كل ما يهمهم هو ان يحصلوا على صالح . وهرب يريد اللحاق بي . فقتلوه .. قتلوه ورأيته يجثم على الارض .. لقد انتهى البطل .. لقد انتهى كل شيء في حياتي بانتهائه ..

وعادت خولة الى البكاء . وارتفع نشيجها ولم استطع ان امنعها .. بل لم اكن اريد ذلك . كان عليها ان تبكي وبدات افكر في تلك المرأة . لقد عاشت حياة مليئة بالمصائب . تقترب عن الاساطير . انها لا تدري اكانت تعاشر والدها معاشرة الازواج . وان لم يكن والدها فلقد كان زوج والدتها . وهو محرم عليها . ولكنها ضربت بالقوانين السماوية عرض الحائط . واصبح سلطان جسدها اقوى من سلطان الله وقلت لها وقد هدأت قليلا :

- خولة .. هل ستبقين هنا ؟.. والى متى؟

- انك لا تستطيع ان تخرج من هنا قبل ان تشفى ..

- وهل ستطول المدة ؟..

- قريبا بأذن الله . سوف احضر لك ما تريده من طعام وشراب .. وسأبقى الى جوارك .. لم يبقى لي في هذا الكون احد غيرك ..

ونظرت اليها .. عجبت من امرها .. منذ لحظات كانت تحدثني عن صالح . لم يكن يملأ حياتها غيره . وقبل ان تبدأ حديثها كانت قبلتها لا تزال تبعث في شفتي مزيدا من اللذة والالم . لقد ازعجني انني اقبلها بعد ان مات صالح بساعة ..

وفجأة حدقت في وجهي وقالت :

- انت .. لا اعرف ما اسمك ..

وتذكرت انني لم اذكر لها اسمي .. وصالح مات دون ان يعرف لي اسما .. فقلت لها :

- اسمي فؤاد ..

- فؤاد .. فؤاد ..

كانت تلفظ اسمي بطريقة تكسبه روعة وتبعث في نفسي شعورا بالسعادة. واقترب وجهها وطبعت على جبهتي قبلة ثم هبت واقفة وهي تقول :

- لابد ان احضر لك طعاما . انني اريدك ان تستعيد صحتك ..

فقلت لها ضاحكا ..

- ولكنني لن اضربك .. ان يدي لا تطاوعني ..

فنظرت الي .. عرفت انني قد فهمتها .. وابتسمت كان لم يحصل شيء . كأن لم يمت رجلها منذ قليل. وعادت تستلقي الى جواري . والابتسامة مرتسمة على وجهها . وخيل الي ان الحياة تبتسم لي . فهي اذا ارادت ان تبتسم لرجل فانها ترسم ابتسامتها على وجه امرأة . وهذه خولة الى جواري والابتسامة تشع من وجهها . الذي اخذ يقترب من وجهي رويدا رويدا ثم كانت قبلتها الثانية .. تركتني بعدها وذهبت لتحضر لي طعاما

(49)

كان البرد قارصا تلك الليلة، ولم يكن باستطاعتي رؤية القمر، فقد كانت اوراق اليقطينة كثيفة فوق رأسي وكانت خولة تطوق جسدها بجسدي وهي تضمني كأنما لتبعث حرارة تذيب ذلك البرد القارص. وطلعت الشمس، عرفت ذلك من الانوار التي انبعثت. ولكنني اكتشفت ان السماء ملبدة بالغيوم. فقد بدأ المطر ينهمر، واخذ ينزل الينا والمياه ترتفع في قعر الحفرة رويدا رويدا . كنت اخشى ذلك. لم يعد بامكاني ان انام .. حتى الوقوف في الحفرة اصبح متعبا والبرد يعتصر اقدامنا المبتلة. وخرجت خولة من الحفرة. مدت يديها لي لتساعدني على الخروج. واستطعت بصعوبة ان اخرج. وكان علينا ان نجد مكانا يقينا شر المطر والبرد. وسألتها عما اذا كان لديها فكرة عن ذلك المكان. فاقبلت الي تساعدني. واخذنا نمشي حتى اصبحنا الى جوار الشجرة الكبيرة التي نلاصقها شجرة السرو. كانت قطرات المطر تتساقط في بعض المناطق بينما استطاعت كثافة اوراق الشجرة ان تمنع نزول أي قطرة في مناطق اخرى. واخذ البرد يتسلل الى اطرافي ويجمدها . كنت تواقا الى الحركة لتبعث في جسمي الدفء. ولكن التعب والا لم جعلاني اختار ذلك البرد . وهدأت السماء قليلا وكفت عن اغراق البشر. واخذت خولة تسندني اليها وتسير بي على غير هدى. سألتها عن وجهة حركتنا فاجابتني باننا سنذهب الى القرية ..

فسألتها مستغربا :

- الى القرية ..

- اجل ..

- هل انت جادة في قولك ؟..

- ولم لا ..

- واين سنقيم ؟..

- في بيتنا .. الا تعلم انه لنا بيتا هناك ..

- لكم بيت في القرية ..

- لا ترهق نفسك. هيا ولا تتكلم ..

وسكت، واخذنا نسير وبدأ الخوف يجد طريقه الى قلبي عندما خرجنا من تحت الاشجار واصبحنا نسير في الارض الجرداء. كانت القرية على مقربة منا. ولكنها كانت خائفة من ان يرانا بعض اليهود فتكون بذلك نهايتنا. ووقع ما كنت اخشاه. لم ادر كيف احاط بنا خمسة من راكبي الخيل الانجليز. كانوا يقومون بداورية. ووجدت نفسي وجها لوجه امام واقع مرير .. لقد وقعت .. وساقوني وخولة امامهم. مشينا .. ولما سقطت مغشيا علي من التعب وجدت نفسي بين اربع جدران. لم ادر كيف وصلت .. ويخيل الي ان احد الجنود قد حملني خلفه. ووقفت بصعوبة واخذت انظر من خلال فتحة صغيرة في الباب. رأيت حارسا يغدو ويروح عرفت انني في سجن. وان زنزانتي هذه هي النهاية التي وصلت اليها .. واخذت اطرق الباب، واقبل نحوي رجل يصيح :

- ماذا تريد ؟..

- اخرجني من هنا ..

وارتفع صوته بالضحك .. وهو يقول :

- اسكت يا شاطر ..

واخذت ارجوه ان يفتح لي .. انني اريد ان ارى النور .. ولم يستجب لي .. وتذكرت خولة فسألته عنها فقال :

- لا يوجد في هذا السجن غير الرجال ..

فقلت له :

- اين انا ؟..

- في سجن اللد ..

واخذت اتمتم وقد انهارت قوتي وسقطت في ارض الزنزانة ..

في سجن .. اللد .. يا فؤاد . ومن يدخل السجن لا يخرج منه حيا في هذه الايام .. خصوصا اذا كان ثائرا ..

وفي السجن رأيت الاهوال الكثيرة . التعذيب والاهانات تتساقط كاوراق الخريف .. والحقد الكامن في نفوسهم يتصبب كانه ماء المطر. وخرجت من السجن بعد ستة شهور طويلة .. خرجت لا لارى النور بل لتضمني ظلمة الموت . كانت السيارة التي تحملني مغلقة .. يقودها سائق يهودي ويحرسها اثنان احدهما يهودي يحمل مدفعا رشاشا صوب الى صدري والاخر بوليس عربي لا يحمل شيئا . حتى الهراوة التي اعتاد الانجليز ان يسمحوا للبوليس العربي حملها حرم حارسي منها . واخذت السيارة تسير في طريقها الى .. الى اين .. لا ادري . ولما سألت العربي اراد ان يكلمني فنهره اليهودي زميله . طلب منه عدم الكلام ولكنه لم يعبأ به وقال :

- انت ذاهب الى سجن عكا ..

واخذت اتمتم بآيات من القرآن الكريم حفظتها منذ الطفولة . ثم ارتفع همسي رويدا رويدا وانا اردد :

- الى سجن عكا .. عكا .. اذن لقد انتهيت اخيرا يا فؤاد ..

ثم سكت لحظة .. لم اعد اخاطب نفسي بل ارفع صوتي كأني اخاطب الحراس وقلت :

- ولماذا لا يعدموني في سجن اللد ؟.. اليس لديهم حبل هناك ؟.. اليست لديهم رصاصة يطلقونها علي .. الا يحلوا لهم الاعدام الا في عكا ؟..

واراد اليهودي ان يمنعني من الكلام فصحت به :

- وانت ايها الوغد هل ستخيفني . انني محكوم علي بالموت ولن تستطيع أي قوة ان تجبرني على السكوت . اذا اردت ان تنفذ بي حكم الاعدام فهذا خير لي . ان الموت بالرصاص اسهل من ذلك الحبل البغيض . والتقت عيناي بعيني الحارس العربي .. واخذ يغض على شفته السفلى يطلب مني ان اسكت . وسكت ، واسرعت السيارة في طريقها الى عكا والمدفع لا يزال مصوبا الى صدري .. وتحول عن صدري فجأة، بل انتقل بكامله من يد الحارس اليهودي الى يد الحارس العربي الذي فاجئه واختطفه منه ، وصاح اليهودي ولكن اصوات الرصاص كانت اسرع واعلى من صوت صياحه. وتوقفت السيارة فجأة . ونزل السائق ليسأل عما حدث فوجد الموت بانتظاره ..

واخذت احدق في وجه البوليس العربي الذي انقذني. كنت اريد ان اشكره .. ولكنني لم استطع ان اقدم له غير ابتسامة عريضة تنم عن الشكر والامتنان ..

كانت ملامح وجهه جامدة .. اخذ يفتش في جيوب اليهودي فاخرج مفتاحا صغيرا فك به قيدي وقال لي :

- هيا بنا .. انت حر الان .. يجب ان نهرب سويا الى سوريا ..

لم يكن من الصعوبة ان نصل الى حدود سوريا . حيث كانت الثورة قد انتهت والحرب العالمية تجمد نشاط الانجليز في غير مجالها. ولكن الذي لم نكن نتوقعه هو وقوعنا في يد الفرنسيين. ووقعنا فعلا في ايديهم في نفس اليوم الذي سقطت فيه باريس تحت اقدام هتلر. والاهوال التي لقيناها تنم عن انهم ملئوا غيظا وسحقتهم الذلة فارادوا ان يطلقوا غيظهم فينا ويثبتوا ان هناك من هو اذل منهم باذلالنا .

الفرنسيون والانجليز .. شتان بين الاثنين .. الانجليز كانوا يعذبونا ولكنهم كانوا يكتفون بدور المتفرج على التعذيب، على يد بعض الجنود السنغال او بعض العرب المأجورين. اما الفرنسيين فانهم لا يتركون لغيرهم فرصة التلذذ بالام الغير . وان كانت طريقة الانجليز في التعذيب اشد بكثير من طريقة الفرنسيين، حيث انهم ببرودهم القاتل ونظراتهم الباردة وقد عقدت اياديهم على صدورهم وانكفأت اضهرهم على الحائط يشعرون الضحية بانها اقل من ان تستحق ان تمتد يدهم اليها . ومع ذلك فطريقتهم اكثر تهذيبا من طريقة الفرنسيين الوحوش ..

وبعد ان اكتفى هؤلاء من تعذيبنا تركونا ونحن اقرب الى الموت منا الى الحياة .. القوا بنا في سيارة جيب اتخذت طريقها لتسلمنا الى السلطات البريطانية في فلسطين. لم نكن نخشى مما يدور حولنا ومر زمن لا استطيع تقديره .. وعندما فتحت عيني .. شعرت بآلام تبعث في جميع اجزاء جسمي. اخذت اتلفت حولي .. لم ارى شيئا فقد كان الظلام يسود المكان .. وامتدت يدي تمتد وتتلمس علها تصطدم بجسد صاحبي، ولكنني لم المسه .. بل اكتشفت انني استلقي على سرير . وشعرت بارتياح تام. واخذت اسأل .. سرير .. وضعوني على سرير . ولابد انهم وضعوا صاحبي كذلك. لابد انه امر جيد .. وهل من المستبعد ان افتح عيني فاجد نفسي في احد بيوت العرب . في الامان. فنظرت علي ان ارى شيئا ولكن الظلام كان دامسا. وعبر السكون سمعت اصواتا عرفت حقيقتها . ووصفت وضعي . انني كنت في حلم اذ قيل لي انني نجوت ان هذه الاصوات الانجليزية التي اسمعها ليس سوى اصوات الحراس الذين سينقلوني وصاحبي الى سجن عكا حيث الموت المحتم . ولم استطع ان اطرد فكرة الموت التي استولت على فكري. اخذت استعرض الميتات التي شاهدتها والتي تقشعر نفسي من مجرد التفكير بها . وفجأة ضحكت وانا اقول لنفسي :

- ما دمت حيا فان اقذر الميتات قد تكون من نصيبك. حقا .. قد تكون اقذر الميتات من نصيبي. ان شر ما في هذا الكون اننا سنموت .. ومع هذا فان خير ما في هذا الكون اننا نموت مرة واحدة وارتفع صوتي وانا اردد مرة واحدة. مرة واحدة .. لتأت هذه المرة لنرى ماذا يخبئ لنا القدر في العالم الآخر..

حاولت ان انام ولكن عبثا .. لقد اصبحت فريسة القلق المر.. وارتفعت آهات واصوات انين فعرفت ان صاحبي يقيم معي . وحاولت التوجه اليه ولكن التعب الشديد جعلني استقر في مكاني. واخذت ابحلق في سقف الغرفة الذي اخذت اتبينه شيئا فشيئا. حيث ان عيناي اعتادت على الظلام .. دارت في مخيلتي صور الذكريات يوم كنت في حيفا لا امل من العمل. وتذكرت الايام التي قضيتها في سلمة . كانت اياما جميلة رغم ما صاحبها من توتر واحزان.

وسكت فؤاد .. وطال به السكوت ثم هب واقفا في الغرفة واخذ يروح ويغدو وقد ملأت رأسه الافكار لقد ذكر سلمة فتذكر منى .. منى تلك الانسانة التي سعت اليه في الليل واعترفت له بحبها .. تلك التي جعلته يبقى في فلسطين وان لا يذهب الى بيروت ليلاقي عروسه .. وهز رأسه ثم عاد يجلس الى جوار الدكتور وهو

يقول:

- وتذكرتك يا دكتور وتذكرت الشيخ والدك.. كم كنت اتلذذ بالاستماع الى آخر ما كتبه عن التشريع. تذكرتكم جميعا. حتى الصغيرة سعاد التي كانت لا تمل من طلب الهدايا .. وكم ضحكت ليلتها رغم الالم الشديد وانا اتذكرها وهي تقول لي:

- عمي فؤاد .. ما دمت لا تدفع ثمن هذه اللعب التي تحضرها .. فلماذا لا تحضر الكثير منها. ان ابناء العرب احق باللعب فيها من ابناء اليهود ..

يالسعاد لابد انها اصبحت شيئا آخر الان .. شيئا يدير الرؤوس ..

وهز الدكتور رأسه موافقا ثم انطلق فؤاد في حديثه فقال:

- ولم تتوقف افكاري الهائمة الا مع طلوع الشمس، عندما دخل ضابط الى الغرفة واخذ يتفرس في وجهي وهو يرد علي تحية الصباح. ونظر القائد الى الجندي الذي يلازمه وطلب منه ان ينصرف. وسحب كرسيا وجلس الى جواري واخت كفه تتحسس. وجهي بينما كانت عيناي تتفحصان وجهه واختلاجاته بخبث. من هذا الانسان الذي يعاملني برفق .. انه اول عدو قابلته من هذا النوع .. قال لي وهو بتسم:

- لعن الله الفرنسيين .. انهم ليسوا بشر ..

ونظرت اليه مستغربا .. ماذا يقول هذا الرجل .. اهو مجنون .. واستطرد:

- الحمد لله انهم لم يقضوا عليكم ..

وشعرت بكراهية تتوقد من صدري .. آه لو كان بامكاني ان اقتل هذا الرجل .. انه يشكر الله انه استلمنا احياء ليقوم هو بقتلنا .. او بارسالنا لنعدم عكا .. وشعرت ان الدماء تحتقن في وجهي واحسست بوجنتي تكاد ان تنفجر .. وعاد الرجل الى الكلام فقال:

- لا تلومهم .. لقد خسروا كل شيء .. لقد سقطت باريس في يد هتلر ..

ولم ادر كيف انطلق لساني يردد:

- وغدا ستسقط لندن ..

ونظر الي الرجل وابتسم وقال:

- لا تقل هكذا .. ان ابي وامي هناك ..

- ان ابي وامي قتلهم الانجليز ..

فقال وهو يربت على كتفي:

- انني اعذرك .. انك متعب الآن وسأتركك تستريح. وقام من جواري ونادى على احد الجنود وطلب منه ان يحضر طعاما لي ولصاحبي ..

وجاء الطعام بعد قليل. وكان صاحبي لا يزال مستغرقا في النوم او في غيبوبة لست ادري. ولكنه فتح عينيه وبمساعدة احد الجنود بدأ ياكل طعامه. فنظرت الى الطعام .. وابتسمت. لست ادري لماذا شعرت برغبة في الضحك. فضحكت ونظر الي صاحبي مستغربا فقلت له:

- كل يا عزيزي .. كل .. الا ترى كمية الطعام التي احضروها لك .. ونوعيتها .. لو كنت ضيفا عزيزا على

والدتك لما قدمت لك خيرا من هذا ..

كان الطعام فعلا يثير الشك في نفسي. لماذا كل هذا الطعام.. وما الذي جعلهم يختارون هذه الفراخ السمينة ليقدومها لنا. انهم يريدونا ان نستعيد صحتنا لنستطيع الوقوف على اقدامنا. وبعد ذلك.. هل يعيدون مأساة تعذيبنا ام يحيطون اعناقنا بحبل المشنقة. سيان عندي. ان الطعام امامي ويجب ان آكل منه حتى اشبع. واكلت ولم اترك شيئا ..

وعند الظهر كنت قد استطعت الوقوف على قدمي والوصول الى سرير صاحبي. كان لا يزال متعبا فهو لم يعتد على التعذيب مثلي. واقبل الضابط فوقفت مرحبا به. كنت اشعر انني اقف امام جزار لا يحب ان يذبح الا الخراف السمينة. ولابد ان تكتسي باللحم قبل ان تقدم قربانا لآلهته.. قال وهو يبتسم:

- كيف الحال:

فقلت:

- الحمد لله ..

- وكيف حال صاحبك ؟..

- انه كما ترى.. لا يستطيع الكلام..

- سوف تتحسن حالته قريبا .. الدكتور في طريقه الى هنا ..

قلت مستغربا:

- دكتور..

- اجل دكتور..

ثم استطرد وهو يبتسم:

- وهل قي ذلك ما يثير الدهشة ؟..

فهززت رأسي وقلت له:

- اجل..

- ولماذا ؟..

- انني لا اتوقع حسن المعاملة من الاعداء ..

ونظر الي.. ياللبرود الذي يشع من عينيه ثم ابتسم وقال:

- اعداء.. ما الذي جعلك تحكم علي بانني عدوك ؟..

- وجودك هنا في بلدنا ووجودي هنا تحت رحمتك..

واطرق الضابط وقد تلاشت الابتسامة من على وجهه. ومرت فترة سكون ثم عاد ورفع رأسه ونظر الي.. لاحظت بريقا غريبا يشع من عينيه فيبعث في نفسي احساسا بالطمأنينة. كنت لا ازال واقفا.. وكان هو كذلك. فمد يده الي يساعدني للوصول الى سريري.. وعندما استلقيت على السرير جلس الى جواري وقال :

- هل تظنني راضي عن وجودي هنا . بعيدا عن وطني واهلي . انني لا ارى أي فائدة من وجودي بل ومن وجود الانجليز جميعا في هذه البلاد التي يسمونها المستعمرات .. كل ما نشعر به هو كراهية الشعوب التي نحكمها ونبذل الدماء في سبيل لا شيء ..

اسمع يا سيد .. وشعرت انه يود ان ينطق اسمي الذي لا يعرفه فقلت له :

- فؤاد ..

فقال :

- اسمع يا سيد فؤاد .. قبل كل شيء اريد ان اطمئنك انك وزميلك في امان ما دمتم تحت رعايتي ..

فقلت له :

- وما الذي يجعلك تفعل هكذا .. انك في نظر الانجليز خائنا ..

فهز رأسه وابتسم وقال :

- المهم ان لا اكون خائنا في نظر نفسي . انا انسان قبل ان اكون انجليزيا .. انا انسان .. وانت انسان كذلك. وللانسان حقوق على اخيه الانسان ..

فقلت وقد تملكني شعور بالرغبة الى السماع الى حديثه :

- انك يا سيدي غريب الاطوار .. اول انسان اقابله في حياتي. انا ايضا انسان .. ولكني لا اعامل اعدائي برفق :

فقال :

- انك على حق .. حتى في قسوتك على اعدائك . قد تعتبرني عدوك .. وهذا من حقك ولكن ليس من حقي ان اعتبرك عدوي .. من حقك ان ترفع في وجهي السلاح وليس من حقي ان ادافع عن نفسي .. لانه ليس من حقي ان اكون هنا ..

وخرجت من صدري آهة عميقة ارتاح لها جسدي كله وقلت :

- آه .. لو كان العالم كله على شاكلتك . لكان العالم في سعادة ..

وادنى الرجل وجهه من وجهي واخذ يهمس في اذني :

- اسمع يا فؤاد .. آسف .. لقد انطلقت الكلمة بسرعة .. ارجوا المعذرة ..

ثم سكت لحظة واستطرد :

- الى أي مكان تود الذهاب انت وصديقك .. اني على استعداد لخدمتكما ..

- هل تعني ما تقوله يا سيدي ..

- اجل يا عزيزي ..

- ولكننا في حالة لا تسمح لنا بالرحيل ..

- بعد ان تتحسن صحتكما ..

فخيل الي ان لبنان هي انسب مكان ..

ومرت ايام عشتها مع هذا الضابط الانجليزي وفي كل يوم يزداد فيه الموت ابتعادا عن مخيلتي „ لقد اسات اليه، وبدا مجرد التفكير انني سافارقه يضايقني، كم تمنيت لو انه عربي ..

وتحسنت صحة زميلي .. وحملتنا سيارة الضابط الى حدود لبنان وقبل ان يودعني الضابط ناولني بطاقة كتب عليها اسمه وعنوانه في انجلترا .. وقال لي .. انه اذا ما قدر له ان يعيش فلن يرضى بغير بلاده مكانا ..

ولم نلق من السلطات الفرنسية في لبنان ما لقيناه في سوريا فلقد كانت دمشق معقل الثوار وكل من يتوجه الى هناك يعتبر ثائرا ..

ولم نمكث في لبنان كثيرا .. كان صاحبي قد قرر السفر الى اميركا الجنوبية .. قال انه له قريبا في الارجنتين وسيلحق به .. ووجدت رغبة في السفر معه لماذا لا اجرب حظي هناك .. وعندما اجد الفرصة مناسبة للعودة الى بلادي فساجد طريقي اليها ..

ومرت السنون بسرعة وانتهت الحرب . وخيم على العالم صمت رهيب. وكنت في الارجنتين لا اشعر بما يدور. ومع ذلك فقد كان اصوات الذكريات تفاجئني احيانا لتعيش معي بعض الوقت .. وصادف زميلي نجاحا في تجارته اما انا فلم اكن قد خلقت لمثل هذا العمل .. ووجدت رغبة شديدة في العودة الى الوطن. تذكرت سهوله وجباله واخواني هناك .. ومرت السنون التي عشتها في فلسطين امام عيني .. ولما وصلت الى النهاية تذكرت شيئا فشيئا .. ووقفت واتجهت الى حقيبتي واخت ابحث عن الاوراق حتى وجدت ورقة صغيرة مكتوب عليها جون بيتر وتحته عنوانه .. ذلك الضابط الانجليزي .. بل الضابط الانسان .. يجب ان ابعث اليه برسالة .. ولكني لم اكن متأكدا من وجوده في بلاده ولم يطل بي التفكير بالامر.. كتبت الرسالة وكلي امل ان تصل اليه فان لم يكن في بلاده فان ذويه لابد وان يرسلوها اليه في أي مكان. ووصلتني رسالته .. ودفعني رؤية طابع البريد الى فتحها بسرعة .. لقد كانت قادمة من وطني .. من فلسطين . ووجدت الرجل يدعوني الى الحضور .. قال لي ان بلادي في حاجة الي .. والى جميع الشباب امثالي .. انها تستهدف لخطر ماحق ..

ولم ارد على رسالته .. ذهبت اليه بنفسي .. وفي معسكر بيت نبالا .. قابلني الرجل .. الرجل الوحيد في العالم الذي استطيع ان اسميه انسانا .. قلت له :

- مستر جون .. لقد قلت لي منذ سنوات انك لن تقيم في غير وطنك ..

فالقى غليونه الذي كان يحشوه تبغا من يده، ونظر الي ثم ابتسم وقال :

- جربت ذلك .. ولكنني لم اجد في وطني أي بارق يشعرني بالسعادة .. لم اجد قضية عادلة اقدمها فقدمت الى هنا ..

- وهل انت راضي عن وجودك هنا ؟..

- بعض الشيء ..

- مستر جون .. يسعدني ان اكون الى جوارك ..

- وانا كذلك .. لقد قررت ان اجد لك عملا هنا .. في المعسكر ..

- حقا ..

- اجل .. ان هذا جزء من القضية التي اخدمها ..

- ماذا تعني ؟..

- هل تدري ما هو عملي هنا ..

- لا

- انني مسؤول عن جميع مخازن الاسلحة .. لقد جئت خلفا لزميل احيل على التقاعد .. وعندما تسلمت المخازن كانت خاوية ليس فيها اسلحة .. اتدري اين ذهبت .. لقد اخذها اليهود .. سرقوها .. بل اعطيت لهم ..

- وماذا كان موقف زميلك ؟..

- حوكم .. واثبتت الصهاينة براءته .. بل وجعلوا منه مليونيرا .

- وانت .. والمخازن .. الا تزال خاوية ..

- طبعا لا . لقد عوضت الحكومة النقص ..

- وهل كف اليهود عن السرقة ..

- لم يكفوا عن المحاولات .. ليس للسرقة فحسب .. بل والتخلص مني ..

- هذا امر مزعج ..

- لا تخف .. ان الحق لا ينقهر ..

- ماذا استطيع ان افعل ؟..

- الاسلحة .. يجب ان تسرق ..

- تسرق ..

- اجل .. يجب ان تنتقل الى العرب ..

- وانت ماذا يكون موقفك ..

- لا يهمك هذا .. ساتهم اليهود ..

- ومن الذي سيصدقك ؟..

- ساترك لليهود فرصة الحصول على بعض الاسلحة وساتهمهم بالحصول على اضعاف كمية ما اخذوه . بعد ان تكون انت قد حصلت على الاسلحة المسروقة ..

- وماذا سافعل بها .. اين ساذهب بها ؟..

- في الوقت الحاضر .. يجب ان تخفيها حتى يحين الوقت المناسب .. ولا تنسى ان الوقت قريب .. قريب جدا ..

- ولكن .. اين ساخفيها ؟..

- هذا ما اريد منك تدبيره ..

ومر شهر وانا عمل مع جون بهدف ان اصل الى حل الى المشكلة .. اين ساذهب بالاسلحة .. لا ادري وتعرفت على احد ابطال الثورة وعرضت عليه الفكرة فطار من الفرح وحلت المشكلة .. كانت له بياة فرب بيت نبالا .. واستطعنا ان نخفي في البئر الارتوازي كمية من الاسلحة وجئت ببعضها الى هنا .. لم يكن ما اخذناه من اسلحة يستحق الثورة التي ثارت من اجله .. ولا النتيجة التي وصل اليها جون المسكين لقد اتهم اليهود بسرقة الاسلحة .. وثبتت التهمة عليهم من الناحية القانونية .. فثارت ثورتهم .. وفي اليوم التالي وجد جون مصلوبا على جذع شجرة .. وهكذا كانت نهاية ذلك الانسان .. نهاية مشرفة .. تماما كنهاية المسيح عليه السلام الذي ما جاء الا ليخلص الانسانية من الظلم والظالمين ..

(50)

والآن لنعد الى الموضوع المهم .. الاسلحة .

- اجل .. الاسلحة .. متى سنحصل عليها ؟..

- لدي بعض منها الآن ..

- أحقا .. والأن!

- انني آسف لعدم وجود ذخيرة كافية .. اما البنادق فموجودة .. لدي سبعة بنادق وحوالي مئة طلقة ..

- هذا بديع .. بديع جدا ..

وهجم الدكتور على فؤاد يقبله .. ووقف فؤاد وطلب من عثمان ان يتبعه ففعل .. ودخل الاثنان بعد قليل وبين يديهما صندوقا كبيرا ففتحه فؤاد ..فاذا بالبنادق لامعة .. كانها لم تمس .. وفرح الدكتور وكذلك عثمان .. واخذا يقلبان البنادق .. وكان عثمان يبتسم وهو يعبث باحد البنادق .. لم يمض غير يومين على تعليمه كيفية استعمالها .. ولو حملها قبل ذلك الوقت لما عرف كيف يحرك (المكانزمة) .. وقال فؤاد :

- هل لديكم من يستطيع تدريب الشباب ؟..

فاجابه الدكتور :

- لدينا الرجال الذين حاربوا في ثورة 36 وكذلك انا استطيع ان ادرب الرجال .. وعثمان ايضا تدرب على جميع انواع الاسلحة ..

- هذا شيء يسعد القلب .. اما عن الاسلحة الاخرى فانا على استعداد لان ازود القرية بما تشاء ولكن .. هل من الممكن اعارتي سيارتك يا دكتور ..

- سيارتي .. لماذا ؟..

- كي احضر فيها الاسلحة .. عشرون بندقية وثلاثة مدافع رشاشة (برن) ومئة قنبلة يدوية .. كل هذه يمكن ان احصل عليها الليلة لو اعرتني سيارتك .. واعرتني عثمان ايضا ..

واتجه الدكتور الى عثمان الذي قال :

- ومن اين ستحصل على هذه الاسلحة ..

- ما لكم وهذا .. هل ستوافقون ..

فاجابه الدكتور :

- اجل يا فؤاد لكن اليس من الممكن ان تخبرنا عما نحن مقدمون عليه ..

- معك حق في هذا .. ساسرق الاسلحة من معسكر بيت نبالا .. بل سرقتها بالفعل منذ مدة .. ولكني بحاجة الى من ينقلها الى هنا ..

- واين الاسلحة الآن ؟..

- في مكان آمن قرب بيت نبالا ..

- وكيف سرقت كل هذه الكمية ؟..

- لم اسرقها مرة واحدة .. طبعا .. لقد اخبرتك عن عملي ومركزي في المعسكر .. وعن عمل المنطقة التي أرأسها لقد ساعدني الآخرون .

- اذن ساذهب معك انا .. لان عثمان لا يحسن القيادة ..

- كما ترى .. ولا بأس من ان يحضر عثمان معنا ايضا ..

- ومتى سنذهب لاحضارها ؟..

- غدا .. بعد منتصف الليل ..

- ولماذا بعد منتصف الليل الا يمكن ان يتم ذلك في هذا الوقت ..

- لا اظن ..

- وسنأخذ هذه البنادق السبعة الآن اليس كذلك ؟..

- خذوها .. السيارة تحت اليس كذلك ؟..

- اجل ..

واتجه فؤاد خارج الغرفة واحضر لحافا وحبلا طويلا ولف الصندوق باللحاف واحكم وثاقه ثم حمله بمساعدة عثمان والقياه في السيارة ..

فرح اهالي سلمة بالسلاح الجديد الذي سيحمون به بلدتهم .. وفي نفس الليلة تطوع سبعة رجال للسهر في الخنادق ناسيين التعب الذي هم فيه نتيجة عملهم المتواصل ..

وكان لوصول دفعة السلاح الثانية اكبر الاثر في رفع همم الشباب والشيوخ وجميع اهالي القرية واخذوا ينظرون الى الدكتور نظرتهم الى الزعيم المنقذ المخلص خصوصا وانه اخبرهم ان هذه الاسلحة قدمت للبلدة مجانا .. من انسان يعز هذه القرية ويخاف عليها . وأبى ان يذكر اسمه . لئلا يكون في ذلك خطر عليه .. ولقد ظن الجميع ان هذا الرجل الذي يضحي في سبيل القرية لا بد وان يكون الدكتور حسين نفسه
لقد ضحى باضعاف ما ضحى به اليوم حين ترك مزرعته للناس يستوطنوها ليحمي القرية من اليهود .
اما عثمان .. فهو الشخص الوحيد الذي كان يعلم من هو الذي يضحي في سبيل القرية . وخطر في ذهنه ان فؤاد لا يضحي الا في سبيل الوصول الى سعاد .. ولكنه طرد هذه الفكرة حيث ان سعاد لا تعرف شيئا عن الموضوع ..

* * *

اتجه عثمان الى بيت الدكتور وفي نيته ان يصارح سعاد بحبه لها . واخذ يعد الكلمات التي سيقولها .. ووجد صورة فؤاد ترتسم امام عينيه وابتسامة وجهه الوسيم وشعره الذي تخلله الشيب يزيده وقارا . فاغمض عينيه واسرع في نقل خطواته ..

لم يكن الدكتور موجودا في البيت .. وعثمان كان يعلم ذلك .. والا لماذا خطر بباله ان يصارح سعاد بحبه .. اتجه ناحية البيت فقابله مسعود ..

- اهلا استاذ عثمان ..

- اهلا مسعود.. اين الدكتور؟..

- لقد ذهب الى يافا .. وسيعود في المساء ..

واراد عثمان ان يعود ولكنه تذكر لماذا قد جاء .. فسأله :

- هل الانسة سعاد موجودة ..

- اجل ..

- اريد ان احادثها في امر .. هلا سمحت باخبارها ..

- حاضر..

واتجه مسعود الى الطابق العلوي ليخبر سعاد .. بينما اتجه عثمان الى غرفة الضيوف ..

دخلت سعاد وقد توردت وجنتاها حياءا . فهي اول مرة تختلي فيها مع شاب .. ووقفت الكلمات في حلقها ولكنها تشجعت وقالت :

- اهلا عثمان .. خيرا ان شاء الله ..

- خير يا سعاد .. انني اود ان اقول لك كلاما كثيرا ولا ادري كيف ابدأ ..

- قل ما تشاء انني مصغية اليك ..

- سعاد .. سعاد ..

فهزت رأسها وقد عرفت ما يقصده .. ثم قالت :

- نعم .. نعم

- ارجوك ان لا تغضبي اذا قلت لك انني ..

وجمدت الكلمة على لسانه ..

فاسرعت سعاد تتكلم باسمة :

- تحبني .. اتريد ان تقول هذا ؟..

- اجل .. اجل يا حبيبتي ..

- عثمان .. ثب الى عقلك .. كيف سمحت لنفسك ان تطلب مقابلتي لتقول لي هذا الكلام ..

- ما ذنبي يا سعاد .. ما ذنبي .. اذا كنت احبك ..

- وما ذنبي انا اذا كنت احب شخصا آخر .. لقد جئت متأخرا ..

- ماذا .. شخص آخر ..

- اجل يا سيدي .. شخصا آخر .. هل في ذلك عيب ؟..

- من .. من هو ؟..

- انه اعز صديق لديك .. الا تعرفه

- من يا سعاد .. من ؟.. يا الله قولي

- ابي .. اني احب ابي .. ايعجبك هذا ..

- اباك .. كل الفتيات يحببن آبائهن وكذلك والدك يحبك ولكن حبي لك شيئا آخر ..

- تعبير جميل .. هذا الذي تقوله .. شيئا آخر .. وما تظن هذا الشيء .. عثمان .. انك لا تدي ماذا تفعل ..

- سعاد .. ما الذي لا يعجبك بي .. اجيبيني .. انني على استعداد لان اغير طريقة حياتي في سبيل ارضائك ..

- بصراحة يا سيد عثمان .. انا لا يعجبني كل هذا الكلام الذي تقوله .. وايضا لا يعجبني انك جئت الى هنا وسيعلم والدي طبعا .. فماذا ستقول له ؟..

- ارجوك .. سعاد .. انني ساطلب منه اعز شيء عنده .. ساطلب يدك ..

فاستغربت سعاد .. ووقفت غاضبة .. وقالت :

- عثمان .. ان والدي يحترمك .. ويحبك .. ولو تفوهت بكلمة مما قلت فانك ستفقد احترامه وحبه ..

- لماذا يا سعاد .. وهل اطلب شيئا محرما .. ساعديني بالله عليك .. ساعديني ..

- انني جد متأسفة لك يا عثمان .. ارجوا ان تنسى انك قابلتني .. عجبا تفكر بالزواج .. لقد كدت تسقط من عيني ..

- سعاد .. ماذا تقولين .. هل وصلت الى هذا الحد ..

- من ذا الذي يفكر بالزواج وتراب والده لا يزال رطبا .. انا متأسفة فان ذلك سيسبب الما لك ..

- سعاد .. سعاد

- مع السلامة يا عثمان .. ساقول لوالدي انك جئت تسأل عنه، فطلت منك البقاء لتشرب القهوة ..

وفتحت له الباب ليخرج .. ثم استطردت :

- وسيؤكد مسعود هذا .. فانسى كل شيء ..

* * *

شعرت سعاد باللطمة التي وجهتها الى وجه هذا الشاب الذي كان ذنبه انه احبها وصارحها بحبه . واخذت تلوم نفسها انها قابلته هذه المقابلة الجافة .. ولكن .. ماذا كان باستطاعتها ان تفعل .. اتقول له انها تحبه وهي لم تحبه يوما .. اتجامله وتتركه يتقدم لخطبتها .. لا .. ان ما قالته هو عين الصواب . بل واقل مما كان يجب ان تقوله له . لماذا يفكر هذا الشاب بالزواج في هذا الوقت العصيب .. ولقد قتل والده الذي لم تجف دمائه بعد .. ولم يأخذ بثأره بعد واتجهت الى مسعود وقالت له :

- مسعود ..

- نعم يا سيدتي ..

- عندما يحضر والدي اخبره ان عثمان جاء للسؤال عنه .. و قل له انني انا الذي طلبت منه ان يجلس

ريثما يشرب القهوة ..

- حاضر يا سيدتي ..

* * *

شعر عثمان بالصدمة التي حطمت قلبه . واللطمة التي ادمت وجهه. وتحسس وجهه براحته، وعادت صورة فؤاد ترقص في عينيه . انه هو .. هو الذي حطم قلبه . هو الذي صدمه .. هو الذي كانت تقصده سعاد . وكذبت عليه عندما قالت انها تحب والدها . انها تحب هذا الفؤاد .. ما الذي يعجبها فيه .. شبابه .. انه في الخامسة والثلاثين . انه يكبرها بخمسة عشر عاما . يا لها من مجنونة تحب رجل في عمر والدها .. ولكن كيف تحبه .. انها لم تره منذ احد عشر سنة . انها لا تتذكر شكله . لا تذكر غير اسمه . لقد كانت طفلة لا تعرف الحب عندما عرفته .. هل يكبر الحب مع الاطفال .. سعاد .. سعاد التي يحبها .. لقد جرحت شعوره اليوم .. لقد اهانته ..

وتذكر والده .. الذي مات منذ ايام .. يا له من مجنون .. كيف قال لها هذا الكلام .. اما كان الاحرى له ان ينتقم حتى يجف دم والده . ومتى سيجف دم والده ما دام هو لم يأخذ بثأره بعد . لقد كان متحمسا بعد مقتل والده . وهاهي حماسته تنفذ شيئا فشيئا .. لابد انها ستزول يوما .. لينتقم .. لينتقم الآن .. لن ينتظر بعد اليوم .. لن يترك سعاد تسخر منه .. سيريها كيف يستطيع ان يجفف دم والده .. وكيف يستطيع ان يثأر .. وكيف يستطيع ان يرغمها على حبه ..

واتجه عثمان الى بيته .. وتناول مسدسا كان قد اعطاه اياه علي جبر. واخذ ينظر الى الرصاصات التسعة التي سيودعها هذا المسدس قلب اعدائه . قلب من قتلوا والده .. الى اين سيذهب .. ومن اين يبدأ .. لقد قتل والده في البيارة .. ايذهب ليقتل احد اليهود في بيارتهم انتقاما .. ايذهب للبحث عن شلومو نفسه .. الذي قتل والده .. نعم .. هذا هو الحل الصواب ..

واتجه عثمان الى بيارتهم ومسدسه في جيبه، والحقد يرقص في عينيه . اخذ يمشي بين الاشجار على حذر حتى قارب السياج الذي يفصل بين بيارتهم وبيارة اليهود . واخرج مسدسه من جيبه واخذ ينظر اليه ثم عاد يضعه في جيبه ويكتم انفاسه . لقد سمع صوتا .. اثنان يتكلمان .. لابد ان شلومو احدهما .. فليبدأ به ثم ينقض على الاخر .. وحدق موجها عينيه ناحية الصوت .. ولكنه لم يرى شيئا .. وعاد الصوت يرتفع .. ولمح عثمان قبعة احد اليهود وانتقل الى ساق شجرة اخرى واخذ ينظر .. ماذا .. انهم ثلاثة .. ان لاحدهم شعرا طويلا .. ينزل من تحت قبعته .. وسمع صوتا نسائيا .. يصيح بهما ان يسرعا وخاف عثمان ان تفلت من يده الفرصة .. فاستدار بسرعة نحو شجرة الخروب الكبيرة واعتلاها ثم القى بنفسه في بيارة اليهود .. ولم يفكر في شيء .. اسرع وهو يصرخ فيهم كانه اسد جائع ..

وذهل اليهود من المباغتة فانهارت قواهم .. واخذوا يبكون من شدة الفزع .. وصاح عثمان :

- شلومو .. شلومو .. اين شلومو ؟..

واجابه احد اليهود وهو يرتجف :

- لا يا حبيبي .. لست انا شلومو ..

وصاح الآخر :

- لست انا ايضا ..

ونظر عثمان الى الفتاة التي كانت بينهم وقد علا وجهها صفرة الموت وقال :

- شلومو .. لقد قتل ابي .. ساقتلكم كلكم .. ثأرا لابي

واستعاد احد اليهود رشده واخذ يحاول ان يخرج مسدسه من جيبه .. ورآه عثمان فصاح به :

- انت ايها الفأر .. تريد ان تقتلني .. خذ

واطلق عليه الرصاص .. ثم اتجه الى الآخر وارداه قتيلا .. وانقطعت انفاس الفتاة وهي تراه يصوب مسدسه نحوها .. ولم تستطع ان تتفوه بكلمة ونظر اليها عثمان وصاح بها :

- هيا .. هيا اذهبي .. لن اقتلك .. فمن حسن حظك انك لست رجلا .. اذهبي واخبري جميع يهود رامات جان .. بانني ساعلن عليهم حربا شعواء .. ساسحقهم او يعيدوا الحياة الى ابي .. هيا اذهبي ..

ولم تصدق الفتاة انه لن يقتلها .. فتحاملت على ساقيها واطلقتهما للريح .. نسيت كل شيء نسيت ان في جيبها مسدس يمكنها ان تقتله به. نسيت كل شيء الا انها يمكنها ان تعيش اذا ما سارعت بالابتعاد عن هذا المكان ..

واسرع عثمان بالعودة الى القرية وقد امتلأ قلبه بالفرحة .. لقد انتقم .. يستطيع الان ان يقابل سعاد .. بكل فخر واعتزاز .. لقد قتل اثنين ووهب الحياة لثالثة ..

ولكن .. هل سيقرر اليهود الانتقام هم ايضا .. لابد وانهم سينتقمون ان آجلا او عاجلا .. ليذهب الى الدكتور ويخبره بما حصل ..

واتجه عثمان الى بيت الدكتور ثانية .. وسأل عنه فقال له مسعود :

- انه لم يحضر بعد ..

- اريد سعاد .. اريد ان اكلمها ..

- لا اظن انها تود ذلك يا سيدي ..

- انه امر مهم يا مسعود .. امر يهم القرية كلها ..

- كما تشاء .. ولكني لن اكذب سأقول لسيدي انك جئت لتقابل سعاد ..

- مسعود .. افهم ما ارمي اليه .. لقد قتلت اثنان من اليهود .. وسوف يهجم اليهود على القرية يجب ان نوزع الاسلحة على الشباب حتى يستعدوا ..

- ماذا تقول ؟.. هل صحيح انك قتلت يهوديين ؟..

- اجل يا مسعود .. اين سعاد ؟..

- سعاد .. سعاد .. لقد عثمان ..

وجاء صوتها من الطابق العلوي :

- ماذا يريد مني .. انني لست هنا ..

واسرع عثمان يصعد السلم المؤدي الى الطابق العلوي وقال :

- سعاد .. سعاد .. لقد بعثت فيّ كلماتك الحياة. لقد اثابتني الى رشدي .. لقد انتقمت .. الآن لقد قتلت اثنين من اليهود ..

- حقا .. سلمت يمينك ..

- استمعي الي .. ان اليهود لابد انهم سينتقمون من اهل القرية .. انهم لا يعلمون اننا نمتلك الاسلحة الكافية لتأديبهم .. اريد ان اجمع الشباب واوزع عليهم الاسلحة ليقفوا لاي عدوان بالمرصاد ..

- ولكن ابي ..

- لا يهم .. انه لن يغضب اذا عملنا على حماية القرية في غيابه ..

- احضر الشباب ..

وصاح عثمان :

- مسعود .. مسعود ..

- نعم .. يا سيدي

- اذهب الى الساحة العامة .. واطلب من الشباب ان يحضروا الى هنا .. ليدع كل انسان عمله ..

- امرك يا سيدي ..

واسرع عثمان الى الغرفة التي كانت توضع فيها الاسلحة في النهار لتوزع على الرجال في الليل .. وتناول مدفعا رشاشا ووضع في جيبه قنبلة .. واخذت سعاد تنظر اليه وكأنها لا تصدق انه كان معها منذ لحظة، وانها اهانته وانها الآن تحترمه. ولم تشاهد في عينيه البريق الذي شاهدته عندما جاء لمقابلتها قبل ساعتين. لقد تغير عثمان .. تغير فجأة .. انه شبح الموت الذي يخيم على كل شيء امام عينيه ..

واقبل الدكتور في تلك اللحظة وفوجئ بوجود عثمان وسعاد في غرفة الاسلحة .. فقال :

- عثمان .. ماذا تفعل هنا .. اين مسعود ؟..

- لقد ذهب لاستدعاء الشباب .. ان اليهود سيهجمون .. لابد ان نتخذ الاحتياطات ..

- ومن الذي قال انهم سيهجمون .. انهم يخافون النهار ..

- لقد قتلت اثنين من اليهود .. وكانت معهم فتاة لم اقتلها .. تركتها .. وقلت لها اننا سنحاربهم حتى الموت. ولابد انها وصلت رامات جان واخبرت اهلها بالخبر ..

- لا بأس يا عثمان .. جميل جدا ان تنتقم وتثأر .. هيا .. هيا بنا نخرج الاسلحة لنسلمها للشباب .. هل احضرت الذخيرة من عند صاحبك علي ..

- اجل انها عندي في البيت .. الفي طلقة وثلاثة الغام ..

- عال .. عال ..

واقبل الرجال بعد ذلك .. فاخبرهم الدكتور بما حصل واخذ يناولهم الاسلحة والذخيرة .. موزعا اياهم على الخنادق .. التي حفروها بايديهم .. واتجه مع عثمان الى الجهة التي تواجه رامات جان واخذ الجميع ينتظرون قدوم اليهود ويلقنوهم درسا لن ينسوه ..

(50)

لم يكن اليهود يتوقعون المصيبة التي تنتظرهم .. اسرعوا في مساء ذلك اليوم بالهجوم على سلمة وكلهم

امل انهم سيقومون بحرقها دونما مقاومة .. فمن اين لاهالي سلمة السلاح ؟..

كان الموت يتربص بهم .. وكان الدرس قاسيا جعلهم يحسبون الف حساب لتلك القرية التي تتربص بهم وبمستعمراتهم الهادئة .. لقد جن جنون اليهود وروعهم ما فقدوه من قتلى وما حملوه من جرحى .. واخذوا يتباكون امام اسيادهم الانجليز ..

ورأى الدكتور ان ما لديهم من سلاح غير كاف لحماية القرية من هجوم مفاجئ .. انهم في حاجة الى اضعاف هذه الكمية من الاسلحة .. وفؤاد .. هو الشخص الوحيد الذي يستطيع ان ينقذهم ..

واتجه الدكتور الى بيت فؤاد .. وفتح له الباب رجل ما ان شاهده حتى اعتلاه الوجوم .. لقد عرف فيه ذلك الرجل السمسار الذي طالما حاول اقناعه ليبيع المزرعة بعد ان قتل اليهود والده ..

ولم يتمالك الدكتور نفسه وصاح به :

- ماذا تفعل هنا ..

ورد الرجل ضاحكا :

- جميلة جدا لهجتك .. دكتور حسين شلبي على ما اعتقد .. آه .. اهلا وسهلا .. ماذا تريد ..

وحار الدكتور ماذا يقول له .. انه جاء لمقابلة فؤاد .. هل يقول له انه يريد فؤاد .. يقول لهذا الرجل الذي يخدم اليهود انه يريد فؤاد ..

وقال الرجل السمسار ساخرا :

- ماذا تريد يا حضرة .. هل لديك مزرعة تريد ان تبيعها ..

وكظم الدكتور غيظه للهجة التي كلمه بها هذا الرجل ثم اجاب :

- اريد مصطفى .. اهو موجود ؟...

- مصطفى .. من مصطفى .. اتقصد فؤاد .. اخي ..

- فؤاد .. اخوك .. يا للسماء .. هذا غير ممكن ..

وظهر فؤاد في تلك اللحظة وكان قد سمع صوت الدكتور حسين فاسرع نحو الباب :

- دكتور حسين .. اهلا وسهلا ..

ثم اشار الى اخيه وهو يقول :

- عزيز .. اخي

فبهت الدكتور واعتلت وجهه الحيرة

- اخوك ..

ولاحظ فؤاد الحيرة التي بدت على الدكتور فقال :

- اجل اخي .. الا تصدق ..

- اصدق .. اجل اصدق .. كم في الدنيا من عجائب ..

واتجه الدكتور مع فؤاد الى غرفة الضيوف وهو لا يلتفت ويدير رأسه ناظرا الى عزيز الذي اخذ يبحلق فيه كانما ينذره اذا تكلم ..

ولما جلس الاثنان قال فؤاد :

- ما بالك يا دكتور .. اتستغرب ان يكون لي اخا ؟..صحيح انني لم اخبرك بذلك من قبل ..

فاجابه الدكتور :

- لا استغرب ان يكون لك اخا .. ولكن اليس في فلسطين كلها رجل آخر يمكنه ان يكون اخوك غير هذا الرجل :

- ماذا تقول ؟..

- انني اعرف عزيز ..

- انت تعرفه .. لم يبد عليك ذلك ..

- وهو يعرفني عز المعرفة .. لقد حاول مرارا ان يرغمني على بيع المزرعة لليهود ..

وفغر فؤاد فاه .. وكان لا يصدق ما يسمع .. بينما استطرد الدكتور يقول :

- ان هذا الرجل يعمل سمسارا ويخدم اليهود ..

وفتح الباب في تلك اللحظة وظهر عزيز وهو يضع يديه على خاصرته واخذ يهز رأسه قائلا :

- وما دخلك انت في عملي ؟..

وصاح فؤاد :

- عزيز .. احقا ما يقول الدكتور ..

وشعر عزيز انه وقع في قبضة اخيه فاراد ان يتحداه فقال عزيز :

- اجل يا اخي .. انني اعمل سمسارا منذ سنوات .. وهل في ذلك ما يضيرك .. يا اخي ..

ثم استطرد عزيز متهما :

- يا مصطفى الحلبي ..

- هل تريد ان تهددني بمعرفة سري .. اتقصد ان اقف مكتوف الايدي ازاء خيانتك للقضية .. وان كنت اخي فانني لن ارحمك .. ان سري لم يعد خافيا ولا اريده ان يكون خافيا .. انا فؤاد عبد الرحمن الذي حكم عليه الانجليز بالاعدام .. لا يهمني هذا .. فنحن نعيش في حرب .. حكموا على بالاعدام لانني كنت احمل سلاحا .. وها انا ذا احمل نفس السلاح الذي ساحاكمهم فيه .. وساحاكمك معهم يا عزيز ان انت لم ترجع عما انت فيه ..

وشعر عزيز بالخطر يحيط به واصفر وجهه وهو يشاهد الغضب في وجه اخيه الذي يعرف عن وطنيته فقال :

- ومن اين ساعيش ؟..

فصاح فؤاد :

- هل اقفلت ابواب الرزق جميعا لتلق بنفسك في الطين .. ان الموت جوعا خير الف مرة مما اقدمت عليه .. عزيز .. ليس لديك سوى احد امرين .. اما ان تثوب الى رشدك والا فساقتلك بيدي ..

وفكر عزيز .. هل من الممكن ان يقتله اخوه .. اجاب نفسه بلا .. بل سوف يقتله لو هو اصر على موقفه .. فليخدعه .. لقد اشتغل سنوات طوال دون ان يعلم احد بذلك حتى زوجته لم تكن تعرف عن عمله سوى انه (كمسيونجي) يستلم البضائع ويسلمها .. ووجد نفسه يجيب :

- حقا يا فؤاد انك على حق ..

ونظر اليه فؤاد وكانما شعر بما يدور بخلد اخيه .. وقال :

- هل تعاهدني على عدم الرجوع الى تلك المهنة ..

- اعاهدك ..

- انك ستقسم امامي هنا على القرآن الكريم ..

ولم يفكر عزيز حين اجاب ..

- اجل .. فلقد عزمت فعلا ان ارتجع .. ولكني في حاجة الى بعض النقود لابدأ عملا جديدا ..

- ساقدم لك ما تشاء ..

وخرج عزيز بينما التفت فؤاد الى الدكتور وهتف :

- لقد سمعت الاخبار .. لله درك يا سلمة .. لقد رفعت رأسنا عاليا .. كيف حال الشباب .. هل اصيب احد منهم باذى ؟..

- لا ..

- وعثمان .. هل هو الذي قتل اليهوديين ؟..

فاجابه الدكتور باستغراب :

- يهوديين .. وكيف عرفت ذلك .. ان هذا غير مكتوب في الجرائد ..

- غير موجود في الجرائد العربية فقط .. ولكنه مكتوب في جريدة (بالستين بوست).

- ماذا تقول الجريدة بالحرف الواحد ؟.. انني لم اقرأها .

- انها تكذب طبعا .. تقول .. ان احد اهال سلمة قام باغتيال اثنين من اليهود اثناء قيامهما بالعمل في بيارة مجاورة لقرية سلمة .. واستطاعت الفتاة التي تعمل معهما ان تنجو بعد ان اصابت القاتل اصابة خطيرة .. وقد عاود اهالي سلمة الهجوم على اليهود الذين ذهبوا لاحضار الجثتين وحصل اشتباك .. الا انه لم تقع خسائر في صفوف اليهود ..

وضحك الدكتور وهو يقول :

- يا سلام .. حكم .. من اين يخترعون هذا الكلام .. ليحضر أي حمار الى ارض المعركة ويشاهد دمائهم ودموعهم كيف ارتوت منها الارض .. والآن يا فؤاد لقد جئتك لامر مهم جدا .. اننا في حاجة ماسة الى كميات كبيرة من الاسلحة .. فهل انت على استعداد لتزويدنا بها .. وفي هذه المرة ساعطيك نقودا ..

- نقودا .. وهل آخذ نقودا في سبيل واجب اقوم به .. عيب يا دكتور ..

- النقود ضرورية لك .. اننا نريد اصلاح امر عزيز ..

- آه .. فكرتني .. كما تشاء ..

- ساعطيك الف جنيه .. الا يكفي هذا ..

- هذا كثير ..

- والآن ماذا لديك من الاسلحة ..

- انني في انتظار خمسين بندقية وحوالي عشرة مدافع رشاشة غير الذخيرة ..

- حقا .. ان هذا لامر مفرح .. ومتى ستصل هذه الاسلحة ؟..

- ان لم يكن الليلة .. فغدا ..

- بشرك الله بالخير ..

- هل انتم مصممون على ان تقفوا دائما موقف الدفاع .. هلا هجمتم انتم ..

- ليس لدينا القوة الكافية .. وعندما تصلنا شحنة الاسلحة الجديدة فسنفعل ..

- هل ادلك على طريقة تحصلون فيها على اسلحة .. طريقة سهلة جدا ..

- ما هي ؟..

- تمر كل ليلة قافلة من نيتر الى رامات جان .. هاجموها .. واستولوا على اسلحتها .. وليكن هجومكم سريعا حتى تنتهي العملية قبل وصول اية نجدة ..

- هذه فكرة رائعة .. ولكنها في حاجة الى قائد عسكري مثلك لينفذها ..

- ساقوم بها فعلا قبل ان اسافر ..

- تسافر الى اين ؟..

- الى العمل .. لقد انتهت اجازتي .. بعد ثلاثة ايام يجب ان اكون في المعسكر ..

- اتعني اننا سنقوم بالهجوم غدا ..

- تماما .. وسننجح باذن الله ..

كانت القافلة التي انتظرها اهالي سلمة بقيادة فؤاد تتكون من ثمان عربات تحرسها مصفحات ولم يكن سيرها سريعا خشية ان تعكر سكون الليل ..

وانفجر اللغم تحت المصفحة التي تتقدم القافلة وعلا صراخ اليهود في الوقت الذي انقض فيه رصاص المجاهدين كالمطر من كل جانب وعلا صراخ اليهود .. كل يحاول الفرار والنجاة بنفسه بينما اخذ القمر يرتفع رويدا رويدا وكانما اراد ان يقود المعركة بنفسه .. وظهرت اشباح اليهود الهاربة واخذت تتهادى تحت نيران المجاهدين . وانقض هؤلاء على السيارات بسرعة واتجهوا بها وبالمصفحة السليمة ناحية سلمة ..

ولم يشأ فؤاد ان يخسر أي جولة فترك اهالي سلمة يذهبون بالمصفحة بينما بقي مع بعض الافراد في انتظار أي نجدة يمكن ان تصل..

وصل القادمون الى البلدة التي استيقضت على اصوات الرصاص واخذت تهلل وترقص فرحا للنصر الباهر الذي احرزه هؤلاء. وعل ضوء القمر اخذوا يحدقون في الغنائم التي انتزعها رجالهم من ايدي الاعداء. وارتفعت الثقة وسمت الروح المعنوية الى قلوبهم..

وارتفع اصوات رصاص من جديد واتجه المسلحون الى ارض المعركة كسر شوكة القوة التي جاءت لنجدة المهزومين..

ما ان اصبح الصباح حتى تجمعت القرية كلها حول بيت الدكتور حسين.. وقف وقبضة يده تضرب الهواء بقوة وهو يصيح:

- هذا اول درس ايها الشباب.. ان سلمة ستثبت وجودها وسيسطر اسمها في سجل الخلود.. بهمتكم واستبسالكم..

واخذ الرجال يرقصون الدبكة بينما علت زغاريد النساء من كل جانب وارتفع الغناء وعمت الفرحة الاشجار والطيور...